رأيي صواب يحتمل الخطأ.. ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب

# الحوار

العدد 162
السنة الخامسة عشرة
شتاء 2017


- النص القرآني وإشكالية التجديد
- عورات القراءة الماركسية للتاريخ
- أين نحن من التخطيط الاستراتيجي؟!
- حوار الوفاق العراقي بين المهام والمستحقات
- مقاربات المسألة الكوردية

العد 162
السنة الخامسة عشرة
شتاء 2017

مجلة سياسية ثقافية فصلية تصدرها مؤسسة الإعلام والفن للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political, cultural magazine issued quarterly by Kurdistan Islamic Union

صاحب الامتياز
صلاح الدين بابكر

رئيس التحرير
سالم الحاج
salimalhaj83@yahoo.com
07504499179

هيئة التحرير
سعد الزيباري
saadsuhaib@yahoo.com

د. نبيل فتحي حسين
nabil_fathi72@yahoo.com

سرهد أحمد علي
sarhad_ahmad72@yahoo.com

الإخراج الفني
قوباد ياسين طه
tqubadyasen@yahoo.com

الموقع الألكتروني
http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الألكتروني
alhiwar2003@yahoo.com

alhiwarmagazine2002

alhiwarmagazine

العنوان
إقليم كوردستان العراق/ أربيل - محلة طيراوة/ مقابل نقليات الشمال/ قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

# المحتويات


| | | |
|---|---|---|
| **دراسات** | | |
| - النص القرآنى وإشكالية التجديد من الجمال إلى الجلال | د.اليامين بن تومى | ٥- ١١ |
| - منهج الوسطية الإسلامية بين الواقع والطموح | د. دحام الهسنيانى | ١٢-٢٤ |
| - أين نحن من التخطيط الاستراتيجى؟! | سعد الزيبارى | ٢٥-٤٧ |
| - الإرساليات الكاثوليكية | د.فرست مرعى | ٤٨ -٥٦ |
| - التعددية السياسية والحزبية من منظور إسلامى | سالم الحاج | ٥٧-٦٥ |
| **عبق الكلمات/ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ** | عبد الباقى يوسف | ٦٦-٦٧ |
| **مقالات** | | ٦٨ |
| - حول النبوءات المستقبلية | د.عمادالدين خليل | ٦٩ -٧٤ |
| - عورات القراءة الماركسية للتاريخ | د.مصطفى عطية | ٧٥-٧٩ |
| - الإنسان والأمانة الإلهية | معصوم محمد خلف | ٨٠-٨٤ |
| - جابر بن حيّان وعلوم عصره | عرض: د.نبيل فتحى حسين | ٨٥-٨٨ |
| - تأملات فى آية الاصطفاء | صالح شيخو الهسنيانى | ٨٩-٩١ |
| - حمير تقدمّوا.. عقلاء تأخرّوا! | د.عبد الحكيم مختار | ٩٢-٩٣ |
| - بين وهم الفشل وقوة الإرادة.. | زهراء مؤيد رمضان | ٩٤ |
| **مرافئ/ الإعلام والسياسة، أيهما يصنع الثانى؟!** | د.يحيى عمر ريشاوى | ٩٥ |
| **شؤون سياسية** | | ٩٦ |
| - حـوار الوفاق العراقى بين المهام والمستحقات | على رسول الربيعى | ٩٧ -١٠٤ |
| - مقاربات المسألة الكوردية.. | خليل إبراهيم | ١٠٥-١١٠ |
| - أحداث السادس عشر من أكتوبر | سرهد أحمد | ١١١-١١٢ |
| - الإرهاب البوذى | د.سعد الديوجى | ١١٣-١١٥ |
| **رؤية/ الكورد والقدس** | **شيروان الشميرانى** | ١١٦-١١٧ |
| **تراجم عراقية** | | ١١٨ |
| - عالم فقدناه وداعية ودعناه | خليل محمّد | ١١٩-١٢٢ |
| **قراءة فى كتاب** | | ١٢٣ |
| - كتاب: مدارس الموصل (دراسة تاريخية حضارية) | د.محمد نزار الدباغ | ١٢٤-١٢٧ |
| **إصدارات جديدة** | | ١٢٨ |
| **بصراحة/ كيف يمكن إصلاح حال الأمّة؟** | **صلاح سعيد أمين** | ١٢٩ |

| | | |
|---|---|---|
| **تقارير** | | ١٣٠ |
| - الاتحاد الإسلامى يدين قرار الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل | تقرير: الحوار | ١٣١-١٣٢ |
| - احتجاجات فى إقليم كوردستان | تقرير: سرهد أحمد | ١٣٣-١٣٤ |
| - مؤتمر دولى بالمغرب حول السنة النبوية | تقرير: الحوار | ١٣٥ |
| **آخر الكلام/ المنطقة فى ظل غياب القانون** | **محمد وانى** | ١٣٦ |

# دراسات

| | |
|---|---|
| - النص القرآنى وإشكالية التجديد من الجمال إلى الجلال | د.اليامين بن تومى |
| - منهج الوسطية الإسلامية | د.دحام الهسنيانى |
| - أين نحنُ من التخطيط الاستراتيجى؟! | سعد الزيبارى |
| - الإرساليات الكاثوليكية | د.فرست مرعى |
| - التعددية السياسية والحزبية من منظور إسلامى | سالم الحاج |

# النص القرآني وإشكالية التجديد
# من الجمال إلى الجلال

**الدكتور اليامين بن تومى**
**أكاديمى وباحث من الجزائر**

ما معنى أن نجعل النص القرآنى فى صدر البحوث الجمالية من الوجهين؛ الفينومولوجى والأنطولوجى/ الشكلى، أقصد النص كبناء، وليس كخطاب، ذلك أن هناك فرقاً جوهرياً بين النص والخطاب، فالنص أولاً هو ما ثُبِّت بالكتابة، كما يقول (رولان بارت)، أىْ نقصد به النَّسيج معنى التركيب؛ النص فيما هو وحدة بنيوية بارزة تَنُصُّ نفسها، على اعتبار أنها وحدة لسانية منتجة، تدخل ضمن شبكة علاقات إنتاجية، كما تُعرِّفه (كريستيفا)[١]، ويعرّفه (القاموس الموسوعى الجديد لعلوم اللسان) بقوله: "هو سلسلة لسانية محكيّة، أو مكتوبة، وتشكّل وحدة لسانية"[٢].

والفرق الجوهرى بين النص و الخطاب، أن الخطاب لا يكتفى بالبنية اللغوية المغلقة بقدر ما يخرج للتمثّل، أى ينتقل من البنية إلى الوضعيات الخارجية/ السياقية التى تحكمها إحداثية (الزمان و المكان)، وهذا ما يُحلله (تودوروف)، فى كتابه المهم (مفاهيم سردية)، حين يقول: "نسمّى وضعية الخطاب مجموع الظروف التى يجرى فيها فعل التلّفظ، مكتوباً أو شفهياً، يجب أن نفهم المحيط الفيزيائى والاجتماعى فى الوقت نفسه، حيث يأخذ هذا الفعل مكانه، فالصورة التى هى عند المتكلمين هويتهم، الفكرة التى يكّونها الواحد عن الآخر.. ونسمّى أحياناً هذه الظروف: السياق"[٣].

١-جوليا كريسطيفا ،علم النص، ترجمة: فريد الزاهى، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩١. الفصل الأول من الكتاب. [١]

٢-أزوالد ديكرو وجان مارى سشايفر، القاموس الموسوعى الجديد لعلوم اللسان، ترجمة: منذر عياشى، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء- بيروت. الطبعة الثانية ٢٠٠٧. ص:٥٣٣ [٢]

٣- تزيفنتان تودوروف، مفاهيم سردية، ترجمة: عبد الرحمان مزيان، منشورات الاختلاف، الجزائر .ص: ٥٣. [٣]

وعموماً ما يعنينى هنا أن أنظر إلى النص القرآنى على اعتباره بنية مكتملة، أو "هو ما ازداد وضوحاً عن الظاهر"[١]، فاكتمل ضمن إطاره ووحدته، واتّصف بالكمال على سبيل أنه الحدّ الذى ليس بعده، لأنه يتعلّق بالختم المطلق للديانات التوحيدية قاطبة، فكان الكمال فى وجهين: كمال فى الدين، وكمال فى الحجيّة؛ كما فى قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا}[٢].

والمكتمل فى ذاته لا يحتاج إلى زيادة، والاكتمال يرتبط بختم التشريع، فلا تبديل فيه ولا تغيير، أى إن الكمال يوجب الاتّباع بهذا الاعتبار. والمكتمل فى ذاته حجّة فى نفسه، ومحاججٌ عن حامله، نبيّاً كان، أم متّبعاً، لِلُزومه الحق الظاهر، فلا يغلب عليه متكبّر ولا مدّع.

ولما كان ذلك كذلك؛ أردت أن أعرض هذا البيان على الدرس الجمالى المعاصر، من أجل أن نُخَرِّجَ النص مع ما يتجانس معه، حيث إننى استشكلت الحكم الذى يتصوّره البعض حول النص القرآنى فيعتبرونه (نصاً جميلاً)، فهذا الحكم - فى منظور الدرس الجمالى - حُكمٌ مَتَعجِّل وسابق لأوانه، لا ينمُّ عن مقدرة علمية رصينة.

و هنا نشتغل على تثوير فضلتين مهمتين:

-أولاً: أن نعيد تأمّل درس الإعجاز القرآنى فى ضوء الدرس الجمالى المعاصر، لنعيد إحياءه فى مصبّ مغاير تماماً.

- ثانياً: أن نُصوِّب الفهوم التى وقعت أحكامها فى الزلل، جرّاء إسقاط عبارة إعجازية على أخرى غير إعجازية، من دون سبر عميق للمعجز: ماذا يعنى أصلاً؟

ما نريده بلغة (هوسرل) الفينومينولوجية، أن نمارس نوعاً من الردّ الماهوى للقرآن، أىْ إنْ نردَّهُ لذاته، لنرى هل يمكننا الحكم عليه بالجميل، أم بخلافه؟ ألا يوقعنا القول بالجميل للنص القرآنى، فى نوع من الإسقاط بين بِنيَتين: إعجازية وغير إعجازية، أىْ حين أقول إن النص القرآنى جميل، فهذا فى الأصل حكم، و لا يصدر الحكم إلا عن خبرة سابقة، والخبرة السابقة هى جملة المعايير و التقاليد التى انطلقنا منها للحكم على الشىء أنه جميل. بمعنى أن الجميل هو؛

- ما انطلقنا فيه من خبرة سابقة.

-أن الجميل لا يكون كذلك إلا إذا كان بالقياس على شىء كان لنا نموذجاً.

-أن الجميل حكم.

-أن الجميل هو ما تعارف عليه المجموع فى زمان معين، ومكان معين، أنه كذلك. فالجميل هو ما شكّله الوعى لدى جماعة فى ظرف معين. نسمّيها هنا: التقاليد الجمالية.

وعليه، فالجميل لا يكون جميلاً، إلا إذا كان لنا عنه رصيد سابق، ننطلق منه لنحكم على ما تبدّى لنا جماله الآن.

لذلك يطرح ( pierre sauvanet بيار سوفانيى) فى كتابه المهم: ( éléments d'esthétique) عناصر الجمالية، وهى: التجربة الجمالية l'expérience esthétique والمسافة الجمالية la distance esthétique[٣].

أىْ إن أىّ حكم جمالى ينطلق أساساً من التجربة، وهى الخبرة وكليّة الوعى الجمالى الذى تربّى عليه الفرد فى فترة معينة، أىْ إن هناك مسافة تُشكِّل الذوق الجمالى من جيل إلى جيل، فكل تجربة تتمخّض عن زمانية معينة تَمُدُّ الذوق العام بنمط معين من الأحكام المتواترة، هذه الأخيرة تنعكس على الفرد، لتتحكم فى ذوقه بشكل عام، لكنها تتبدّل نتيجة طفرات أو منعطفات تحصل

١-محمد فتحى الدرينى، المناهج الأصولية فى الاجتهاد بالرأى فى التشريع الإسلامى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٩٩٧، بيروت. ص: ٦٧. [١]

٢-سورة المائدة الآية ٣. [٢]

[٣] -pierre sauvanet, éléments d'esthétique ;édition Ellipses 2014.pp 28/33.

فى لحظة زمنية معينة، تتغيّر معها كل الأحكام الجمالية فى فترة أخرى. وهكذا يدخل الحكم الجمالى فى صيرورة زمنية.

ويحلّل (غادامير) هذه الوضعية المتقلبة للفهم والوعى الجمالى فيقول: "بناء على ذلك، تكتسب المسافة التاريخية معنى جديداً، ومختلفاً، باعتبارها زمكانية إيجابية وإنتاجية للفهم، فالزمن لم يعد فجوة ينبغى عبورها، لأنه يمثّل حدّاً فاصلاً، لكنه - فى الحقيقة- الأساس المدعم للعملية التى يتأصّل فيها الحاضر. إنها ليست هاوية، لكنها ممتلئة باستمرارية العرف والتراث، التى فى ضوئها يتمّ استحضار كل ما كتب فى الماضى إلينا"[١].

هاهنا سننظر فى القرآن على مستوى المسؤولية التاريخية للأشكال الأدبية، لأن الإعجاز الذى نلاحقه فى شكل الاكتمال البنائى، معجز فى كليّته الوحدوية. ولعلّ مسائل الإعجاز قد طرحت كثيراً فى تاريخنا الإسلامى، كما وصف ذلك (محمود محمد شاكر)، فى كتابه (مداخل إعجاز القرآن)، حيث وقف عند الدلالات اللغوية للفظة المعجز والإعجاز والتحدى، وقام بالبحث عن المجالات الدلالية للمصطلحات، ليصل أن لفظة الإعجاز دخلت مجال الحقل التداولى العربى الإسلامى، فى حدود القرن الثالث للهجرة، مع الجاحظ، وكتابه (نظم الإعجاز)، الذى يرى فيه أول ما كتب، ثم تلاه (أبا عبد الله الواسطى) المعتزلى، فكتب كتاباً وسمه بعنوان: (إعجاز القرآن)[٢].

ولكن (الباقلانى) يرى فى (الجاحظ) استمراراً لبحوث سبقته، يقول: "وقد صنّف الجاحظ فى نظم القرآن كتاباً، لم يزد فيه على ما قاله المتكلّمون قبله، ولم يكشف عمّا يلتبس فى أكثر هذا المعنى"[٣].

والإعجاز من أهم الأبواب التى شغلت العلماء، وقد نقلت إلينا الكثير من الرسائل، أهمها رسائل: الرمانى، والخطابى، وعبد القاهر الجرجانى، والتى جمعها كلٌّ من: (محمد خلف الله أحمد)، و(محمد زغلول سلام)، فى كتاب سمّوه بـ(ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرمانى والخطابى وعبدالقاهر الجرجانى).

هذا الباب مهم جداً، فى تصوّرى، لإعادة تأمّل ميراثنا الأدبى والنقدى والكلامى، للخروج من المعضلة المنهجية والتأملية التى عصفت بنظرتنا للتراث، لأن تراكم مفهومات الإعجاز ليست واحدة، بل هى كثيرة ومتنوعة، ومداخلها متعددة، فكان مبتدأ الأمّة أن أعجزهم على مستوى بيانه، وفصاحته، ثمّ على مستوى الكمال والختم، ثم على مستوى النبوة، أىْ تدّرج بهم من الإلهيات إلى النبوات، ثم على مستوى التخصيص الجزئى للآيات الربانية فى الآفاق.

وهكذا توالت صور الإعجاز لا تهدأ ولا تتوقف، ولأن الوجه والمنظور متعلّق ابتداءً ببناء الإعجاز فيه، فهو معجز فى التعدد وعدم الانتهاء.

لزم أن نعيد تأولّه خارج دائرة الفصاحة، ونلقى به فى ضوء نظرية القوالب، أو الأجناس الأدبية. ولعلّ البعض يتخوّف أن نَغُوصَ فى الأمر مخافة الزلل، لكن حُجَّتنا فى ذلك منطلقها: إنْ كان القرآن معجزاً فهو مفحم، ولا نخاف عليه من جهة كونه كذلك، إذ الإعجاز نقطة نووية فيه، لا يتحرك إلا بها و إليها.

وهنا نطرح سؤالاً جوهرياً، على مستوى الرؤية والبناء:

- أليس القرآن كلام خرق كل أنظمة العرب البلاغية والنحوية؟ هل يمكننا أن نتصوّر القرآن خارج الخرق الأسلوبى لنظام كلام البشر وقوانينهم فى الصناعة الكلامية؟ هل يتراكب أن يخترق المعجز، ما ليس بمعجز؟

---

١- ماهر عبد المحسن حسن، جادامير: مفهوم الوعى الجمالى فى الهرمنيوطيقا الفلسفية، دار التنوير، بيروت ٢٠٠٩. ص: ١٧٧. [١]

٢- محمود محمد شاكر، مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدنى القاهرة، ٢٠٠٢.ص:٢٨. [٢]

٣- الباقلانى، إعجاز القرآن، ص ٧. [٣]

إن المسألة تحمل فى داخلها تركيباً مزدوجاً عن كلام ليس بمعجز كان هو السائد، والجاهز، كالشعر و السجع، وبين كلام معجز شكَّل الطُّفرة، أى إن نظام القرآن لم يكن من مقول العرب، ولا من السَّائد عندهم من جهة البناء، فهو ليس متاحاً لهم من جهة النَّسج، أى إنه فى خانة المتفرد و المتميز، لقوله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[1].

وقوله كذلك، متحدّياً الثقلين معاً، على أنه ليس فى مقدورهم أن يكون القرآن من جنس كلامهم، ولا من مُتَعَيَّنِ خطابهم: قوله تعالى: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}[2]. وفى قوله كذلك:

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }[3].

وهنا يعلّق (الباقلانى)، فى كتابه المهم (إعجاز القرآن): "فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله، دليلاً على أنه منه، ودليلاً على وحدانيته"[4]. فالمجال التداولى للإعجاز قائم على التحدى وكسر التوقّع، وهذا ما أشاره (محمود محمد شاكر)، فى كتابه (مداخل إعجاز القرآن): "ولفظ التحدّى وضعه المتكلمون، واصطلحوا عليه، لتصوير موقف مشركي العرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين تلا عليهم القرآن، وجاهرهم بأنه كلام الله يوحى به إليه، وأنه هو وحده الدليل على أنه نبى الله أرسله إليهم"[5].

ولخّص (الباقلانى) وجوه الإعجاز فى ثلاثة أوجه:

-أحدهما يتضمن الإخبار عن الغيوب.

-ثانيهما أنه كان معلوماً من حال النبى أنه كان أميّاً لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ.

- ثالثهما أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ فى البلاغة، إلى الحدّ الذى يعلم عجز الخلق عنه.[6]

أىْ إنه لم يخرق معهود الكلام فحسب، بل خرق كل الأفق الجمالى l'horizon esthétique، أىْ تجاوز مفهوم ما هو جميل عند العرب. تجاوز أعرافهم، والتقاليد التى توارثوها.

وهنا تتداخل مفاهيم من قبيل؛

- الجميل؛ إشكالية المصطلح: الجميل، والرائع، والجليل. ثم سأضيف مصطلحاً توّغل كثيراً فى الفقه الجمالى الإسلامى، و هو يتجاوز ما حدّده (كانط)، والذى قصدته هنا بـ(الجلال)، وهو ليس (الجليل) المعروف عند (كانط).
- إشكالية الوعى الجمالى، وخرق الأفق الجمالى.
- فى تقويض الجميل لصالح الجليل، وتقويض الجليل لصالح الجلال.

---

[1] - **البقرة ٢٣/٢٤**

٢- **الإسراء٨٨** [2]

[3] - **هود ١٣.**

٤-أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة. ص: ٢٣. [4]

٥- محمود محمد شاكر، مداخل إعجاز القرآن. ص: ٢٩ [5]

٦- الباقلانى، المرجع السابق .ص : ٥١. [6]

إن الجميل، بالمفهوم العربى، كانت تحكمه القبيلة، وتقاليدها المتوراثة كابراً عـن كـابر، بيـنما القرآن هو ما ليس بجميل، إذا قيس بكلام العرب. لأن العرب، إذا ولد عندها الشاعر، جعلته على رأس الناس، وقدّمته، كيف لا وهو من يذبّ عنها، وينافح عن أحسابها وأنسابها.

فالقرآن يعتبر من جهة الابتـداء، أول مـن قـوّض تلـك التقاليـد القديمـة، حيـث قلـب نسـق الشعر، وقوَّض أساساته، وما بقى منه نقل ايديولوجيته من نموذج الكذب إلى نموذج الصدق، بـل زحزح مكانة السجع فى شخص الكاهن، والشعر فى شخص الشاعر، إلى القرآن، وشخص النبى، ومـا كانت تمضى عشرون سنة حتى كان القرآن هـو الظـاهر عـلى ألسـنتهم، و الغالـب عليهـا. وكتـب التراث غنيّة بالأدلة على ذلك.

إذاً، العرب تمتلك تقاليد جمالية حسية، تتناقلها أبـاً عـن جـد، تلـك التقاليـد تحكـم للشـاعر بالفحولة، أو دون ذلك، بل صنّفت العرب شعراءها فى شكل كُنى عَلِقت بطبيعة الشـعر، فقالـت: مهلهل، ونابغة، وو .. وغيرها من الألقاب، حتى لما جاء القرآن رجعت عن ذلك، وصار الشعر نصاً ثانياً شارحاً للقرآن، ومُعزّزاً له، لا أكثر.

لأنه (القرآن) صار أرفع درجة من الجميـل، صـار المفـارق والمتجـاوز لكـل جميـل، لا تنظّمـه أحوال الجميل، ولا معانيه، يتجاوز كل مفاهيم الشكل، وحـدّ الجـنس الأدبى؛ مـن شـعر وحكايـة وسجع للكهّان، هو كل هذا، وليس كل ما يدّعى وصله به، وليس هـو. هـو فقـط هـو، عـلى غـير صفة، ولا جنس، ولا حدّ، مما تعيّن باعتباره صفة، أو جنساً، أو حدّاً. لذلك كان معجزاً. فـما صـفة إعجازه، إن لم يكن بالجميل؟ أىْ لم تنظمه تقاليد الجميل المعروفة من جنس أو نوع؟ فأىّ حكـم جاهز حوله، لا يعدّ طريقاً لفهمه؟

يقول (كانط): "لكي نعرف إن كان أى شىء جميلاً، أو لا، فـنحن لا نحيـل إلى تمثّلـه للموضـوع بواسطة الفهم، مع نظرة إلى المعرفة، بـل نحيـل - بواسـطة الخيـال - إلى تمثّـل الـذات، وشـعورها باللذة، أو الألم، وحكم الذوق ليس معرفياً، وبالتالى ليس منطقياً، بل حكم جمالى."[1]

وعليه، فالتذوق هو ملكة حكم على موضوع ما، أو نمط ما، تمثّل عـن طريـق رضـا أو قنـوط، بمعزل عن أى مصلحة، ويسمّى موضوع هـذا الرضـا بالجميـل.. فهـل يمكـن أن تتنـزل مـن هـذه الأحكام القبلية على القرآن، لنحكم عليه بالجميل، نتيجة ما يخلّفـه فينـا مـن رضـاً، أو أنـه مـا لا يشكّل رضًا أساساً.

السؤال الذى ينبغى أن نطرحه: هل يكون الرضا خارج أحكامنا القبلية، التى خبرناها قـبلاً، أم أن أحكام الرضا تستلزم أن تكون جميلة دائماً؟ فالرضا هو ما يوافق العـرف، مـا يُمكننـا أن نحكـم عليه بالجميل، فما بالنا بما ليس بعرف، أو بما نقض العرف؟

لا يمكننا البتة أن ننطلق فى الحكم على القرآن انطلاقاً من أحكام الرضا القبلية، التـى تمثلناهـا على سبيل الحكم. إذاً، فهذا النَّص لا يصلح مع التعامل بالأعراف التى تصنع حكمنا على الجميـل، لأنه - ومن ناحية شكلية بحتة - لا يمكننا أن نصفه فى خانة الشعر، ولا النثر.

أىْ إن جميع أحكامنا القبلية عن النوع الأدبى، هى فى خانة اللاحكم، لأنه القـرآن؛ مـا لا لـيس بجنس ،فهو على غير مثال، ممّا نعرفه من حكم قبلى؛ شعراً كان أو نثراً.. هذا مـن ناحيـة شـكلية، فكيف يمكننا تذوّق النص من جهة النوع، وهو خارج عن مدركنا ووعينا بالنوع؟! فإذاً نحقق من منطلق الرضا أىّ حكم يمكننا أن نسمّيه بالجميل. فالجميل هو مـا يمكـن أن ينسـجم مـع الخـبرة الواقعية المتمثّلة، والقرآن ما ليس بخبر سـابق، هـو مـا قـوَّض كـل الفُهـوم السـابقة للخـبرة عـن الجميل الذى يمكن أن نعاينه.

هو ما ليس بشكل فى حالة الخبرة، لأنه – بإيجاز - نص معجز..

فما المعجز، فى صدر الحكم الجمالى؟ أو كيف يمكننا - مـن وجهـة شـكلية بحتـة - أن نثبـت للنصّ حدّ الشكل، لأن النفى سيقطع النص من الاتصـال الإعجـازى، عنـد زرعـه زرعـاً بشـرياً، أو

[1] ١-امانويل كانط، نقد ملكة الحكم، ترجمة: سعيد الغانمى، منشورات الجمل، أبو ظبى ٢٠٠٩.

القطع مع النص، من جهة تحديد شكله، سيجعله فى قطع عن التواصلية، التى هى أسّ دَوَرَانِه، أىْ هو فى الاعتبار ما يقطع خارج الحكم، لعدم توفّر إمكانية أن نصدر باتجاه أىّ رضا، لعدم توافر الخبرة التى نصدر عنها.[1]

فنحن نصدر عنه، إمّا باتجاه حكمنا على نص الشعر، أو نص النثر، وهو ما ليس بهذا، ولا بذاك. وعليه، فالحكم هنا منقوص من جهة الاكتمال، وعلّته.

وفى تصوّرى إن مجال بحث القرآن ليس مبحث الجماليات، لأنها لا توفّيه حقّه من التعيين والتحديد، لقصور الحكم على وقفه، ولعدم انضباطه بما يتساكن داخل الجميل من أفاهيم، فهو قطعاً ما ليس بجميل.. نحتاج هنا لضبط عميق للمعنى المعجز.؟

المعجز هو ما شبّ عن الطوق، وكسر الحدود، وخرق المعهود والمثال والنسق، أىْ ما كان على غير مثال، وركّب ممّا يفهمونه، ما لا قبل لهم الإتيان به.. و قد يقول القائل:

هناك من يستطيع أن يكون له من كلامهم ما يعجزون عن الإتيان به؟ فإن صحّ التخمين الثانى، قال لمن يأتى أن يحقّق الرضا من جنس ما يعرفه الناس، لأن المثل يثير الخيال فقط، ولكن القرآن يوهم السَّامع بالنقيض، كما يقول (ابن سينا)، يَعرفُون منه القول، ولا يعرفون الجنس، فجلّ معانيهم سفليّة.. أىْ أن ما فعله القرآن من جهة شكلية، كسر حدّ الكلام/ القالب/ الجنس/ عندهم: حدّ الشعر، وحدّ السجع، و بذلك كسر كل الأفق الجمالى للعصر الذى ظهر فيه.

**وهنا، ولرتيب مبحث الأحكام، يمكننا أن نسمى مبحث الدائرة الجمالية للقرآن، أنها دائرة الجلال، إنه ما يمكن أن نسمّيه جلالاً، وهو بخلاف الجميل، والجليل.**

والجليل قد يتضمّن الجميل، أىْ قد نعبر من الجميل إلى الجليل، ولكنه - من جهة الحكم - هناك فرق بينهما: يحمل الجليل مفهوم الهيبة العليا، يحمل التفرّد، والمخالف، والاستثنائى، بل يدلّ على مدلول الطفرة.. إنه ليس بالحسّ، ولا التأمّل، بل موضوعه العقل، بل هو مساوٍ للعقل.

الجميل دائرته الحسّ والتأمّل.

الجليل دائرته العقل.

الجلال دائرته القلب والتسليم.

هنا نجد أنفسنا بصدد التوليف بين أمرين: ما ليس بصورة محسوسة مطلقاً، وما هو بفكرة عقلية.. فهل يكون الجليل؛ ما كان عقلانياً، ذلك أن العقل وحده مَنْ فى ممكنه أن يكون مماثلاً للجليل. يقول (كانط): إن الجميل يحمل معه مباشرة شعوراً بالسموّ بالحياة.. وبالتالى، فهو يتساوق مع الافتتان، والخيال الذى يلعب ويمرح، بينما يكون الشعور بالجليل لذة، لا تنبثق على نحو غير مباشر. بينما الجلال ما تجاوز أوهام الخيال؛ إنه يرتع فى عالم الحقيقة الكلية، لأنه على شاكلتها. لذلك لا تجب به الهيأة الموجبة للتصوّر، بل يقتضى التسليم.

من منظور توجيهى، نجد أن القرآن هو – هو؛ فى ذاته يحمل ما فى الشعر، وليس بشعر، ويحمل ما فى النثر، وليس بنثر.. وبالتالى، لا نملك حكماً تأمّلياً، ولا تجريبياً، يمكننا أن نتكئ عليه للحكم على النص. كل ما يمكننا أن نعضده هنا، هو أن الشكل القرآنى يُخلف فى النفس صدمة، من جهة البناء.

وعليه نكون بإزاء تعقّل هذا الشكل، ممّا يجعله مساوياً للعقل فى كونه رسالة. أمّا من جهته النصية، فهو مقوّض للأعراف التى تعارفنا عليها سابقاً. فهو – ككتلة - فوق أىّ حكم عقلى.

و بالتالى، يتحقّق رضاً عقلانى بالجديد الوافد، ليعيد ترتيبه، ووضعه وضعاً شكلانياً، ليستوعبه العقل.. وهذا ما جعلنى أتنزّل القرآنى فيما يسمّى ***بالجلال***، و هو إذًا ما يقوّض بنية الجميل والجليل، لأنه على شاكلته.. {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.

---

١- يرجع فى مفهوم الخبرة لكتاب: سعيد توفيق، الخبرة الجمالية دراسة فى فلسفة هيدجر، سارتر، ميرلوبونتى، دوفرين، انجاردن . [1]

أيْ ليس على مثاله شيء، و لا ينبغى ذلك.. فالتنزيه هنا ليس فى الذات فقط، بل فيما يلحقها كذلك فى سائر الأفعال والأسماء. والدليل: هو التأكيد الذى يدحض النقيض، فى قوله: وهو السميع البصير، هذا الدحض فى كل ما يلحق الذات، باعتبارها جوهر التنزيه، مما يستحيل معه الشبيه والمماثل.

ولما كان ذلك كذلك، استحال أن يكون للكلام شبيه أو مماثل له، لذلك حين أراد أن يدحض استشراف أىّ مماثلة قال: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[1].

فإنْ تحقّقت القدرة على المثال فى البناء، لكان خالصة الإعجاز ليس فى الكثير الذى يوهم الكمال، بل فى القليل الذى يثبت المماثلة، وهذا ممّا يقطع به المُحال، وفيه فائدة دقيقة أن البناء الذى يوصف بالمعجز، هو فى العلوّ فى مرتبة مرسله، لزم أن يكون متّصفاً باسميّته، متنزّهاً بها، لذلك أقترح تشقيق مصطلح ***الجلال***، كبديل عن أىّ من المصطلحات التى توهم الفاحص بالبحث، لكنه من قبيل المشابهة والمماثلة والتعطيل، وهذا مما اجتمع عليه أوّل الأمّة، وآخرها، بركنيته فى الاتّباع.

والجلالىُّ ليس درجة فى سلّم الجميل، فهو ما تجاوز السلّم، لأن العقل ليس فى مقدوره أن يتصوّره، أو يحدّه، إلا ما خصّ الله به ذاته.. وجاء فى (لسان العرب): "الله الجليل، سبحانه ذو الجلال والإكرام، جل جلال الله، وجلال الله عظمته، ولا يقال الجلال إلا الله"[2].

هذا التخريج يحقّق نزعتين؛

- أن نعيد ترتيب الوضع البنيوى للنص القرآنى، بما يتناسب ووضعه البنيوى والحضارى.
- أن درس الجلاليات يعيد للنص وقاره، وسمته الذى يميّزه عن الأشكال الدنيا الأخرى، التى توصف وصفاً جمالياً، والأشكال الفنية التجسيدية، التى توصف بالرائع، والأشكال الديونزسية، التى توصف بالجليل. ومن حقنا أن نُشقّق اصطلاحاً بحثياً جديداً، يهتم بمباحث القرآن التى توصف بالجلال❐

١- سورة هود **الآية ١٣.** [1]

٢- ابن منظور، لسان العرب، المجلد ٢ ، دار الحديث، القاهرة، ٢٠١٣. ص :١٧٩ [2]

# منهج الوسطية الإسلامية

# في التجديد

## - القسم الأول -

د.دحام إبراهيم الهسنيانى

✍ من مظاهر الوسطية في الإسلام: الوسطية في التجديد، والذى يقوم على ركنين: اعتماد على الأصول، واتصال بالعصر.. أما الاعتماد على الأصول، فيتمثل بالاعتماد على الشرعية القائمة على الثوابت الكبرى، وهى حفظ الضروريات الست: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ النسل، وحفظ العرض، وحفظ العقل، وحفظ المال، والمحافظة على قطعيات الشريعة، وأحكامها، وعلى الفرائض، وعلى القيم الأخلاقية.

وإن شريعة الإسلام قد اتسعت في كل عصر وزمان عبر آلة التجديد، ولهذا قال فقهاؤنا في باب الوسطية: إن الفتوى تتغير بتغيّر الزمان والمكان والأحوال والأعراف. فهذا (أبو يوسف) و(محمد بن الحسن)، صاحبا الإمام (أبي حنيفة)، قد خالفا إمامهما في كثير من مسائل الفقه، وقالا: لو رأى إمامنا ما رأينا لغيّر رأيه، بناء على ما طرأ من تغيّر الزمان والمكان، وتطوّر في مسيرة الحياة.

وإذن، فالتجديد ضرورة ملحة لاستيعاب قضايا العصر، ومتطلبات الحياة، من خلال الثبات على مقاصد الشريعة، وقواعدها العامة، ومبادئها الكلية، مع المرونة في الوسائل، ودقة الفهم، وإدراك المصلحة.

وهذا يقتضى أن يتصدّى للفتوى في قضايا الأحكام من لديه الأهلية في العلم. وقد قال الصحابي الجليل (ابن مسعود): (إن أحدكم ليفتى الفتوى، وهى من القضايا التى لو سئل عنها الخليفة عمر لجمع لها أهل بدر)( )، فأجرأ الناس على الفتوى أجرؤهم على النار.( )

**الوسطية بين الأصالة والتجديد:**

تيار الوسطية تيار ممتد عبر التاريخ، ليس وليد حالة تاريخية واجتماعية راهنة، إنما هو نتاج لحركة التجديد والإحياء الإسلاميتين، قادها عبر عصور مختلفة عدد من العلماء والمفكرين الإسلاميين عبر التاريخ. ولئن عرفت المجتمعات المسلمة، فى مراحل متعددة، بروز أفكار وسلوكيات متشددة، أخذت من الدين الجوانب الأكثر صعوبة، بل وبالغت فيها، حتى تصوّر بعض الناس أنها هى الجانب الأهم من الحياة، ومن الدين، فإن التيار الأعمّ والأكثر شعبيةً وانتشارًا عبر تاريخ المسلمين هو تيار الوسطية والاعتدال. وقد خطّ القرآن الكريم، وخطّ الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فى ذلك منهجًا وسطيًّا واضحًا لا لبس فيه، من خلال التوجيهات المحذّرة من الغلوّ، والمرغّبة فى التيسير والتخفيف، ومن خلال سيل من المبادئ والقواعد، التى جعلت تيار الوسطية تيارًا أصيلاً ضاربًا فى أعماق التاريخ الإسلامى.

إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومرونة الإسلام ذاتية لا إضافية، ومن ثم فعندما نتحدث عن التجديد، فإننا نتحدث عن متن هذا الدين، وعن طبيعته، وعن جوهرة.. ولا يجوز لأحد أن يفهم هذا التجديد على أنه عملية (ترقيع) أو (تطوير) أو (إصلاح) لهذا الدين، فالاعتقاد بصلاحية الإسلام ـ كما نزل ـ لكل زمان ومكان، جزء من الاعتقاد بالإسلام أصلاً!

إن الإسلام تنزيل معصوم، كامل، شامل، سامق، قادر وحده على الاستجابة لحلّ كل المشكلات المتجددة، والتعامل مع كل الظواهر المستحدثة، فلا حاجة إلى إدخال عناصر غريبة عليه، بزعم تطويره وتحديثه! لأن إدخال هذه العناصر يعنى أنه ناقص أو غير كامل.. لا.. إنه دين الله القويم .

ونعرض هذا الموضوع الذى كثر فيه الجدل، لا سيما فى هذه الأيام، بما يأتى :

**أولاً: معنى التجديد لغةً:**

التجديد فى أصله اللُّغوى: مأخوذ من جدَّد الشىءَ، وتجدَّد الشىءُ، إذا صيَّره جديداً، أو صار جديداً. والتجديد فيه طلب واستدعاء، إذ التاء للطلب، فيكون تجديد الشىءِ يعنى طلب جِدَّتِه بالسعى والتوسّل إلى ما يجعله جديداً. والجديد نقيض الخَلَق والبلى، وضدّ القديم، بمعنييه: القديم زماناً، والقديم بقاءً، وهو التقادم- فيُقال: بلى بيت فلان، ثمّ أَجَدَّ بيتاً مِنْ شَعْر.. ويُقال لليل والنهار: الجديدان، لأنهما لا يبليان أبداً( ). ومن معانى التجديد فى أصل اللُّغة: التعظيم والإجلال، ومنه قوله تعالى: {وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا}، أىْ عظمته وجلاله وغناه. ومن معانيه كذلك: الوسطية، يقولون: جادّة الطريق، أى: سواء الطريق ووسطه .

من هنا ندرك أنَّ التجديد لا يعنى بحالٍ الإتيان بجديد منقطع عمّا كان عليه الأمر أولاً، ولكن يعنى :

- أنَّ الشىء المجدَّد قد كان فى أول الأمر موجوداً وقائماً، وللناس به عهد .
- وأنَّ هذا الشىء أتت عليه الأيام، فأصابه البِلَى، وصار قديماً خَلِقاً .
- وأنَّ ذلك الشىء قد أُعيد إلى مثل الحالة الأولى التى كان عليها قبل أنْ يبلى وَيَخْلَق .( )

**ثانياً: معنى التجديد شرعاً:**

اكتسب التجديد شرعيته من وروده فى الحديث النبوى الشريف، الذى قال فيه النبى(صلى

الله عليه وسلم): (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها).( )

فالتجديد مشروع وثابت وواقع بالنص، وليس بعد بيان رسول الله(صلى الله عليه وسلم) بيان.. فلا ينبغى أن نخاف من كلمة التجديد فى الدين، بعد أن صحّ بها الحديث. إنما الذى ينبغى هنا، أنْ نحدّد معنى (التجديد)، حتى لا يتلاعب المتلاعبون بالدين وحقائقه باسم تجديدهم المزعوم، وما هم من التجديد فى كثير ولا قليل..

وتجديد شىء ما لا يعنى إزالته، واستحداث شىء آخر مكانه، بل تجديده يعنى إعادته أقرب ما يكون إلى صورته الأولى يوم ظهر لأول مرة، والمحافظة كل المحافظة على جوهره وخصائصه ومعالمه، وعدم المساس بها.. وهذا ينطبق على الماديات والمعنويات. فتجديد بناء أثرى، قصر أو معبد أومسجد، لا يعنى هدمه وبناء آخر مكانه على أحدث طراز، بل إبقاءه والحرص على إرجاعه إلى صورته الأولى، ما أمكن ذلك. فهذا هو التجديد الحقيقى.

وتجديد الدين يشمل تجديد الفهم، والفقه فيه، وهذا تجديد فكرى.. كما يشمل تجديد الإيمان به، وهذا تجديد روحى.. وتجديد العمل له، والدعوة إليه، وهذا تجديد عملى.. وكل عصر يحتاج إلى تجديد يناسبه، ليجبر القصور والنواقص، ويعالج الأدواء.. على أن هناك منطقة لا يدخلها التجديد بحال، وهى منطقة (القطعيات)، التى قال فيها الإسلام كلمته البيّنة الحاسمة، سواء فى مجال العقائد، أم العبادات، أم الأخلاق، أم التشريع، وهى التى تجسّد الوحدة العقدية والفكرية والشعورية والسلوكية للأمة المسلمة.( )

ولبيان المعنى الشرعى – لا سيما فى ظلال هذا الحديث الضخم – ينبغى علينا أن نستعرض بعض أقوال العلماء عن التجديد والمجددين:

يقول شيخ الإسلام (ابن تيمية): "والتجديد إنما يكون بعد الدروس، وذاك هو غربة الإسلام، ويحيى فيه شعار المسلمين وأحوال المؤمنين والمجاهدين، حتى يكون شبيهاً بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار. فمن قام فى هذا الوقت بذلك، كان من التابعين لهم بإحسان، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه، وأعدّ لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ذلك الفوز العظيم.( )"

وعن المجددين يقول (ابن القيم): "هم غرس الله الذين لا يزال يغرسهم فى دينه، وهم الذين قال فيهم على بن أبى طالب كرّم الله وجهه: لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته"( ).

ويقول (العلقمى)، فى معنى التجديد: "هو إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسُّنَّة، والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات.( )"

وهذا المعنى يصوغه الأستاذ (وحيد الدين خان) فى عبارة مبينة:

"إن تجديد الدين لا يعنى اختراع إضافة لدين الله، وإنما يعنى تطهير الدين الإلهى من الغبار الذى يتراكم عليه، وتقديمه فى صورته الأصلية النقية الناصعة.( )"

وقد ورد فى (الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة) معنى التَّجديد فى الإسلام: "إحياء وبعث معالم الدِّين العلميّة، بحفظ النُّصوص الصَّحيحة نقيّة، وتمييز ما هو من الدِّين ممَّا هو ملتبس به، وتنقيته من الانحرافات والبدع النَّظريّة والعمليّة والسُّلوكيّة، وبعث مناهج النَّظر والاستدلال، لفهم النُّصوص على ما كان عليه السَّلف الصَّالح، وبعث معالمه العمليّة، بالسَّعى لتقريب واقع المجتمع المسلم فى كُلّ عصر إلى المجتمع النَّموذجىّ الأوّل، من خلال وضع الحلول الإسلاميّة لكُلّ طارئ، وجعل أحكام الدِّين نافذة مهيمنة على أوجه الحياة،

ووضع ضوابط لاقتباس النَّافع الصَّالح من كُلّ حضارة، على ما أبانته نصوص الكتاب والسُّنَّة، بفهم السَّلف الصَّالح .( )"

ويبدو أنَّ أصحاب الموسوعة استعانوا في تعريفهم للتَّجديد بما جاء في كتاب (بسطامي سعيد) عن التَّجديد، فقد نُشِرَ هذا الكتاب قبل الموسوعة، وتعريفه للتَّجديد هو: "السَّعي للتَّقريب بين واقع المجتمع المسلم في كُلّ عصر، وبين المجتمع النَّموذجيّ الأوّل الذي أنشأه الرَّسول(صلى الله عليه وسلم)، وكما يكون ذلك بإحياء مفاهيم ذلك المجتمع وتصوراته للدِّين، وإحياء مناهجه في تدوين العلوم، وتكوين نظم الحياة، واقتباس النَّافع الصَّالح من كُلّ حضارة، يكون أيضاً بتصحيح الانحرافات النَّظريّة، والفكريّة، والعمليّة، والسُّلوكيّة، وتنقية المجتمع من شوائبها .( )"

وقيل معناه: "تبيين السُّنَّة من البدعة، وإكثار العلم، ونصرة أهله، وكسر أهل البدعة"( ). وقال الحاكم: "سمعت أبا الوليد حسّان بن محمد الفقيه يقول، غير مرة: سمعت شيخاً من أهل العلم يقول لأبي العباس بن سريج: أبشر أيها القاضي، فإن الله - سبحانه- بعث عمر بن عبد العزيز على رأس المائة، ومنّ على المسلمين به، فأظهر كل سُنّة، وأمات كل بدعة، ومنّ الله على المسلمين على رأس المائتين بالشافعي، حتى أظهر السنّة، وأمات البدعة، ومنّ الله علينا على رأس الثلاثمائة بك، حتى قويت كل سنّة، وضعفت كل بدعة.( )"

ومعنى التجديد الاصطلاحي الشرعي يظهر أكثر بتعريف (أبي الأعلى المودودي) إذ يرى أنَّ المجدِّد هو: "كل من أحيا معالم الدِّين بعد طموسها، وجدَّد حبله بعد انتقاضه"( )، فيكون التجديد: إحياء معالم الدِّين بعد طموسها، وتجديد حبله بعد انتقاضه. والطموس لم يكن للدِّين، وإنما كان لمعالمه، ولا يريد بالطموس انتهاءه بالكلية من قلوب الناس وحياتهم، ولكن أراد به عدم ظهوره في جوانبه كلها. كما أنه -رحمه الله- لم يُلصِقْ الانتقاض بالدين، بل ألصقه بحبل الدِّين، وحبل الدِّين وسيلة التمسك به، من شعائر، ومشاعر، ونُسُك، وارتباط الوجدان بالمشاهدة، والمراقبة، والصدق، والتوكل، واستمساك العروة الوثقى، توجهاً بالنفس، وتوجيهاً بالدعوة.

فالتجديد ـ إذاً ـ لا يستلزم إقامة شيء جديد على أنقاض القديم، ولا يعني رفض القديم كله، بحسبان نفود صلاحه، وأنه صار سلباً غير نافع، يجب إلغاؤه، والإتيان بجديد مغاير، منقطع عنه، أصلاً ووصفاً. ولذلك يعرف الدكتور (يوسف القرضاوي) التجديد لشيء ما بأنه "محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وهِيَ منه، وترميم ما بلى، ورتق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى.( )"

يفهم من كلام الشيخ (القرضاوي) أن التجديد يعني جعل الشيء جديداً، فتجديد الدين يعني إعادة نضارته ورونقه وبهائه، وإحياء ما اندرس من سننه ومعالمه، ونشره بين الناس. وهذا اللفظ (التجديد) يؤكد أن التجديد الموعود لا بد أن يكون على حين فترة من العلماء، واضمحلال لشأن أهل الحق وحملة السنة، فيبعث الله هؤلاء المجدّدين ليعيدوا للناس الثقة بدينهم، ويعلّموهم ما جهلوا من شأنه.

فالتجديد الصحيح هو الرجوع إلى المنابع الأولى الصافية، كما يقول العلامة الشيخ (شبلي النعمان): "إن نهضة الشعوب الأخرى هي أن تتقدّم إلى الأمام، أما نهضتنا فهي أن نعود إلى الوراء حتى ننضم إلى عصر النبوة".()

ولكن حقيقة ما يعنيه التجديد هو إعادة الأمر إلى ما كان عليه أولاً، وهو نوع من الإجلال لذلك الأمر، وتعظيم له، على خلاف ما يعتقده كثير من سامعى هذا المصطلح، ومطلقيه.

والتجديد فى مراد العلماء -إذاً- يصدق فى أمور :

أولها: إحياء ما اندرس من العلم والعمل.

وثانيها: الأمر بمقتضى الكتاب والسُّنَّة، عند غياب الأمر بهما، أو التساهل فى الاستمساك بمقتضاهما.

وثالثها: تبيين السُّنَّة، وتمييزها عن البدعة، إذا اختلطتا وتمازجتا. فلو لم يقوَ الناس، أو يقتدروا، على التمييز بينهما، لتمكَّن الجهل، وتفشَّت الشُّبهة.

ورابعها: إماتة ما ظهر من البدع والمحدثات، بنشر العلم، والدعوة به، وإكثاره، ونصرة أهله، وكسر أهل البدع والمحدِثين .

وخامسها: إحياء معالم الدِّين، بعد ما أصابها الطموس، بعوامل القسوة، وطول الأمد، كما أصيب أهل الكتاب منهما. وقد أخبر الله عنهم فى قوله: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}.( )

وسادسها: ربط حبل الدِّين، وتوثيقه، فى وسائله ووسائطه التعبدية والخلقية والوجدانية، إذا أوشك أنْ ينتقض، استمساكاً بعروة الدِّين الوثقى، وحفاظاً على أسبابه المثلى، التزاماً وثباتاً .( )

وذلك كله مقصود المصطفى(صلى الله عليه وسلم)، حين يطلب: إصلاح الذات، وتنقية القلب، وتزكية النفس من رواسب طول الأمد، وتراخى الرباط الإيمانى، فى قوله: (جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ) قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا؟ قَالَ: (أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللهُ)( ). وهذه هى الحكمة من وراء دعوة الإسلام إلى ضرورة تعّهد الإيمان فى القلب، وعدم إهماله ولو لحظة من نهار.. وهذا وصف دقيق من النبى الرحيم (صلى الله عليه وسلم) لما يعترى الإيمان من ضعف، والقلوب من تنكّر لقيمه، ثم وصف لما يتجدّد به الإيمان من علاج يتحدّد فى الذكر، فى قول: (لا إله إلا الله).( )

يقول (بديع الزمان سعيد النورسي): "إن الإنسان لكونه يتجدد بشخصه وبعالمه الذى يحيط به، فهو بحاجة إلى تجديد إيمانه دائماً، لأن الإنسان الفرد ما هو إلاّ أفراد عديدة، فهو فرد بعدد سنىّ عمره، بل بعدد أيامه، بل بعدد ساعاته، حيث أن كل فرد يعدّ شخصاً آخر، ذلك لأن الفرد الواحد، عندما يجرى عليه الزمن، يصبح بحكم النموذج، يلبس كل يوم شكل فرد جديد آخر. ثم إن الإنسان مثلما يتعدّد ويتجدّد هكذا، فإن العالم الذى يسكنه سيّار أيضاً، لا يبقى على حال، فهو يمضى ويأتى غيره مكانه، فهو فى تنوّع دائم، فكل يوم يفتح باب عالم جديد. فالإيمان نور لحياة كل فرد من أفراد ذلك الشخص من جهة، كما إنه ضياء للعوالم التى يدخلها. وما (لا إله إلاّ الله) إلاّ مفتاح يفتح ذلك النور. ثم إن الإنسان تتحكّم فيه النفس والهوى والوهم والشيطان، وتستغل غفلته، وتحتال عليه، لتضيّق الخناق على إيمانه، حتى تسدّ عليه منافذ النور الإيمانى، بنثر الشبهات والأوهام. فضلاً عن أنه لا يخلو عالم الإنسان من كلمات وأعمال منافية لظاهر الشريعة، بل تعدّ لدى قسم من الأئمة فى درجة الكفر. لذا فهناك حاجة إلى تجديد الإيمان فى كل وقت، بل فى كل ساعة، فى كل يوم".( )

ولعله المراد من جهود الطائفة القائمة على الحق للاستمساك بعروة الدِّين الوثقى، وإبقاء

شعائره وشرائعه صافية نقية، دون تغبّر أو تغيّر، بجهود الطائفة الظاهرة بالحق على الحق، كما في حديث ثَوْبَانَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ(صلى الله عليه وسلم): (لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ..)( ).. وفيه إشارة إلى ما يصيب الأمة من الانحراف والضعف والوهن والاختلاف، حتى لا يبقى إلا هذه الطائفة القائمة بالحق، المقاتلة دونه، القاهرة لعدوها، الصابرة، فلا يضرّها من خذلها، ولا من ناوأها، إلا ما يصيبها من اللأواء، حتى يكون آخرهم مع عيسى ابن مريم، يقاتلون الدجال.

وقد قال الإمام (البخارى) في ترجمته على الحديث: "باب قول النبى(صلى الله عليه وسلم): (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، وهم أهل العلم).( )

قال الإمام (النووى)، في شرحه لهذا الحديث: "ويحتمل أن هذه الطائفة مفرّقة بين أنواع المؤمنين؛ منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدّثون، ومنهم زهّاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرّقين في أقطار الأرض"( ). ونقل (ابن حجر) كلام (النووى)، ثم زاد في آخره: "ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكونوا في بعضٍ منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولاً فأولاً، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله".( )

ثم التجديد الحق، والإصلاح النافع، في أىّ سبيل كان، لا يقومان إلاّ على عواتق رجال أماجد، من ذوى العزائم القوية، والبصائر النافذة، ممّن تحقّقوا بالعلم، وتخلّقوا بالصبر والحلم، وأوتوا كمال الحكمة، وتمام الحزم، وقوة الجنان، وحسن البيان. فهم الذين لا تلتبس عليهم الأمور، ولا يستخفهم الهوى. وكم ذا رأينا الأمّة في مجموعها تنهض بعزيمة فرد واحد، أو أفراد قلائل، من هذا الصنف النادر، كما نهضت بعمر بن عبد العزيز، وبالإمام الشافعى، وبالإمام أحمد بن حنبل، والعز بن عبد السلام، وبابن تيمية، وبصلاح الدين الأيوبى، وبسيف الدين قطز، وبحسن البنا، وبسعيد النورسى، وأمثالهم من أماجد الرجال – عليهم من الله الرضوان - فأمثال هؤلاء هم صفوة الخلق حيث كانوا، وذخائر الأمّة في كل زمان.

لذلك فمن الأسباب الربانية المقتضية لحفظ الدين، أن يبعث في كل قرن من يجدّد للأمّة أمر دينها. وهذا التجديد، وإن جرى على أيدى بشر، إلاّ إنه لا يحصل إلاّ بإلهام من الله سبحانه، فإنه هو الذى يبعث هؤلاء، كما بيّنه الحديث: (إن الله يبعث...)، ثم إن لفظ البعث نفسه يومئ إلى معنى آخر مهم، وهو أن بعث المجدّدين في هذه الأمّة، نظير بعث المرسلين في الأمم السابقة، مع تفاوت الرتبة بين المصلحين والمرسلين (صلوات الله عليهم)، وهذا من مفاخر هذه الأمّة.

وبهذا البيان يظهر أن بعث المجدّدين، على رأس كل قرن، داخل في قوله تعالى: {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}( ) ، بل هو إحدى السبل التى يتحقق بها الحفظ، الذى وعد الله تعالى به.

وبهذا نكون قد تناولنا المفهوم الشرعى للتجديد، فضلاً عن كون التجديد طبيعة وسمة من سمات هذا الدين.

**الوسطية في التجديد، من خلال الارتباط بالأصل، والاتصال بالعصر:**

ولقد ظهر في زماننا من يقول: إن هناك تناقضاً بين اكتمال هذا الدين، وبين التجديد في الدين.. وهذا الكلام ليس بصحيح، وقد توهّمه البعض تحت تأثير المناهج الوضعية الغربية.

وهذا الأمر يستدعى البحث عن الحق، والكلمة السواء، فى هذا الموضوع.

والوسطية الإسلامية هى التى تجمع بين الاكتمال والتجدّد، فلا تنافى بين السلفية والتجديد، بل هناك تلازم بينهما.. فالسلفية الحقّة لا تكون إلاّ مجدّدة، والتجديد الحقّ لا يكون إلاّ سلفياً.. ذلك أن التجديد هو العودة إلى المنابع لرؤيتها بعقل معاصر، وتلك هى السلفية المجدّدة، التى ميّزت تيار التجديد فى حضارتنا على امتداد تاريخ الإسلام.

إن التجديد ارتقاء وتقدّم بالأمّة لتسلك طريقها مرة أخرى، كلما بعدت عن الصحيح الأصيل المتوارث.. ويرى المسلمون فى التجديد عملية دورية تتمّ على رأس كل مائة عام. كما يرون أن التجديد عملية مستمرة حتى يتحقق للإسلام الصلاحية الدائمة لكل زمان ومكان، ومسايرة تقدم الإنسانية وترّقيها. كما يتحقّق له أيضاً القدرة الدائمة على الاستمرار والبقاء. ولذلك يعتبر المسلمون التجديد واجباً، على علماء الأمة الإسلامية، أو ساستها، أن يقوموا به.

**شرح حديث المجدِّد:**

عن أبى هريرة: أن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) قال: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)( ). يهدف هذا الحديث إلى بعث روح الأمل فى نفوس الأمّة بأن جذوتها لن تخبو، وأن دينها لن يموت، وأن الله يقيّض لها كل فترة زمنية - قرن من الزمان- من يجدّد شبابها، ويحيى مواتها.. وأن الله لا يدع هذه الأمّة دون أن يهيّئ لها من يوقظها فى سبات، ويجمعها من شتات. كما أن هذا الحديث العظيم إحدى البشائر التى وعد الرسول(صلى الله عليه وسلم) فيها أمته، وإنه ليمنح المسلم المصدّق بما جاء به الرسول(صلى الله عليه وسلم) طاقة من الأمل الأكيد بنصر الله لعباده المؤمنين، ويمنحه - فوق هذا - دفعة قوية للعمل، والبذل، والتضحية، رجاء أن يكتب الله له حظاً من أجر المجدِّدين.

ومنهج الوسطية الإسلامية الجامعة، تعنى الوسطية بين السلفية والتجديد، بين العودة فى الأحكام الشرعية وغيرها إلى الجذور والمنابع، وبين ترميم ما أصابه من خلل على مرّ العصور، مع الإبقاء على طابعة الأصيل، وخصائصه المتميزة. فأول ما يستوقف المتأمّل قول الرسول(صلى الله عليه وسلم): (يبعث لهذه الأمّة): إنّ هذا المبعوث لم يعد همّه نفسه فحسب، بل تجاوز ذلك ليعيش (لهذه الأمة)، وسواء كان المقصود أمّة الدعوة - على ما رآه قوم -، أو أمّة الإجابة - على ما رآه آخرون -؛ فإنّ هذا المجدّد تعدّى نطاقه المحدّد إلى الأفق الأوسع، ليؤثّر فى مجريات الأمور والأحداث من حوله، وليقود خطوات الأمّة المسلمة فى معركة الحياة، ومن ثم يحدث التوازن فى مسيرة الحياة البشرية كلها، ويأخذ الإسلام دوره فى الوجود. وهو بهذا مجدّد للأمّة الإسلامية بإيقاظها، وإعادة ثقتها بدينها، وردّها إلى المنهج الصحيح.

وكلمة (الدين)، ومثلها كلمة (الإسلام)، إذا أطلقت، تعنى أحد أمرين :

**أولها:** المنهج الإلهى الذى بعث الله به رسوله، وأنزل به كتابه، من العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع، لينظّم بها علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الناس بعضهم ببعض، وهو ما عبّر عنه العلامة (ابن خلدون) بأنه: "وضع إلهى، سائق للبشر باختيارهم، إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم". وهذا المعنى- بالنظر إلى أسسه وأصوله - ثابت لا يقبل التغيير، ولا التجديد، من حيث هو حقيقة خارجية.

**الثانى:** الحالة التى يكون عليها الإنسان فى علاقته بالمعنى الأول: فكراً وشعوراً، وعملاً وخلقاً.

وفي هذا المعنى يقال: فلان ضعيف الدين، أو قويّه، حسن الإسلام، أو ردىء الإسلام .

والدين هنا متغيّر، متحرّك، فهو يزيد وينقص، ويضعف ويقوى، ويصفو ويكدر، ويستقيم وينحرف، بحسب فهم الإنسان له، وإيمانه به، والتزامه بتعاليمه. وهذا المعنى هو الذى يقبل التجديد. ولا غرو أن جاء (الدين)، فى الحديث السابق، مضافاً إلى (الأمّة)، وليس مضافاً إلى الله: (ليجدّد لها دينها)، فالتجديد ينصب على دين الأمّة، وليس على دين الله.( )

قال (المنّاوى) فى معنى (يجدّد): يبيّن السنة من البدعة، ويكثر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة.( ) فجعل التجديد منصبّاً على (العلم).

وفى مقام آخر قال: يجدّد ما اندرس من أحكام الشريعة، وما ذهب من معالم السنن، وما خفى من العلوم الظاهرة والباطنة( )، وهو يشمل العلم والعمل. والتجديد المطلق يشمل العلم والعمل جميعاً.

يقول الدكتور (يوسف القرضاوى): "أود أن أنبّه هنا على معنى مهم فى قضية التجديد، وهو: أن التجديد لشىء ما هو محاولة العودة به إلى كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وهى منه، وترميم ما بلى، ورتق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى. فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشىء آخر مستحدث مبتكر، فهذا ليس من التجديد فى شىء. ولنأخذ بذلك مثلاً فى الحسيّات. إذا أردنا تجديد مبنى أثرى عريق، فمعنى تجديده: الإبقاء على جوهره وطابعه ومعالمه، وكل ما يبقى على خصائصه، وترميم كل ما أصابه من عوامل التعرية، وتحسين مداخله، وتسهيل الطريق إليه، والتعريف به ... إلخ.. وليس من التجديد فى شىء أن نهدمه، ونقيم عمارة ضخمة على أحدث طراز مكانه. وكذلك الدين، لا يعنى تجديده إظهار طبعة جديدة منه، بل يعنى العودة به إلى حيث كان فى عهد الرسول(صلى الله عليه وسلم)، وصحابته، ومن تبعهم بإحسان.

وهذه العودة لا تخيف - كما يتوهّم بعض الناس - إنها فى الحقيقة العودة إلى التيسير لا إلى التعسير، إلى التبشير لا إلى التنفير، إلى الاهتمام باللباب لا إلى الوقوف عند القشور. إن الذى يقرأ فقه الصحابة والتابعين، يجد أنهم أفقه الناس لروح الإسلام ومقاصده. ولم يكونوا حرفيين، ولا شكليين. كانوا ملتزمين كل الالتزام بشرع الله. ومع ذلك كانوا يجتهدون فى أحكام الوقائع بروح سمحة، تعلّم الناس أن الله لم يشرّع دينه إلا لمصلحة عباده، وأنه يريد بهم اليسر، ولا يريد بهم العسر. وكان منهجهم، كما عبّر عنه سيدنا على: ترجيح (النمط الأوسط)، الذى يلحق به التالى، ويرجع إليه الغالى.( )

فتجديد الدين ثابت بالنصّ، ولكنه ليس هو الاجتهاد بعينه، وإن كان الاجتهاد فرعاً منه، ولوناً من ألوانه. فالاجتهاد تجديد فى الجانب الفكرى والعلمى، أما التجديد فيشمل الجانب الفكرى، والجانب الروحى، والجانب العملى، وهى الجوانب التى يشملها الإسلام، وهى: العلم والإيمان والعمل.

**من هو المجدّد؟**

وقد فهم جلّ شرّاح الحديث، من القدماء، أن المراد بـ (مَنْ) يجدّد الدين فيه: فرد واحد، يهبه الله من الفضائل العلمية والخلقية والعملية ما يجدّد به شباب الدين، ويعيد إليه الحيوية والقوة، عن طريق علم نافع، أو عمل صالح، أو جهاد كبير. وهذا ما جعلهم يحاولون تحديد هذا

(المجدّد) على رأس كل قرن، فاتفقوا حيناً، واختلفوا حيناً آخر؛ فقد اتّفقوا على أن مجدّد المائة الأولى: خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز.. ومجدّد المائة الثانية: الإمام محمد بن إدريس الشافعى. ومجدّد المائة الثالثة: أبو الحسن الأشعرى. ومجدد المائة الرابعة: أبو بكر الباقلانى. ومجدد المائة الخامسة: أبو حامد الغزالى. ومجدّد المائة السادسة: الفخر الرازى. ومجدد المائة السابعة: ابن دقيق العيد. ومجدد المائة الثامنة: الحافظ زين الدين العراقى. ومجدد المائة التاسعة: الحافظ جلال الدين السيوطى، وهكذا ..

ومن لفظ (التجديد) يظهر جليّاً أن المجدِّد صاحب إرادة فى التغيير فاعلة، وثّابة، فهو ينطلق بالأمّة من واقعها المرفوض المنحرف، صُعُداً فى طريق الصلاح والنجاح. أما أولئك الذين يرتضون الواقع السيّئ، ويباركونه، ويرون أنه من أزهى عصور الأمّة، فهيهات أن يكونوا من التجديد فى شىء.

**أقوال العلماء فى المجدّد:**

ذكر الحافظ (ابن حجر) فى (الفتح)، ما نبّه عليه البعض، وهو: أنه لا يلزم أن يكون فى رأس كل قرنٍ، واحدٌ فقط، بل يكون الأمر فيه، كما ذكره الإمام (النووى) فى شرحه للحديث: (لا تزال طائفةً من أمتى ظاهرين على الحق): "من أنه يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعدّدة من أنواع المؤمنين، ما بين: شجاع، وبصير بالحرب، وفقيه، ومحدّث، ومفسّر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وزاهد، وعابد. ولا يلزم اجتماعهم ببلد واحد، بل يجوز اجتماعهم فى قطر واحد، وتفرّقهم فى الأقطار. ويجوز تفرّقهم فى بلد، وأن يكونوا فى بعض دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم، أولاً فأولاً، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلدٍ واحد، فإذا انقرضوا أتى أمر الله".( )

ونقل (ابن حجر) كلام (النووى)، ثم زاد فى آخره: "ويجوز أن يجتمعوا فى البلد الواحد، وأن يكونوا فى بعضٍ منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم؛ أولاً فأولاً، إلى أن لا يبقى إلا فرقةً واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله".( )

وقال (ابن الأثير): "لا يلزم منه أن يكون المبعوث على رأس المائة رجلاً واحداً، وإنما قد يكون واحداً، وقد يكون أكثر منه؛ فإن لفظة (مَنْ) تقع على الواحد والجمع. وكذلك لا يلزم منه أن يكون أراد بالمبعوث: الفقهاءَ خاصة - كما ذهب إليه بعض العلماء -، فإنّ انتفاع الأمّة بالفقهاء، وإنْ كان نفعاً عاماً فى أمور الدين، فإنّ انتفاعهم بغيرهم أيضاً كثير، مثل: أولى الأمر، وأصحاب الحديث، والقرّاء، والوعّاظ، وأصحاب الطبقات من الزهاد؛ فإن كل قوم ينفعون بفنّ لا ينفع به الآخر؛ إذ الأصل فى حفظ الدين حفظ قانون السياسة، وبث العدل، والتناصف، الذى به تحقن الدماء، ويُتمكن من إقامة قوانين الشرع، وهذه وظيفة أولى الأمر. وكذلك أصحاب الحديث، ينفعون بضبط الأحاديث التى هى أدلة الشرع، والقرّاء ينفعون بحفظ القراءات، وضبط الروايات، والزهاد ينفعون بالمواعظ، والحث على لزوم التقوى، والزهد فى الدنيا. فكل واحد ينفع بغير ما ينفع به الآخر.. فإذا تحمل تأويل الحديث على هذا الوجه كان أولى، وأبعد من التهمة، وأثبه بالحكمة.. فالأحسن والأجدر أن يكون ذلك إشارة إلى حدوث جماعةٍ من الأكابر المشهورين على رأس كل مائة سنة، يجدّدون للناس دينهم.( )"

وقال الحافظ (ابن كثير): "وقد ذكر كل طائفة من العلماء: بل الصحيح أن الحديث يشمل

كل فرد من آحاد العلماء، من هذه الأعصار، ممن يقوم بفرض الكفاية في أداء العلم عمّن أدرك من السلف، إلى من يدركه من الخلف، كما جاء في الحديث من طرق مرسلة، وغير مرسلة: يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين. وهذا موجود، ولله الحمد والمنّة، إلى زماننا... هذا.( )"..

وقال الحافظ (ابن حجر): "وهذا متّجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا تنحصر في نوع من الخير، ولا يلزم ان جميع خصال الخير كلها في شخصٍ واحد، إلا أن يدعى ذلك في ابن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى، باتّصافه بجميع صفات الخير، وتقدّمه فيها. ومن ثم أطلق الإمام أحمد: أنهم كانوا يحملون الحديث عليه (يعنى الحديث الوارد في التجديد). وأما من بعده فالشافعى، وإنْ اتصف بالصفات الجميلة والفضائل الجمّة، لكنه لم يكن القائم بشأن الجهاد، والحكم بالعدل. قال: "فعلى هذا كل من اتّصف بشيء من ذلك عن رأس المائة هو المراد، تعدّد أم لا".( )

ويقول الدكتور (يوسف القرضاوى): "أرى أن (مَنْ) في الحديث، وفي لغة العرب عامة، تدلّ على الجمع، كما تدلّ على المفرد، وهى هنا تدلّ على الجمع كذلك، فمن يجدّد الدين في كل قرن ليس بالضرورة فرداً معيناً، بل جماعة من الناس، قد يكون منهم العلماء، ومنهم الولاة، ومنهم القوّاد، ومنهم المربّون.. وقد يكونون في بلد واحد، وقد يكونون في عدد من البلاد. وقد يعمل كل منهم وحده في مجاله، وقد يتعاونون فيما بينهم فيما يشبه الرابطة أو الجمعية. وقد يكون تجديد بعضهم في مجال الدعوة والثقافة، وآخر أو آخرين في مجال الفقه، وجماعة في مجال التربية والتكوين، وغيرهم في مجال الإصلاح الاجتماعى، وفئة أخرى في المجال الاقتصادى، وخامسة في المجال السياسى. ولا مانع من تعدّد هذه المجالات، واختلاف ألوان العمل والتجديد، على أن يكون اختلاف تنوّع وتخصّص، لا اختلاف تضاد وتناقض، أعنى: أن يكون هناك تكامل وتناسق وتعاون بين هذه الأنواع المختلفة من العمل، بحيث يكمّل بعضها بعضاً، ويشدّ بعضها أزر بعض، لا أن ينكر بعضها على الآخر، أو يعوق بعضها بعضاً، فيؤدى ذلك إلى ضعفها جميعاً، وقوة أعدائها. وإن ربط التجديد بفرد واحد فذّ، يجعل الناس يعيشون على أمل ظهوره، وكل ما عليهم انتظاره حتى تنشق الأرض عنه، ليجدّد ما عجزوا عنه. هذا سرّ تعلّق الجماهير بفكرة (المهدى المنتظر). والذى أراه أن يربط التجديد بجماعة أو مدرسة أو حركة، يقوم كل مسلم غيور فيها بنصيبه في موكب التجديد، ويسهم على قدر طاقته في مسيرته، ولا يصبح السؤال إذن متى يظهر المجدّد للدين؟ بل يكون: ماذا أعمل لتجديد الدين؟".( )

كما أنه لا بد أن نعلم أنه ليس هناك تناقض بين اكتمال هذا الدين، وبين التجديد في الدين. وأهمية هذه القضية تتأكد إذا نحن علمنا أن الذين يتوهمون وجود هذا التناقض ليسوا فقط الذين يتعصبون ضد الدين، فينحازون للتجديد الرافض للثبات والاكتمال في الدين، وإنما يتوهّم ذلك أيضاً نفر من أشد الناس تعصباً للدين، فينحازون لثبات الدين واكتماله، ضد التجديد. وإن الذين يستعينون بنهج الإسلام في الوسطية الجامعة، وينظرون إلى هذه القضية بمنظارها، لم ولن يعرفوا هذه الثنائية الانشطارية، ولا التقابل والتضاد بين اكتمال الدين وثباته، وبين التجديد والاجتهاد فيه.

إننا نتلو في آيات القرآن الكريم قول الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمْ الإسلام دِينا}( ). ونقرأ في السنة النبوية الشريفة قول رسول الله(صلى الله

عليه وسلم): (إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها).( )

فلا نشعر، إذا تسلحنا بالمنهج الإسلامى ووسطيته، أن هناك تناقضاً - كما يقول الدكتور محمد عمارة - بين اكتمال الدين بتمام الوحى وختام النبوة، وبين التجديد الدائم أبداً لهذا الدين، الذى اكتمل بختم الوحى، وتمام القرآن الكريم. ذلك أن الدين: عقيدة وشريعة، والعقيدة فيه هى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. والشريعة فيه كل ما ينتهجه المسلم، ويسلكه، ويقيمه، كي يعتقد هذه العقيدة، ويتديّن بها. ولكل من العقيدة والشريعة أصول وقواعد ومبادئ وأركان، وهى جميعها قد اكتملت بتمام الوحى الذى اكتمل به الدين. لكن الإنسان المسلم، بحكم خلافته عن الله في عمارة الأرض، واكتشاف أسرار الكون، وسياسة المجتمع، وتنمية العمران، لا بد له - وهو ينجز مهمة خلافته هذه - من إقامة أبنية أخرى (يبدعها) هو، فوق هذه الأصول والقواعد والأركان والمبادئ، التى لا (ابتداع) فيها. فالإسلام، كما يقول الحديث النبوى الشريف: (بنى على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت).( )

فهو إذن مبنىّ على هذه الخمس، وليس هو فقط هذه الخمس. وإنما هى القواعد التى بنى عليها الإسلام، وفوقها ترتفع وتعلو أبنية الفروع، فروع هذه القواعد والمبادئ والأصول والأركان. وهذه الأبنية - الفروع للأصول – والتى تتغيّر وتتجدّد وتتطوّر، تبعاً للمصالح الشرعية المعتبرة، ووفقاً لمقتضيات الزمان والمكان - إذا كانت متّسقة مع مقاصد الأصول، وغايات القواعد، وفلسفة المبادئ، وحدود الأركان – فهى تجديد فى نطاق وآفاق وتأثيرات هذه الأصول والقواعد والأركان. فالأصول الثوابت قد اكتملت باكتمال الدين، بينما آفاقها، وآثارها، والفروع الباسقة والمنبثقة منها، دائمة النمو والتغيّر والتطوّر، شاهدة على دوام التجديد، وعلى العلاقة بين هذا التجديد وبين الثوابت المكتملة من الأصول والقواعد والمبادئ والأركان.

ولوضوح هذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامى، كان اتفاق مذاهب الفكر الإسلامى على امتناع الاجتهاد فى الأصول، ففيها وعليها قامت وحدة الأمة، منذ اكتمال الدين بختم الرسالة.. وكان اتفاقها، كذلك، على أن الاجتهاد الإسلامى مجاله (الفروع).. فهو، عندئذ، يمدّ فروع الأصول إلى المستجدات من الوقائع والأحكام.. ويحلّ أحكاماً جديدة – أى فروعاً جديدة- محلّ أحكام تجاوزها الواقع الذى تغيّر، والعرف الذى تطوّر، والعادات التى تبدّلت، عندما تكون هذه الأحكام ذات علل غائبة، تدور معها وجوداً وعدماً.. بل إن هذا التجديد إنما ينهض بدوره الدائم فى الكشف عن جوهر الأصول والقواعد والمبادئ والأركان، وتجليتها، إذا علاها غبار الابتداع، فطمس معالمها بالزيادة أو الانتقاص أو التحريف أو فاسد التأويل.. ففى الأصول، وللقواعد أيضاً، – تجديد – بهذا المعنى.. وهو الذى جعل حديث رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، يتحدث عن (تجديد الدين)، وليس فقط تجديد فكر المتدينين بالدين"!.( )

**الشمول والعموم فى التجديد**

ونلحظ فى كلمتىْ: (الأمّة) و(دينها)، أن الأصل فيهما العموم والشمول. فهذه الحركة التجديدية التى تقوم عبر التاريخ الإسلامى، فى كل وقت يضعف فيه الخير وينكمش، تستهدف إصلاح الأمة بكاملها، فى جميع أقطارها، على كافة مستوياتها. فهى ليست حركة إقليمية محدودة، تقف عند بلد معين، لا تتعداه أهدافها وطموحاتها، وليست مقصورة على فئة

معينة من الفئات التي تكوّن المجتمع؛ بل تخاطب الشاب والشيخ، والعامل والموظف، والقريب والبعيد، والرجل والمرأة، تخاطب كل فئة على قدر ما تحتمله عقولها، وبالأسلوب الذى يناسبها، فالإسلام لم ينزل ليكون ديناً لفئة خاصة من العقلاء الأذكياء مثلاً! كلا، بل الإسلام إنقاذ للبشرية - كلها - من ظلمات الكفر - بأنواعه - في الدنيا، ومن ظلمات النار والسعير يوم القيامة. وقد آن الأوان أن يعقل المسلمون، والدعاة إلى الله خاصة، هذا المعنى، فلا يحجبون الخير عن سائر فئات الناس، ممن يتطلعون إلى الهداية، ويتقبلونها، ولو كانت استجابتهم تقف عند حدّ معيّن.

فلا بد للتجديد أن يكون شاملاً، لأن من خصائص التشريع في الإسلام الشمول، إنه لا يشرّع للفرد دون الأسرة، ولا للأسرة دون المجتمع، ولا للمجتمع منعزلاً عن غيره من المجتمعات في الأمة المسلمة.. إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد في تعبّده، وصلته بربه، وهذا ما يفصله قسم (العبادات) في الفقه الإسلامي، وهو ما لا يوجد في التشريعات الوضعية ..

ويشمل التشريع للفرد في سلوكه الخاص والعام، وهذا يشمل ما يسمى (الحلال والحرام)، أو الحظر والإباحة.. ويشمل التشريع ما يتعلق بأحوال الأسرة؛ من زواج، وطلاق، ونفقات، ورضاع، وميراث، وولاية على النفس، والمال، ونحوها. وهذا يشمل ما يسمى في عصرنا (الأحوال الشخصية).

ويشمل التشريع للمجتمع في علاقاته المدنية والتجارية، وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض، من البيوع، والإجارات، والقروض، والمداينات، والرهن، والحوالة، والكفالة، والضمان، وغيرها. مما تضمنته في عصرنا القوانين المدنية والتجارية.

ويشمل التشريع ما يتصل بالجرائم، وعقوبتها المقدرة شرعاً، كالحدود، والقصاص، والمتروكة لتقدير أهل الشأن، كالتعازير. وهذا يشمل ما يسمى الآن بـ (التشريع الجنائي)، أو (الجزائي)، وقوانين العقوبات.

ويشمل التشريع الإسلامي ما يتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين، وواجب المحكومين نحو الحكام، وتنظيم الصلة بين الطرفين، مما عنيت به كتب السياسة الشرعية، والخراج، والأموال، والأحكام السلطانية، في الفقه الإسلامي، وتضمنه في عصرنا (التشريع الدستوري)، أو (الإداري) و(المالي).

ويشمل التشريع الإسلامي ما ينظم العلاقات الدولية في السلم والحرب، بين المسلمين وغيرهم، مما عنيت به كتب (السير)، أو (الجهاد)، في فقهنا الإسلامي، وما ينظمه في عصرنا (القانون الدولي).( )

فليس (التجديد) - إذن - نقيضاً لـ (اكتمال الدين، وثباته)، بل إنه السبيل لامتداد تأثيرات الدين الكامل، وشموله، وعمومه، وثوابته، إلى الميادين الجديدة، والأمور المستحدثة، والضمان لبقاء (الأصول) صالحة دائماً لكل زمان ومكان.. أي إنه هو الضمان لبقاء الرسالة الخاتمة خالدة الخلود الذى أراده الله.. ولولا مدّ (التجديد) الفروع الجديدة إلى الجديد من المحدثات، وإقامته الخيوط الجديدة بين الأصول الثابتة وبين الجديد الذى يطرحه تطور الحياة.. ولولا تجديده الدائم الذى يجلو الوجه الحقيقي والجوهر النقي لأصول الدين وثوابته.. لولا دور (التجديد) هذا في حياة الإسلام، ومسيرته، لنسخت وطمست هذه الأصول، إما بتجاوز الحياة الممتدة لظل الفروع الأولى والقديمة، فيعرى هذا الامتداد الجديد من ظلال الإسلام، أو بتشويه البدع – عندما تتراكم- لجوهر هذه الأصول..

فـ(التجديد)، إذن، هو السـبيل لاسـتمرارية – أيْ ثبـات- الـدين الكامـل، ولـيس نافيـاً لثبـات واكتمال هذا الدين!

وإذا كان الله تعالى، قد تعهّد بحفظ القرآن الكريم، وصيانته عن التحريف والتبـديل – وفيـه جماع أصول الدين – فقال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّـا لَـهُ لَحَـافِظُونَ}( ) ، فإنـه - سـبحانه - قـد يسّر للمسلمين أسباب ذلك الحفظ، فكان جمعه وتدوينه وخدمته بعلوم القـرآن.. وكـذلك كـان الحال مع الدين الخاتم والرسالة العامـة، التـى عنـى خـتم الرسـالات بهـا، إرادة الله دوام بقائهـا وعطائها إلى أن يعرض البشر على بارئهم يوم الـدين.. فكـان السـبيل إلى دوام بقـاء هـذا الـدين، وعطائه، ووفائه بحاجات البشر المتجددة، هو إعمال سنة (التجديد) للدين.( )

نسأل الله الكريم العظيم أن يمن علينا بالعودة الصادقة لديننا الحنيف، وأن يحمينا ويحمـى جميع المسلمين من مضلات الفتن وأهواء الزمان، وأن يحمى بلادنا وبلاد المسلمين مـن كـل سـوء ومكروه، وأن يجمع كلمة أئمة المسلمين وعلمائها وشعوبها على الـبر والتقـوى، وصـلى الله وبـارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، ومن سار على نهجه، إلى يوم الدين، وسلم تسليماً.❐

# أين نحنُ من التخطيط الاستراتيجي؟!

**سـعـد الزيبارى**

saadsuhaib@yahoo.com

لا جرمَ أنّ الإنسان الفرد بحاجةٍ إلى أنْ يخطِّط لحياته، وأنْ يضعَ نُصبَ عينَيْهِ الأهدافَ العامّـة فى إطارٍ زمنىّ مُحدّد، مُركِّزاً على الأشياء المهمّة، ومُعوِّلاً على اختيـارِ الوسـائِل والإجـراءاتِ المناسِـبة لتنفيـذِ استراتيجيّاته. والإنسان الّذى يعيشُ حياته مُجرّداً مِنْ الأهدافِ والاستراتيجيّات الناجعة سـيعيشُ حياتـه فى قادِمِ أيّامِه لا يعرفُ إلى أين ينتهى بهِ المطاف، فإذا لم تعرفْ إلى أينَ ستذهب، فكُـلُّ الطّـرُق سـتؤدّى إلى المجهُول، و"إذا لَمْ تَكُنْ تعلمُ أينَ تذهب: فكُلُّ الطُّـرُقِ تـؤدِّى إلى هُنـاك"، وفى عبـارةٍ أخـرى: "فكُـلُّ الطّرُقِ تفِى بالغرض"(١)، فـ"ليسَ مُهِـمّاً معرفـة مـا تريـدُ، ولكـن معرفـة كيـف تصـلُ إلى مـا تريـدُه"، و"ليستِ المهارةُ أنْ تجرى بسُرعة، ولكنّ المهارةَ أنْ تعرِفَ أنّكَ تجرى فى الطّريق الصّحيح". فالّـذى يسـيرُ فى حياتِه دون هدفٍ مُعيّن، فإنّ جميعَ الطّـرُقِ بالنسـبةِ لـهُ تـؤدِّى إلى وجهـةٍ واحِـدة لا غـير. "وإذا لَـمْ تُخطِّطْ لنفسِكَ، كُنْتَ جزءاً من خطّةِ غيرِك، وإذا فشلتَ فى التّخطيط، تكونُ قد خطّطْتَ للفشـل". قـال إيمرسون: "لا يُخطِّط النّاسُ للفشل، ولكنّهم يفشلُون فى التّخطيط".

وهذا ما يتعلّق بالإنسان الفرد فكيفَ يا ترى يكون الحـالُ مـع الدّولـة الّتـى تـدير شـؤون الملايـين مِـنَ النّاس، وهى تعيشُ دون تخطيط استراتيجى شامِل بعيـد الأمـد. والاسـتراتيجيّة: هِـىَ الخطّـة أو مـنهج العمل الموضُوع لتحقيقِ هدفٍ ما، وهى الممرّ أو الجسـر الّـذى يأخـذنا مـن هُنـا إلى هُنـاك(٢). وهـى طريقةٌ لتحديدِ الأهدافِ بعيدة المدى، وكيفيّة الوصُولِ إليها، ولا غَرْوَ أنّ الاعتقادَ بإمكانيّـةِ الوصُـولِ إلى الهدفِ هو أوّلُ خطوةٍ لبلُوغِه، وأنّ مِنَ الحكمةِ أنْ نكونَ مُتفائلينَ عندما يكونُ هُناكَ مجالٌ للتشاؤُم(٣). والتخطيط؛ هو: أنْ ترسُمَ المستقبلَ قبلَ بنائِه، وهو عمليّة تحديد الأهـداف الّتـى تسـعى إلى تحقيقهـا. والتخطيط الاستراتيجى (Strategic Planning): "هو عبارةٌ عن عمليّةٍ منهجيّة تسعى إلى تحقيقِ تصوُّر

واضِح حولَ مُستقبلِ شيءٍ ما مِنْ أجلِ ترجمتِه وتحويلِه إلى أهدافٍ تعتمِدُ على سلسلةٍ مِنَ الخطواتِ العمليّة".

وما أروع ما قالَهُ (تشارلى كيترنج)، رئيس شركة (جنرال موتورز)، حينَ سُئِلَ: لماذا يُخطِّط للمستقبل؟ فأجابَ: "لأنِّى سأقضِى بقيّةَ حياتِى فيه". أمّا نحنُ فلا زلنا نعيشُ فى أحلامِ الماضى، نسينا حاضرنا الّذى نعيشُ بين جنباتِه، ولم نفكّرْ حتّى الآن بالمستقبل الّذى ينتظرُنا هُناك، تفكيراً مقرُوناً بالعمل. فكُلّنا له أمنياتٌ يريدُ تحقيقَها، ولكنّ الرغبةَ فى تحقيقِ الأمانى لا تُجْدِى نفعاً، ما لَمْ نحوِّلها إلى خطّةٍ مقرُونة بعملٍ واقعىّ. عِلْماً أنّ "التمنّى يستهلِكُ الطّاقةَ نفسها الّتى يستهلِكُها التّخطيط"، و"هدفٌ بلا خطّة لا يزيدُ عن كونِه مُجرّد أمنية مِنَ الأمانى". واعلمْ أنّ "كُلَّ ساعةٍ تقضيها فى التّخطيط الجيِّد، توفِّرُ لكَ ثلاث أو أربع ساعات فى التّنفيذ".

لِذا، لا بُدّ للقائمينَ على إدارةِ النّظُم السياسيّة أن يضعُوا نصبَ أعينِهم الخُطط الاستراتيجيّة الرامية إلى تطوير المجتمع، وتوفير سُبُل العيش الكريم، وتحسين حياةِ النّاس، وتحقيق العدالةِ بينهم. وهذا لن يتحقّق بخطاباتٍ سياسيّة انفعاليّة تطلق فى مناسباتٍ مُعيّنة هُنا أو هُناك، فالتغييرُ الحقيقىّ لا يتحقّق بإطلاقِ هتافاتٍ حماسيّة، وخطاباتٍ ارتجاليّة، وشعاراتٍ أيديولوجيّة، وإنّما يكون بوضعِ الاستراتيجيّاتِ الدقيقة، واعتمادِ تصوّراتٍ عمليّة فى ضوء أهدافٍ واضِحة، وكُلّ ذلك فى إطارٍ زمنىّ مُحدّد، والتركيز على القضايا الأكثر أهميّة والعمل على دراستها واحدةً واحدة. ولتحقيقِ الأهدافِ لا بُدّ أنْ يكون "الإطارُ الاستراتيجىّ مَرِناً؛ شأنهُ فى ذلِكَ شأنُ السياساتِ نفسِها، أى إنه ينبغى أن يُوْضَعَ موضِعَ المراجعةِ المستمرّة، والتعديل فى ضوء التقدُّم، والمعرفة، والاستبصاراتِ الجديدة، والرُؤيةِ الاستشرافيّة - وهى الصورةُ الذهنيّة للمستقبل المنشود -، المقرُونة بالعملِ والتنفيذ، وذلِكَ لأنّ "الرؤية من دونِ عمل ما هى إلاّ حُلُم، والعملُ من دونِ رُؤية ما هو إلاّ مضيعة للوقت، أمّا الرُؤية مع العمل فهى ما يُمكنها أنْ تغيِّرَ العالَم"([٤]).

ولن تتحقّق هذهِ السياسات الاستراتيجيّة، وتلك القرارات الطّموحة، "فى واقعٍ يجىء فيهِ فى كُلِّ مرّةٍ وزيرٌ جديد، أو يتولّى الحُكْمَ حزبٌ جديد. فبغيرِ استمراريّة معقُولة، وبدُونِ قُوّةٍ دافِعة، لا يمكن تحقيق الاستراتيجيّة على أرضِ الواقِع"([٥]). فالاستراتيجيّاتُ تحتاجُ عادةً إلى وقتٍ وزمنٍ ليسا قصيرين، فضلاً عن إمكاناتٍ ماليّة ليستْ قليلة، ولكنّها لن تَصِلَ إلى مَراميها، ولن تحقّقَ أمانيها، فى ظلِّ التغيّراتِ المستمرّة على السياسات والاستراتيجيّات الّتى تطالها يدُ التعديل والتحوير لأغراضٍ مُسيّسة لا غير.

وهذا خللٌ قدِ استمرَّ عِدّة سنوات وما يزال. معنى ذلك: أنّهُ يجب أنْ لا يرتبط نظامُ التعليمِ بالوزير إنما يكونُ جُزءاً من استراتيجيةِ الدولة نفسِها. وقد تعلّمنا فى التخطيط الاستراتيجىّ - بتعبيرِ السويدان - قضية الـ(Focus) وهو التركيز: أى أنْ نركّزَ على قضيّةٍ واحِدة، ونُنتِج فيها إنتاجاً جيِّداً، ثمّ ننطلِقُ إلى مجالاتٍ أُخرى، نعطيها المساحةَ الزمنية، ننفقُ عليها، نعطيها عقولَنا ووقتَنا وجُهدَنا، وبعدَها نرى النتيجةَ الحاسِمة![٦]، ولكن ليس عندنا مثل هذا التركيز الّذى يقتضيهِ الفكرُ الاستراتيجىُّ فى أىِّ إنجازٍ طمُوح، وخاصّة فى المجالِ التعليمىّ الذى يُبنى عليهِ مُستقبلُ الأمّة، ويتحقّقُ بهِ نهوضها الحضارىّ.

وقد أكّد هنرى فورد - مُؤسِّس شركة فورد لصناعة السّيارات - قضيّةَ التّركيزِ وتقسيمَ العمل؛ فقال: "لا يوجَدُ شىءٌ صعب عملياً إذا قُمْتَ بتقسيمِه إلى أعمالٍ صغيرة"([٧]). فالأزماتِ السياسية والاقتصاديّة التى تراكمتْ - وما تزالُ - فى واقعِنا السياسىّ الرَّاهِنْ، تفتقرُ مثلَ هذهِ الرؤية الحضاريّة الشّامِلة، ولذا فنحنُ

لَمْ نجِدْ حتى هذه اللّحظة - مِنْ لدن صُنّاعِ القرار - خطواتٍ عمليّةً تُسْهِمُ فى حلِّ مشكلاتِنا العالِقة حلاً جذريّاً ناجِعاً، وذلِكَ بتحليلِها إلى عناصِرَ مُجزّأة، وتقسيمِها إلى أعمالٍ صغيرة مُحدّدة، ومِنْ ثمَّ التركيز عليها واحدةً واحِدة، بحيث تسهُّل صِعابها، وتذلّل مَشاقها!

إنّ استراتيجيّة التنمية التعليميّة، والتنمية الاقتصاديّة، ليستْ شيئاً جديداً يوجَدُ فى فراغ، أو يُمكن أن يُشَكّل فى غرفةٍ خلفيّة فى الوِزارة بواسطةِ خبيرٍ، واختصاصىّ، وآلةٍ حاسِبة، وإنّما ينبغى أن تُشَكّل وتُوْضَع على أساسِ أهدافٍ يُشارِكُ فى وضعِها عددٌ كبيرٌ مِنَ المتخصِّصين(٨)، وهذا ما لا يتحقّق دون تحديدِ الأولوياتِ الكفيلة بتطوّرِ النظامِ التعليمىّ والنظام الاقتصادى وتجديدهما.

ويُمكن أن نأخذ ماليزيا؛ بوصفِها تجرِبة واقعيّة يُمكن أنْ نستدلّ بها لبيانِ أثرِ التخطيطِ فى المجالِ التعليمىّ. فماليزيا مثلاً - حسبما أكّد السويدان - عقدت فى سنة ١٩٨٥م مؤتمراتٍ وطنيّة خدمةً لقضيّة التعليم، وقرَّرَتْ أن تكون دولةً صناعيّة، لذا غيَّرَتْ على أساسِ قرارِها الحاسِم هذا مناهِجَ التربيةِ والتعليم، وغيّرتِ البعثات الدراسيّة، كما غيّرتْ نظُمَ الهِجرة، ونظُم الاستثمار، وجعلتْ كُلَّ الجوانب الحيويّة تخدمُ هذا الهدفَ الّذى حددتهُ الدّولة. والشىءُ المثير أنّ مناهِجَ التعليم كُلّها تحوّلتْ لخدمةِ هذا الهدف. والنتيجة أن ماليزيا أصبحت فى سنة ١٩٩٥م - أى خلال ١٠ سنوات - عاشِر دولة صناعيّة فى العالَم. وكلُّ ذلِكَ حصلَ بوجُودِ رؤيةٍ استراتيجيّة واضِحة عند القيادة السياسيّة. فالتعليمُ هو وسيلة، وليسَ هدفاً، فهو فى النهاية وسيلةٌ لخدمةِ الرؤية الاستراتيجيّة للدولة(٩).

ومن هنا علينا أن نستفيدَ مِنْ تعليمِنا كأحدِ المجالاتِ الاستثماريّة المهمّة فى اقتصادِنا الحالىّ، لا تدميرِهِ مِنْ أساسِه. وهناكَ افتراضٌ جوهرىّ يقومُ عليهِ الاعتقادُ بأنّ التعليمَ نوعٌ مِنَ "الاستثمار الجيِّد" فى التنميةِ القوميّة، وينصُّ هذا الافتراضُ على أنّ نظامَ التعليمِ يُنْتِجُ أنواعاً ومقادِيرَ مِنَ الموارِد البشريّة، يتطلّبُها النموُّ الاقتصادىُّ، ويفتقرُ إليها، وأنّ الاقتصادَ سوفَ يستخدِمُ هذهِ الموارِد البشريّة فى الحقيقةِ استخداماً حسناً(١٠).

ومن هنا، علينا أن نوجِّهَ التعليمَ لكي يرتبطَ باحتياجاتِ الاقتصاد القومىّ، وأن يدفعَ العمليّة الإنتاجيّة قُدُماً نحو الأمام، وإذا أخذنا هذا الأمرَ بنظرِ الاعتبارِ وجدنا أنّ نُظُمَ التعليمِ عندنا غيرِ مُلائِمة لحاجاتِ الطلبة. "والحقيقةُ أنّ العملَ على مُواءمةِ نظامِ تعليمىّ مُعيّن لحاجاتِ التنمية القوميّة عملٌ صعب ومُعقّد للغاية"، ولكنّهُ ضرورةٌ تاريخيّة لا يُمكن التغاضى عنها. لذا، فإذا أردْنا أن نهضَ بنظُمِنا التعليميّة، علينا أنْ ننظرَ إلى "مدى مُلاءَمةِ التعليمِ الّذى يحصلُ عليهِ الأفراد للحاجاتِ والقِيَم السّائِدة حالياً، والمستقبليّة، لمجتمعٍ مُعيّن"(١١).

والسؤالُ الّذى ينهضُ هُنا: ترى ما مدى مُلاءَمةِ تعليمِنا الحالىّ المأزُوم وحاجاتِ التنميةِ الاقتصاديّة؟ والإجابةُ على ذلِكَ ببساطةٍ؛ هى: أنّنا لا نجدُ ثمّةَ مُلاءَمةٍ بينَ تعليمِنا وبينَ سُوقِ العمل! وهذا ما يثيرُ إشكاليّةً فلسفيّة حولَ الجدوى من ممارسةِ تعليمٍ لا يُلَبِّى حاجاتِ الإنسانِ المعاصرة! فالمعاييرُ التعليميّة - إذا أردْنا أنْ يكونَ لها معنى، وأنْ تخدمَ أهدافاً مفيدة - ينبغى أنْ تكونَ مُلائِمة لأهدافِ الطلبةِ ومكانِهم وزمانِهم(١٢)، وليسَ مجرّد تغييرٍ مِنْ أجلِ التغيير! جرياً على قانون "إنَّ المغلُوبَ مُولَعٌ أبداً بالاقتداءِ بالغَالِب فى شعارِه، وزيِّه، ونحلتِه، وسائرِ أحوالِه وعوائده"(١٣)!

وعلى الدّول الّتى تعانى من عجزٍ فى الميزانيّة العامّة، وتتوسّل إلى صندوقِ النقدِ الدّولى، أن تستفيدَ من التخطيط الاستراتيجىّ فى النظامِ الاقتصادىّ لدولةِ (الإمارات)، الّتى يكفيها فخراً أنّ وزارة الماليّة

الإماراتيّة قد رفعتْ إلى مجلسِ الوزراء مشـرُوع الميزانيّة العامّـة للاتحـاد لسـنة ٢٠١٨م، ضِـمْنَ الخطّـة الخمسيّة للسنوات (٢٠١٧- ٢٠٢١)، بتكلفةٍ قَدْرُها (٥١,٤) مليار درهم، وقـد بلغـتْ تقـديراتُ الـبرامِج المخصّصة للتنمية الاجتماعيّة (٢٦،٣) مليار درهم، بنسبة (٤٣,٥%) مِـنْ إجـمالى الميزانيّـة العامّـة، كـما بلغتْ الاعـتمادات المخصّصـة لـبرامِج التعلـيم العـام والعـالى والجـامعى (١٠,٤) مليـار درهـم، بنسـبة (١٧,١%) مِنْ إجمالى الميزانيّة، وبلغتْ اعتماداتُ الرعاية الصحيّة ووقايـة المجتمـع (٤,٥) مليـار درهـم، بنسـبة (٧,٤) مِـنْ إجـمالى الميزانيّـة العامّـة، لتقـديم أرقـى المسـتويات مـن خـدماتِ الرعايـة الطبيـة والتعليمية للمواطنين[١٤]. وقد علّق الشيخ محمّـد بـن راشـد آل مكتـوم، حـاكم دبى، فى صـفحته عـلى (تويتر): "ميزانيّة العام المقبل (٥١) مليار، خصّصْنا (٤٣%) منها للتعليم والصِـحّة وتنميـة المجتمـع، ولا عجز فى الميزانيّة، ولا عجز عن بلُوغِ أهدافِنا التنموية".

فالتعليمُ العربىّ لا يصنعُ إطاراتٍ للإنتاجِ، ولا باحثين عن تقدّم التقنياتِ العربيّة، ولا جمهُوراً متكيّفاً مع المشكلاتِ الاجتماعيّة، ومُستوعباً لمشكلاتِه، ودورِه، ولكنّه يُخرِّج حملةَ شهاداتٍ، أىْ سـندات مُلكيّـة بدون أرض، وصكُوك ماليّة دون رصيد. ولا يعنى ذلِكَ أنّهُ لا يوجَدُ بـينَ حملـةِ الشـهاداتِ مُتعلِّمـين بَـلْ عُلماء حقيقيّين، ولكن النظام العام يجعلُ العَلاقة بين هذا العلـمِ وبـين حاجـاتٍ اجتماعيّـة ثابتـة شـبه معدومة. والحلُّ الوحيدُ لأصحابِ هذهِ السنداتِ هو: إمّا الرحيلُ، أو تعويضها فى مجالٍ لا يقتضـى مِـنَ العلمِ إلاّ الشهادة والاسم[١٥].

وفى العراق تحديداً، فإنّ الوضع السياسىّ المتأزّم قد دفع بالتدريسيين إلى قطعِ الأمل فى تحسينِ الظرُوفِ السياسيّة والمعيشيّة، والتفكير جدياً فى المغادرةِ والهجرة إلى دول العالم المتقـدّم، أمـلاً فى الحصُـولِ عـلى عملٍ فى ظروفٍ أكثر استقراراً وأمناً"[١٦]. وقد بدأت الهجـرة المعاكسـة مـن جديـد، بعـد تفـاقُم الأزمـة الاقتصاديّة التى اجتاحتِ المنطقة أخيراً، مُتمثلةً فى التدهور الاقتصادىّ الرّهيب، وغلاء أسعار الحاجيات الأساسيّة، وتفشى ظاهرة البطالة بينَ النّاس. أما فى المجالِ السياسىّ، فقد تمثّلت فى فتور العَلاقاتِ الأخوية بين القوى والأحزاب السياسيّة، وتزايد التدخلات الخارجيّة فى الشؤونِ الداخليّة. كلّ ذلك قد ولّد شعُوراً جارفاً بالإحباط لدى الكثيرين، وقلّل من حماسِهم للعملِ الجادّ المثمِر، وحفّز رغبتهم لتركِ وطـنهم نحـو المجهول"[١٧].

وهذهِ إشكاليّةٌ لا تزالُ قائمة، ولكنّ الحكومات - التى لا تضعُ الأُطـرَ الاسـتراتيجيّةَ بنظـرِ الاعتبـار - قـد تنظرُ إلى قضيّةِ (هجرةِ العقُول) نظرةً براغماتيّة نفعيّة عرضيّة، فلا تراها استنزافاً للعقُول، بَـلْ تصـريفاً للمشكلات! وقد يكون من أجنـداتِها الاسـتراتيجيّة الـدخول فى حـروبٍ اسـتنزافيّة لا طائِـل مِـنْ ورائِهـا، والاستفادة منها فى حلِّ مشكلة البطالة، مَثَلُها فى ذلِكَ مَثَلُ زعيم ألمانيـا الاشـتراكيّة (هتلـر)، الّـذى جـاء ليحلَّ (مشكلة زيادة البِطالة)، بتحويلِ العاطلينَ إلى عُمّال فى مصانِع السِّلاح، ثـمّ إلى جنُـود، ثـمّ هـؤلاءِ الجنُود إلى جُثث. وبذلِكَ تـمّ حلّ المشكلة[١٨].

**التخطيط الارتجالي الفوضوى فى الدول النامية**

أمّا الحكوماتُ فى الـدُّولِ الناميـة؛ فهِـىَ تريـدُ أن تكـون صـناعيّة وزراعيّـة واسـتثماريّة وسـياحيّة وغيرها، أو كما سمّاها السويدان بـ(الخلطة). وهُناك مثلٌ أمريكيّ ينطبقُ كثيراً على الحكوماتِ العربيّـة؛

وهو: "Jack of all trades, master of none"، فالّـذى يريـدُ أن يعمـلَ كُـلَّ شىء، لـن يُـتقن أىَّ شىء، وهذا الذى حدث معنا. فنحنُ لا نعرفُ بالضبط - نتيجةَ هذا الخلط - ماهيّة الهُوية التى نريدُ تمثيلَها؟ وما هى الرؤية التى نريد تحقيقها، وبالتالى ما هو نوع التعليم الّذى نريدُ الوصُولَ إليه؟

ومن هُنا، فإنّ التعليمَ فى كوكبنا المأزوم هو آخرُ ما تفكّرُ فيهِ الحكُومات، كأنّه قضيّةٌ لا تمسُّها من قريبٍ ولا مِنْ بعيد، وإذا فكّرتْ فيهِ فلأغراضٍ سياسيّة بحتة، وأحيانـاً أُخـرى تجاريّـة! وخاصّـة فى قلـبِ الأزمةِ الماليّة القاتِلة، التى ألجأتها إلى فَـرْضِ الضـرائب المجحفـة بحـقِّ مُواطنيهـا، ممّـنْ يعيشـون حـدَّ الكفاف؛ وبذلِكَ "أصبحْنا نُعالِجُ الدولةَ على نفقةِ المواطِن"، كما عبّر (جلال عمر) بحقّ، بدلاً مِنْ أنْ نضعَ خطّةً استراتيجيّة بعيدة المدى، والأنكى من ذلِكَ أنّنا حمّلْنا الفقراء المتقشّفين مـا لا طاقـةَ لهـمْ بـه مـن جباباتٍ مُثقلة، وأتاوات مُرهقة تقصم الظّهر، حتّى قالَ بعضُهم ساخِراً "عند وجُـودِ فـائِض فى الميزانيّـة، يذهبُ مباشرةً إلى جيُوبِ الأغنياء. وعند وجُودِ عجزٍ بالميزانيّة، يتمُّ سدادهُ مِنْ جيُـوبِ الفقـراء"! وكُلّـما تعرَّض الوطنُ لعُـدوانٍ سـافِر: الفقـيرُ يُقـاوِم، والغنـىُّ يُسـافِر. فـالفقراءُ يُـزَجُّ بهـم فى محرقـةِ الحـرُوبِ الطّاحِنة، وأبناءُ الأغنياءِ يترفّلُون فى حُلل النعيم، ويتبارون فى ملاعبِ السَّرفِ والتَّرف، ويحاربُون كالأبطالِ ولكن عـلى فضـاءِ الـ"play station"، ويتراهَنُـون بقُـوتِ الشّـعبِ قبيـل المباريـاتِ الحاسِـمة، دون أنْ يشعرُوا بأنّاتِ البطُونِ الفارِغة الّتى تتضوّرُ جوعاً وتتلوّى مرضاً! وقد حقّ (بوكوفسكي) حينَ قال: معظمُ النَّاسِ لا يشعرُون بالظّلْمِ إلاّ عندما يقعُ عليهم شخصيّاً! فأنت لا تشعُرَ بمأساةِ غيرِكَ، حتّى تـرى نفسَـكَ مكانَهُ! ولهذا فعندما سُئِلَ (كونفوشيوس) عنِ الفضيلةِ الكامِلة، كان جوابُه: "الفضيلةُ الكامِلة ألاّ تفعـلَ بغيرِكَ ما لا تُحِبُّ أنْ يُفْعَل بك". وأجمل من كُلِّ ذلِك ما قالَهُ الرّسُول (عليه الصّلاة والسّـلام): (لا يـؤمِنُ أحدُكُمْ حتّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفسه)([١٩]).

وهذا نقيضُ ما نراهُ اليوم فى واقِعنا المعاصِر، إذِ القـائِمُون عـلى رأسِ الحكُومـاتِ العربيّـة الرّاهنـة يفعلُون بشعُوبهم ما لا يرضون لأنفسهم، فهم لا يشعرُون بوطأةِ الظلـمِ الواقِـع عـلى مُـواطنيهم جـرّاء سياساتِهم التقشفيّة التى ترمى إلى توزيعِ الجوع والفقر والمرض بينهم؛ وكيف يشـعرُون بـالجُوع وهُـمْ مُتخمون إلى حدِّ الثمالة؟ ولا بالمرضِ؛ لأنهم أصحاء إلى درجةٍ يُحْسَـدون عليهـا، وإذا مـا أُصـيبوا بصُـداعٍ طفيف؛ فإنّهُم سيُعالَجُون فى أرقى مَشافِى العالَم! وقـد أصـابَ الكاتـب (أحمـد فـؤاد نجـم) حـين قـال: المسؤُول العربىّ يدرسُ خارِجَ البلد، وإذا مَرِضَ يُعَالَج خارِجَ البلد، ويذهبُ للسّياحةِ خارِجَ البلد. الشـّىء الوحيد الّذى يفعلُه داخِل البلد؛ هُوَ سرقةُ البلد! وهذا ما أوقع البلاد فى دوّامـة مـن الظلـمِ والظلـمات، فأصبحت فيها العدالةُ من المحرّمات، وقد حقَّ مَنْ قال: لَمْ نَعُدْ نريدُ العدلَ فى أوطانِنا؛ لأنّهُ مُستحيل.. نُطالِبُ بتوزيعِ الظّلم بطريقةٍ عادِلة فقط!

ولا زلنا نتذكّرُ تلكَ الملايين الطائلة والنفقاتِ الهائِلة التى صُرِفـت مـن أجـلِ إيفـادِ طلابنـا الأوائِـل إلى خارج تخومِنا؛ فأضحتْ كارثةً على تعليمِنا، فضلاً عمّا جرّه من إنفاقٍ مالىّ مُرهق على كاهِلِ الحكومِـة، والفتك باقتصادِها الهزيل، ولو صُرِفَتْ هذهِ الملايين على الجامعة - الافتراضيّة على الورق - لأنجز الكثير منها أو يكاد، فلمّا رجعُوا من رحلتهم العلميّة الشاقّة العسـيرة وجـدُوا أمـامَهم طـرُقَ البطالـة شاسِـعةً واسِعةً مفتوحةً على مصاريعها، وفى أحضانِ البِطالة - كما يقول الغزالىّ - تُولَد آلافُ الرّذائِل! وقد صدق الفيلسوف الصينىّ الكبير (كونفوشيوس) حينما قال: "أطْعِمُوا النّاسَ، ثمَّ اطْلبُوا منهمُ الفضيلة"! وقـال أبو سُليمان الدارانى (فقيه زمانِه): "ابدأ برغيفِكَ فاحرزه، ثمَّ تعبَّد!". وفى الأحاديـث: لأنّ تغـدوَ فتـتعلّمَ

باباً مِنَ العِلْمِ، خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تُصَلِّيَ مائةَ رَكْعةً (تطوُّعاً). وتفكّر ساعةٍ خيرٌ مِنْ قيامِ ليلة. ومِنْ أقوالِ الإمامِ الشافعيّ (رحمه الله): "طَلَبُ العِلْمِ أفضلُ مِنْ صلاةِ النّافِلة". وقد أفتى الفُقهاء بأنّ الزكاةَ تُعْطَى لطالبِ العِلْمِ، وتُحجب عنِ العابِد؛ لأنّ الأوّلَ ينفعُ نفسَهُ وغيرَهُ، والثّانِي ينفعُ نفسَه فقط([٢٠]).

إنّ ما يُنْفَق على التعليمِ العربيّ الإسلاميّ، يكاد يُعادل النفقات العالَمية التى يتمُّ إنفاقها. ومن هنا فإنّ الإنفاق على التعليم وَفْقاً لاستراتيجيّةٍ مُعيّنة، كفيلٌ أن يكون الإنفاقُ أكثرَ إنتاجيّة عمّا هو عليهِ الآن فى الوقتِ الحاضِر. والاستراتيجيّات المنشودة لن تتحقّق مِنْ خلالِ ترديدِ الاسطواناتِ المشرُوخة دوماً، أو رَفْعِ الشِّعارات المستهلكة يوميّاً، والتى تكاد تكون قريبةً مِنَ الأمنيات، على الرّغم مِنْ أنّ التمنّى - كما قالَ (الينور روزفلت) - يَسْتَهلِك الطّاقةَ نفسَها التى يستهلِكُها التّخطيط! وهذا ما هُوَ حاصِلٌ عندنا؛ فإنّ اللاحِق يَجُبُّ ما قبلَهُ مِنْ تعليمات، وينسُخُ ما دونه مِنْ خططٍ واستراتيجيّات، وإنْ كانتْ جديرةً بالاستمرارِ عليها ومُواصلتها، بَلْ ووضعها فى حيِّزِ التنفيذ. وإذا ما عدلَ عن ذلِكَ تعبيراً عن حُسنِ نيّته؛ فإنهُ - فى أحسنِ الأحوالِ - سيدعو إلى تأجيلِ تلك القرارات الملزمة؛ ولكأنّ السياسةَ عندنا - كما يقولُ هنرى كيولى - هِيَ فنُّ تأجيلِ القرارات حتّى لا تُعَدّ ذات جدوى! ونحنُ دائماً ندّعِى أنّنا وصلْنا إلى خط نتقاطعُ فيهِ معَ الدُّوَل المتقدِّمة، ولكنّنا إلى الآن لم نستطع أنْ نوفِّرَ الحدَّ الأدنى مِنَ الحاجياتِ الإنسانيّة. إنّنا دائماً نحومُ حولَ المظاهِرِ الخارجيّة الجوفاء، ولا نلجُ إلى عُمْقِ المشكلاتِ الّتى نعانيها، والأصلُ أنْ نبحثَ فى عُمْقِ أعماقِ الإنسان، فالإنسانُ هو مفتاحُ المعالجةِ الحضاريّة.

**استراتيجيّة الإعلام المسيّس لاستعمار العقول**

على الرّغمِ مِنْ كُلِّ ذلِكَ، ما زالَ الشعبُ المسكينُ يُرواح فى دوّامات مفرغة لا أوّل لها ولا آخر، وما زالَ يتشبّثُ بصمتهِ المرير، ويتبرقعُ بأسمالِ هُدوئهِ الممزّق؛ لأنّه لا يريدُ أن يُراهنَ على مستقبلِ أبنائهِ وأحفادِه، ويعزّ عليهِ أن يرى حاضرهُ نابضاً بالحروبِ الطّائشة التى لا تجرّ إلاّ الويل والوبال، ولا يكون ضحيتها إلاّ الفقراءُ، فـ"عندما يشنُّ الأغنياءُ الحرْبَ يموتُ الفُقراء!"([٢١])، فهى الطبقةُ الوحيدةُ التى تدفعُ الثمن غالياً لحروبهم الّتى أشعلوها، والّتى لم يأخذوا رأيهم فى خوضها، وكان من نتائِجها "جيشٌ مِنَ المعوّقين، وجيشٌ مِنَ الأرامِل، وجيشٌ مِنَ اللّصُوص!"، ولهذا قيل: عندما يُبْتَلى الوطنُ بالحرب؛ يُسْتَدْعى الفقراءُ للدِّفاعِ عنِ الوطن، وعندما تنتهى الحرب يُسْتَدْعى الأغنياءُ؛ لتقاسُمِ الغنائِم ونهبِ الثرواتِ المتبقية! ففاتورةُ الحرُوبِ يتمّ سدادها دائِماً مِنْ جيُوبِ الفقراء؛ مِمّنْ لا حولَ لهم ولا قوّة! وعندما تضعُ الحربُ أوزارَها، وتنتهى المعارِكُ بانتصارِهم على أعدائِهم، يُتَوّجُ الأغنياءُ، وتُعَلّق الأوسمةُ والنياشين على صدُورِ المترفين، مِمّنْ كانوا يُراقبون عن كثب - وهُمْ على آرائك فاخِرة - ماجريات الحربِ الطّائشة عبر القنواتِ الفضائيّة. ويُذكِّرُنى هذا بقولِ سيّدةٍ لقائدٍ عسكرىّ فى الحربِ العالميّة الثانية، وهى تلوِّح بصُورةِ ابنها: "هذا ابنى يا سيّدى، الحربُ انتهتْ وهو لم يعدْ!! مسكينةٌ هذهِ الأم، لا تعلمُ أنّ الحرُوبَ لا يعودُ منها إلاّ قادتها"، وأنا أضيف: وإذا عادُوا تُوِّجَ النصرُ باسمِهم، وليسَ باسمِ الّذين فُقِدُوا!

أمّا الفقراءُ الشجعان، من المحاربينَ القُدامى، فيُحالون إلى التقاعُد! ولكنّهم يُجبرون على العودةِ إلى ثكناتهم متى دقّت ساعةُ الحرب؛ فهم وَقُود لماكنةِ الحرُوبِ الّتى لا تكفّ عنِ العمل؛ لأنّ تجارةَ ساسةِ العالمِ الرأسماليّ رهنٌ بهذهِ الحرُوب الجنونيّة، الّتى لا تجدُ لها منطقاً عقلانيّاً، ولا تبريراً منطقيّاً. ولهذا

كتبَ (برتراند رسل)، في عيدِ ميلادهِ التسعين: "أنّ الإنسانَ حيوانٌ عاقِل. وخلال هـذهِ السّـنواتِ الكثـيرة المنصرِمة، لَمْ أصادِف أيَّ دليلٍ على صِحّةِ هذا القَوْل، ولَوْ مرَّةً واحِدة"(٢٢). وقال (رسل) أيضاً: "منذُ بـدءِ الخليقةِ، لم يمتنعِ الإنسانُ عنْ ارتكابِ أيِّ حَمَاقةٍ كان قـادِراً عـلى ارتكابِهـا"(٢٣). فالمعيـارُ الوحيـد لتجّـارِ الحرُوب هو (الرِّبحُ المالِيّ)، وهم يعتقدون أنّ الطريقَ الأضمن إلى مكاسِبَ أكبر؛ هُـوَ النـزولُ بالمسـتوى الفكريّ للنّاس(٢٤)، واستنزاف ثرواتهم الماليّة، وفي ذلِكَ قالَ الفيلسوف الاقتصاديّ الألمانيّ (وولـف جـانج ساجس): إنّ أسوأَ ما يُمكن حصُـولُه هـو أنْ تـنجحَ مسـاعِي العولمـة؛ لأنّ المسـتفيدَ منهـا أقليّـة صـغيرة مُحاطة بمجمُوعةٍ مُتململّقة، لها علاقاتٌ اقتصاديّة مع هذهِ الأقليّـة، أمّـا بقيّـة البشـر فلـيسَ لهـم إلاّ أنْ يتشاحنُوا ويتقاتلُوا. فليستِ العولمةُ نادياً تأهيليّاً للجميع؛ يُمكـن أنْ يدخُلَـهُ الغنـيّ للبحـثِ عـن فُـرَصِ الاستقواء، ويدخُلَهُ الفقيرُ للبحثِ عن فُرْصةِ غِنَى، بَلْ نادياً يدخُلُه الأغنيـاءُ والأقويـاء فقـط، ولا يدخلُـه سِوَاهُم(٢٥). ولذلك كَتَبَ الزّعيمُ النقابيّ البرازيليّ (لـولا - Lula) قـائِلاً: "الحـربُ العالميّـةُ الثّالِثـة بـدأتْ بالفِعْل. إنّها حربٌ صامِتة، ولكنّها ليستْ أقلَّ رُعْباً.. فبدلاً مِنَ الجنُود، الأطفالُ هُمُ الّذين يموتون، وبدلاً مِـنْ ملايـينِ المصـابين، هُنـاكَ ملايـين العـاطلين، وبـدلاً مِـنْ تـدميرِ الجسُـور، تُغلـق المصـانِع والمـدارِس والمستشفيات.. إنّها حربٌ أعلنتها الولاياتُ المتحدة ضِدّ القارّة الأمريكيّة، وكُلّ العالَم الثّالِث"(٢٦).

**الإعلام المسيّس والتخطيط لاستراتيجيّة تشكيل العقول**

ومِمّا زاد الطين بلّة تلكَ الحروبُ النفسيّةُ الّتي تشنُّها قنواتُ إعلامٍ مُسيّسة، على عقُولِ العُزّلِ مِـنَ المواطنين، الذين يعيشُون حالةً مِـنَ الرُّعـبِ والخـوفِ مِـنْ مُسـتقبلٍ مجهُـول، لا يعـرفُ مصـيرَهُ حتّـى القابضين على ناصيةِ السياسةِ، مُحنّكينَ وخُبَراء، فكيفَ بغيرِهم مِمّـنْ لا ناقـةَ لهـم فيهـا ولا جَمَـل، كـما يقولُ المثل.. قنواتٌ لا تنى ليلَ نهار في صبِّ الزيتِ على النّار، بدلاً مِنْ تعزيزِ لُغةِ الحِوار، وتأكيدِ حُسْنِ الجِوار، فبُحّت أصواتُ السّلامِ الخافتة تحتَ أزيز الرّصاص المـدوِّي. وهـذهِ الحالـةُ التـي نعيشُـها اليـوم تذكّرني بمقولةِ (شيشرون)، خطيبُ روما الشهير، الذي وقفَ ساخِراً من برلمانِ ذلِكَ الزّمـان؛ حـينَ سـكتَ أغلبُ نوّابِه: "عندَ الحرُوبِ كُلُّ القوانينِ تلـوذ بالصَّـمْتِ". وإلى هـذا المعنـى بالضـبطِ ذهـبَ الموسـيقار (مارسيل خليفة)؛ حينَ قال: "حتّى في الموسيقى صوتُ الطّبْلِ أعلى مِنْ صَوْتِ القانون"! في هـذا الفضـاءِ المفعم بدُخانِ الحرُوب الصّاعِد، الّتي تزكمُ الأنوفَ، يحبُو التعليمُ مُنهَةً ويسرة، يسقطُ تارةً، ويمضي- تـارةً أُخرى، وغايتهُ أن يَصِلَ إلى ضِفاف الأمان، لا أنْ يُقاد بهِ أسيراً نحوَ أقبية الظّلام! أمّـا المعلّـم الـذي يقـودُ عمليّةَ التعليمِ، فقد أصبحَ هُوَ الآخرُ موضُوعاً لسُخريةِ المجتمع؛ نظراً لشظفِ عيشهِ، وبُؤْسِ حالـهِ. وإذا كان قائدُ التعليمُ يعيشُ هذهِ الحالةَ المزرية، تُرى كيف سيكونُ حالُ الأجيال مِنَ الطلبةِ، الّذينَ يشكّلُون الآلافَ المؤلّفة مِنْ عاطِلي المستقبل القريب! فما أحرى – إذاً - بالقائمينَ على إدارةِ المنظُومةِ التعليميّـة، أنْ يعيدُوا الحياةَ والأملَ إلى قلبِ هذا الهيكل المتهالِك الّذي لا يجدُ ما يَسُدُّ رَمَقَهُ، وقد آن لنـا أنْ نعلـمَ أنّ نهضتَنا في نهضةِ مُعلّمنا، وتقهقرَنا في إذلالِه.. وكيف لا، وهـو مُحـرِّك الـوَعي الكـامِن، ومُثـوِّر العَقْـلِ الرَّاكِد، وشُعلة الظّلامِ الدّامِس، فإذا دمّرنا المعلّم أتينا على منظُومةِ الوعي مِنْ قواعدها، وأصبحَ المجتمع تحتَ رحمةِ قنواتٍ مُسيّسة لها ترويج إعلاميّ قويّ، ولكن بمُحتوى ثقـافي تافِـه، إنْ لَـمْ نَقُـلْ (رخـيص)، بهدفِ تدجينِ المجتمع، وأدلجته ونمذجته، وتنميطِ سلوكِه؛ وفقاً لمقاساتِ السُلطة السياسيّة التي تسعى لتغييبِ الوعي. وإذا غابَ الوعيُ، أصبحَ الإنسانُ مُجرَّد دُميةٍ يُتَلاعب بها هُنا أو هُنـاك، وإذا مـا مشـى

فإنه يمشى خبطَ عشواء، كأنّهُ فقد البوصلةَ الّتى توجِّه شراعَهُ إلى حيثُ ضِفاف الأمان. وليسَ سِرّاً أن نؤكّد هُنا أنّ الوعى العربىّ السّائِد هو (وعىُ التخلّف)، أى الوعى الّذى يعرفُ بدقّة ما لا يريدُ، ويستطيعُ أنْ يتخلّصَ منه، لكنّهُ لا يعرفُ ما يريدُ، وإذا عرفَهُ لا يستطيعُ أنْ يُحقّقَهُ[٢٧]. وهو على عكسِ (وعى التقدُّم) الّذى يتحكّمُ فى الحاضِر، ويستخدِمُ إمكاناتِهِ لصُنعِ المستقبل، وبالتالى فهو قادِرٌ على حَسْمِ اختياراتِهِ بوضُوح يمكنه من أنْ يعرفَ ما يريدُ، ويمضى نحوهُ قدُماً، وأنْ يعرفَ ما لا يريدُ فيحيدهُ أو يُلغيه[٢٨].

ومن الجديرِ أن نعرفَ، فى هذا السياقِ، أنّ "المستقبلَ هو ملكٌ لِمَنْ يستعدُّ لهُ اليوم"! كما قالَ (مالكولم اكس). وقمينٌ ذكرهُ كذلك، أنّ "الوعى أشملُ مِنَ العقل، لأنّ العقلَ أشبهُ بآلةٍ تعملُ حسبَ أنساقٍ، تقدِّمُ تفسيراتٍ عن مُعطياتِ الحواس. هذهِ التفسيراتُ تُصَحَّحُ بتراكُمِ المعلُوماتِ خلالَ وقتٍ مِنَ الزمن. أمّا الوعىُ فيُشَكِّلُ صُورةً شامِلةً عنِ الحياةِ والكون، تتألّفُ مِنْ تفسيراتِ العقل، ومُعطياتِ الوجدانِ والرّوح، أىْ إنّ مضمُون الوعى يحتوى ما يعرفُ الإنسان وما لا يعرف"[٢٩].

وصناعةُ الوعى المعلّب هى ما تقومُ بهِ الحكومات الفرديّة، وبالتالى فهى لا تنى فى مُحاربةِ أدوات إنتاج الوعى، الّتى تتمثلُ فى المعلِّم الحقيقىّ، الذى يزرعُ فى تلافيفِ طلبتهِ الوعى المدرك لِمَا يدورُ حولَهُم. ولا زلتُ أتذكّرُ - فى مرحلةِ (البكالوريوس) - تلك المحاضرة القيِّمة، التى ألقاها أحدُ أساتذتنا الملهمين، حول أثر الوعى المدرك[٣٠]، وفرّق بين وعى المرء الجاهِل الذى يعرفُ أنّهُ لا يعرفُ، وبينَ المرء الّذى لا يعرفُ أنهُ لا يعرف، وقال: إنّ مهمّةَ تعليمِ الأوّل أيسرُ بكثيرٍ من تعليم الثانى. فـ"أعظمُ مصائِبِ الجهلِ - كما قال مالكولم اكس - أنْ يَجْهلَ الجاهِلُ جَهْلَه! وهذا ما يُعرف بـ(الجهلِ المركّب)، أو المعرفة الجاهِلة، التى تجهلُ أنّها جاهِلة[٣١]. فواقِعُنا المعرفىّ يُعانى مِنْ أدعياء المعرفة، أو من جهلِ العارفين، مِمّن يدّعون المعرفة، ولا يمتُّون لها بصلةٍ قريبة أو بعيدة.

والمجتمعُ الّذى يفتقدُ الوعى الحقيقىّ، لا يعرفُ أحياناً أنّهُ لا يعرفُ، ويلتقطُ معلوماتهِ كُلَّها مِنَ الشاشةِ الصغيرة، فهى قناتهُ المعرفيّة الفُضْلى، تلكَ القناة التى تشكِّلُ وعى مُشاهديها بثقافةٍ مُسيّسة عَرَضيّةٍ مُؤدلجة، حتّى أنّك حينَ تجالِسُ النّاسَ، وتخالِطهم، وتتجاذبُ معهم أطراف الحديث، تجدهم ينقلون إليك أخباراً تكاد تكون مُتشابهة، تلك الأخبار المؤدلجة الّتى تعملُ على تحجيمِ أثر المعلِّمين، وتقويض دورهم فى البناء الاجتماعىّ، فضلاً عن تضييقِ الخِناق الاقتصادىّ على أعناقهم. وفى هذا المعنى قال المفكّر الشهير (على شريعتى): المعلِّمون فى بلادى بُؤساء، أتعرِفُ لماذا؟ لأنّ حُكّامَنا طُغاة، والطّغاةُ عبرَ التّاريخ ضِدّ تعليمِ الشّعب، مهما ادّعوا.

فالتعليمُ يعنى الوعى، والوعىُ يدفعُ الشّعبَ للمطالبةِ بالحقُوقِ، ومُحاسبةِ الحُكّام! فَمَنْ يَصِلُ إلى السّلْطةِ مُعتمِداً على جهلِ الشّعب، لَنْ يهتمّ مُطلقاً بالتّعليمِ والمعرفة لشعبه؛ لأنّ تنويرَهُم وتعليمَهُم هو نهايته! فـ"كلُّ ما يتطلّبهُ الطغيان؛ هو بقاءُ ذوِى الضّمير الحى صامِتين". ولهذا فالمعلِّمُون محكُومون - فى عمليّة التعليم - بتعليم الطلبةِ وَفْقاً لبنيةٍ اجتماعيّة تُلْجِم التفكيرَ، فالمدرسةُ فى مُعظمِ عوالِمنا، ليستْ ميدانَ التدريبِ؛ ليُصبِح الطّالِبُ فيهِ فرداً أوعى وأفضل، بَلْ هو مكان الإعدادِ؛ للانطلاقِ نحو عالَم الرّاشدينَ بأعرافهِ واشتراطاتهِ البيروقراطيّة، ومواثيقهِ المضمرة، ونظام طبقاتهِ الاجتماعيّة، بدلاً مِنْ مساءلةِ القواعِد والقوانين، والبحثِ عن تفسيراتٍ يقينيّة للتساؤلاتِ القائِمة، ومُواجهة الآراءِ

المفرُوضة، من دونِ الرضُوخِ للأحكامِ المسبقة، والعثور على مكانٍ يُجاهِرُون فيهِ بأفكارِهم(٣٢). وفي هـذا قال برتراند رسل: "لا يُولَدُ البشرُ أغبياء، بَلْ جهلة، ثمّ يجعلُهم التّعليمُ أغبياء".

ومن هنا، فإنّ "الثقافة تُصبح مجرّد سلاحٍ سياسيّ لضـربِ الجماعـةِ نفسِـها. إنّهـا ليسـتْ أفكـاراً "ثقافيّة" في الكُتُب، بَلْ قوانين، ومحاكِم، ومدارِس، وأعياد، وأناشيد، وخُطَب، وجرائِد، وإذاعات، وأمـوال طائِلة تُنْفَق علناً، وكُلّ عام". فالثقافةُ مـن هـذا المنطلـق تكـون سِـلاحاً مهمّتـهُ تجهيـل النّـاس، ولـيسَ تثقيفهم، تستخدمهُ الدّولةُ والكنيسة علناً(٣٣).

ومن هُنا، فإنّ "الفَقْرَ لا يصنعُ الثّورة، إنّما وعيُ الفقيرِ هُوَ الّذي يصنعُ الثورة.. الطّاغيـةُ مهمّتـهُ أنْ يجعلَكَ فقيراً، وكاهِنُ الطّاغيةِ مهمّتهُ أنْ يجعلَ وعيكَ غائِباً!"(٣٤). وأشار (فيكتور هوجو) إلى هذا المعنى بالضبط؛ بقولِه: "حينَ تُعيقُ مجرى الدّم في الشريان تكون السّكتة، وحـينَ تُعيـقُ مجـرى المـاءِ في النّهْـرِ يكونُ الفيضان، وحينَ تُعيقُ مُستقبلَ شعبٍ تكونُ الثورة"! وقال أيضاً: "لا توجدُ قُوّةٌ عـلى الأرضِ قـادِرةً على أنْ توقِفَ فكرةً حانَ وقتُها"!

**التخطيط لاستراتيجيّة صناعة الموافقة أو الخنوع الضمنيّ**

تسعى الدّول المتخلِّفة الّتي خرجت من التاريخ، ولا تحملُ آفاقاً مستقبليّة، ولا بنية اقتصاديّة، إلى تجنيدِ طاقاتِها في سبيلِ تغييب وعي المواطِن من خلالِ أدلجة الإعلام والسـيطرة عليـه، وعنـدما يغيـبُ العقلُ والفكر يُصْبح الإنسانُ مجرّدَ وسـيلةٍ ناجعـةٍ لتحقيـقِ رغبـاتِ الآخـرين وأهـدافِهم! وقـد صـدقَ (مالكولم اكس) حينَ قال: إنّ وسائِلَ الإعلامِ هي الكيانُ الأقـوى عـلى وجـهِ الأرض، فلـديها القُـدرة عـلى جعلِ المذنبِ بريئاً، وجعلِ الأبرياءَ مُذنبين. هذهِ هِيَ السُـلطةُ؛ لأنّهـا تـتحكّمُ في عقُـولِ الجماهـير! قـال (غوستاف لوبون): "مَنْ يعرفُ إيهامَ الجماهير يُصْبِح سيِّداً لَهُمْ، ومَنْ يُحاوِل إزالةَ الأوهـامِ مِـنْ أعيـنِهم يُصْبِح ضحيّةً لَهُمْ". فمن خلال التحكّمِ بالرأي "يجرى حكـمُ الكَـثْرةِ مـن قِبَـل القِلّـة، كـما قـال (ديفيـد هيوم)(٣٥)، وهو ما يمثّل (الخنُوع الضمنيّ)، الذي يُسلّم به المواطنون "مصيرَهُم لحكّامِهم"، على الـرّغم من أنّ "القوّةَ تكونُ دائِماً إلى جانبِ المحكُوم". لو أدركَ النّاسُ ذلِكَ لانتفضُوا وأطاحُوا بأسيادِهم. وخلصَ (هيوم) إلى أنّ الحكومةَ قائمةٌ على "التحكّمِ بالرأي"، وهو مبدأٌ ينسحبُ على أشدِّ الحكُوماتِ اسـتبداداً، وغالبيّة الحكوماتِ العسكريّة، وكذلِكَ على أكثرِها حريّةً وشعبيّة(٣٦). فكلّما كانتِ الحكومةُ أكثرَ "حريّةٍ وشعبيّة" كان مِـنَ الضروريِّ الاعـتمادُ عـلى رقابـةِ الـرأي والسـيطرة عليـهِ؛ لضـمانِ الخضُـوع للحُكّـام. فالمحكُوم في النظم الديمقراطيّة يتمتّعُ بحقِّ الموافقة لـيسَ أكـثر. أي يحـقُّ للسُـكّان أنْ يكونـوا مُـراقبين للأحداث، ولكن ليسُوا مُشاركين، وهو ما يُعْرَف بمبدأ (الموافقة بلا مُوافقة)، ذلِكَ التعبيرُ الذي استخدمَهُ السوسيولوجيّ فرانكلين هنري(٣٧). فالشعبُ يجبُ أن يخضعَ لحُكّامِه، ويكفي أن يُوافِقَ بلا مُوافقـة، في ظلِّ دولةٍ تعسفيّة، أو في مناطِقَ أجنبيّة يُمكن فيهـا "اسـتخدام القـوّة". وعنـدما تكـونُ مصـادِر العُنـف محدودة يجـبُ الحصُـول عـلى مُوافقـةِ المحكُـوم بأسـاليبَ تُسَـمّى (صـناعةُ الموافقـة)(٣٨). قـال نعـوم تشومسكي: أحدُ استراتيجيّات التحكُّم بالشّـعُوب؛ هـي اخـتلاق المشـاكِل ثـمّ إيجـادُ الحلُـول.. فيطالِـب الشعبُ بقوانينَ أمنيّة على حسابِ حُريّته! علـماً أن "أي حكومـةٍ تسـتخدِمُ التعـذيبَ والقتـلَ في فـرضِ القانون تُبْطِلُ حقَّها في الحُكْـم، وتُبْطِـلُ القـانونَ الّـذي تفرضـهُ في آنٍ معـاً؛ لأنّ إحـدى الرّكـائِز القليلـة الأساسيّة لأيّ مُجتمعٍ - ينعمُ فيهِ المواطِنُون بحقُوقٍ مُتسـاوية - هِـيَ قداسـةُ حيـاةِ الإنسـان"(٣٩). فـأي

حكومةٍ لا تعترفُ بهذهِ الحقيقة، ولا تقومُ بمحاسبةِ أولئك الّذينَ يقومُون بالتعذيب والقتل، لا يُمكنها أنْ تدّعِى العدالة. فلا تعود الحكومةُ حكومةً إذا تجاوزتِ القانون، بَلْ نظاماً اغتصبَ السُّلطة، وينبغى أنْ تُحاكَمَ على هذا الأساس(٤٠).

فالعدالةُ هى ميثاقُنا الإنسانىّ المعرُوف، وهى ما نستطيعُ جميعُنا أنْ نقيسَ أنفسَنا على مِسْطرتِها. وكما يقولُ القانونُ الإنكليزىّ القديم، لا ينبغى الاكتفاءُ بتطبيقِ العدالة، بَلْ يجب التحقّق بأمِّ العين مِنْ تطبيقِها(٤١). ولكن على الرّغم من كُلِّ ذلك، فإنّ الحكومات التعسفيّة لا زالت تتمعّنُ فى مُصادرة حريّة الإنسان، وإهدارِ كرامته، والسيطرة على عقلِه. وقد قيل إنّ صناعةَ العَلاقاتِ العامّة فى مطلعِ هذا القرن، كرّست "للسيطرةِ على عقلِ العامّة". هذا، وقد أعلن (ألكسندر هاملتون) أنّ الشّعبَ "وحشٌ هائِل" يجب ترويضه"(٤٢)، لأنهُ قد يتمرّد ويهربُ من قفصه، فيثيرُ الرّعبَ فى قلوبِ الحُكّام! وقد ذهب (هارولد لاسويل)، أحد مُؤسّسى علم السياسة الحديث، إلى أنّه يتعيّنُ على المدراء الاجتماعيين - فى المجتمعاتِ الأكثر ديمقراطيّة، حيثُ القوّة غير متوافرة - اللجوء إلى "أُسلوبِ تحَكّم وسيطرة جديد كليّة، أىْ مِنْ خلالِ الدعايةِ بالأساس"(٤٣).

وفى هذا الصّدد أكّد (لى كوان يو)، رئيس وزراء سنغافورة الأسبق؛ بالقول: كانت سيطرتى التامّة على المنابِر الإعلاميّة مصدر قُوّتى طيلةَ حياتى السياسيّة، فالكلمةُ المنطوقة عبر التلفزيون أشدّ تأثيراً بكثير مِنَ النصِّ المكتوبِ فى الصّحف(٤٤). وفيما يتعلّقُ بالإعلامِ العربىّ، فإنّ "الصفة الغالِبة عليه، أنّهُ إعلامٌ مُسَخّر علناً، لخدمةِ هدفينِ سياسيين: أولّهما: أنْ يتجاهلَ أخطاءَ الحكومة، والثانى أنْ يُمَجِّدَ مُنجزاتِها الإداريّة، بكُلِّ وسيلةٍ فى حوزتِه، بما فى ذلِكَ قصائد الشِّعر، وأغانى الأطفال"(٤٥).

فالإعلامُ العربىُّ إعلامٌ لا يملكُ شيئاً مهمّاً يقولهُ لهذهِ الملايين، ولا يعرفُ كيفَ يستحوذ على انتباهِها باللّغةِ المألُوفة وحدَها، ممّا يضطرّهُ بالتالى إلى تبنِّى حلُول بلاغيّة بحتة، غير مطوعة لخدمةِ الإعلام: وأوّل هذهِ الحلُول، تمثّلَ فى استعمالِ (الصفة)، هى صيغةٌ سِحريّة حقّاً، تُضافُ إلى كُلِّ شىءٍ، فتُصبِح شيئاً آخَر فى لحظةٍ قصيرة، ومن دونِ عناء. إنّها تلحق بحكومةٍ غير شرعيّة، فتُصبِح حكومةً رشيدة. وتلحقُ بوطنٍ يُعانى مِنَ الزُّحامِ والعطش، فيُصبِح وطناً سامياً إلى العُلا. وتلحق بمواطنٍ حافى القدمين، فيُصبِح مُواطناً كريماً، صاحب حضارةٍ عريقة. فالصفةُ، مثل عصا السّاحِر، تستطيعُ أنْ تُحقِّقَ المعجزات، لكنّها - مثل عصا السّاحِر أيضاً - حيلةٌ لا يُصدّقها الجمهُور(٤٦). وقد أفرطَ الإعلام العربىّ فى استعمالِ الصفة سلباً وإيجاباً، وورّطَ نفسَهُ فى قاموسٍ سحرىّ، مُعدّ - فقط - لمخاطبةِ الأطفال. فكلمة (الملك المفدّى)، مثلاً، كلمةٌ لا تستطيعُ أن تخاطِبَ رَجُلاً ناضِجاً، من دون أنْ تُصبِح كذبةً علنيّة. وكذلِكَ كلمة: الرئيس الجليل، والشعب الأصيل، والحكومة الرّشيدة، والثورة المباركة، والملك السّاهِر على شؤونِ الرعية، وعشرات الصِّفات الخرافيّة الأُخرى، التى لا يعرفُها قامُوس الإعلام إلاّ بمثابةِ مادّةٍ للضحك(٤٧). أمّا ثانى الحلُول البلاغيّة المفضّلة لدى الإعلام العربىّ، فتمثّل فى استعمالِ صيغةِ المبالغة. وهِىَ أداةٌ سِحريّة أكثر إثارة، تُضاف إلى الصّغير، فيُصبِح كبيراً جِدّاً، وتُضاف إلى شجرةٍ واحِدة، فتُصبِح غابة، وتُضاف إلى مصفاةٍ للنّفطِ المشرِف على النّفاد، فتُصبِح قلعةً صناعيّة لبناءِ المستقبل(٤٨). وفى مجالِ المبالغة، سجّلَ الإعلامُ العربىُّ لنفسهِ سِجّلاً حافِلاً بأكثرِ فنُونِ الكَذِب سذاجةً، وأقلّها قُدرةً على التّمويه. وهو الكَذِب الّذى لا يُخاطِبُ أفراداً، بَلْ يُخاطِبُ أُمّةً بأكملِها.. فكلُّ شىءٍ يتضاعفُ حجمهُ، أو ينقص إلى ما لا نهاية، بتغييرٍ طفيف فى زاويةِ النّظر، وفى نوعِ الأُسلوب. وهِىَ حيلةٌ بلاغيّة نافِعة فى تعليمِ الأطفال؛ لأنّها

تشحّذ قُدرتهم على التخيُّل، لكنّها لا تعلّم المواطِن المسؤُول شيئاً، سِوَى أنّ الإعلامَ غير جاد، وغير مسؤُول([٤٩]).

أمّا ثالِث الحلُول البلاغيّة المفضّلة لدى الإعلام العربيّ، فتمثّلُ فى استعمالِ صيغةِ (الحماسة)؛ لشدِّ انتباهِ الجمهُور. فالإعلامُ الّذى لا يقولُ شيئاً مهمّاً، يضطرُّ إلى أنْ يقولَ شيئاً مثيراً. وهو حلٌّ سِحريّ آخَر، مهمّتهُ أنْ يحيلَ الكلماتِ إلى قذائِف، ويجعلَها تنفجِر، ويتطايرُ مِنْ حولِها اللّهب، ويسقطُ أمامَها الأعداء صَرْعى، من دون أن تسيلَ نقطة دمٍ واحِدة([٥٠]). وقد أفرطَ الإعلامُ العربيِّ فى شنِّ هذهِ الحربِ الطفوليّة، وصنعَ لنفسهِ لغةً مِنَ (الديناميت)، لا تكلّم المواطِن، بَلْ تنفجِرُ فيه. فصوتُ الثورةِ (يُدَوِّى) فى أُذنيهِ، والجماهيرُ (تهدرُ) من حولِه، وأناشيدهُ (تزلزلُ) الإذاعة، ولغته (رصاص)، وسماؤُه (نار)، وأرضُه (تستعرّ) تحتَ قدميهِ كالسّعير([٥١]). وفى مقابل هذهِ العاصِفة الحماسيّة، لا يملكُ المواطِن العربىّ صوتاً فى إعلانِ الحربِ أو إقرار السّلام، ولا يستطيعُ أنْ يحمِلَ سِلاحاً من دون أنْ يتعرّضَ للعقُوبة. ولم يسألْهُ أحدٌ عن رأيه فى أىِّ حرب، دخلتها الحكوماتُ العربيّة، فى أىِّ عصر، وفى أىِّ مكان([٥٢]).

رابعُ هذهِ الحلُول البلاغيّة المفضّلة لدى الإعلام العربىّ، تمثّل فى تفخيمِ (اللّقب السياسىّ) إلى أبعدِ ما تحتملُ السياسةُ نفسُها. وقد جالَ الإعلامُ الحكومىُّ طليقاً فى هذا المجالِ المفتُوح، وأسبغ على حُكّامهِ مِنَ الألقابِ ما تضاءلَتْ بجانبهِ ألقابُ السّلاطين. ومن هذهِ الألقاب: بطلُ العرُوبة، وحبيب الشّعب، والرئيس الملهم، والعاهِل المفدّى، وأمل الجماهير، فى وصلةٍ شعريّة بحتة، لا مبرّر لها فى قامُوسِ الإعلامِ سِوَى الجهل بطبيعةِ اللّقب السياسىّ نفسِه([٥٣]). كلُّ ذلِكَ من أجلِ اعتقالِ وعى الجماهير، ووضعهِ فى مُعتقلاتٍ أيديولوجيّة، وبالتالى تعليبهِ بقوالِب مُعلّبة ممهورة بـ(ماركاتٍ) حكوميّة مُسجّلة! وإلى هذا المعنى ذهب (مصطفى محمود) مُؤكّداً بقوله: إنّ الكتابَ الجيِّد يُحَرِّرُ الإنسان الّذى يقرأهُ، أمّا التلفزيون الجيِّد؛ فيعتقلُ الإنسانَ الّذى يُشاهِدُه! وهناك حِكْمةٌ رائِعة تعزِّزُ مثلَ هذا المفهُوم؛ وهى: ضع فى الاعتبار؛ كذبةٌ واحِدة يُمكنْ أن تُدَمِّرَ آلافَ الحقائِق![٥٤]. وقال (جورج أورويل) بحقّ: "كُلّما ازداد ابتعادُ المجتمعِ عن الحقيقة، ازدادت كراهيته لِمَنْ يقولُون الحقّ"([٥٥]). وأكّد (أورويل) أيضاً بقوله: إنّ لغةَ السياسةِ تمّ تصميمُها لتجعلَ الكذبَ يبدُو صادِقاً، والقتلَ مُحْتَرَماً! وأنا أضيفُ: والبرىء مُذنباً، والمذنبَ بريئاً، والجلاّد ضحيّة، والضحيّة مُجرماً، والخائِن وطنيّاً، والوطنىّ منبُوذاً، كلُّ ذلِكَ مِنْ خلالِ ثقافةٍ مرئيّةٍ عَرَضيّةٍ مُسَطّحة، تُقدِّمُ وجباتِها على طبقٍ مِنَ الإغراءِ والمتعةِ والإثارة! أمّا العقلُ المدركُ فقد تمَّ تجميدُه فى ثلاجةِ الإعلامِ المسيّس، فأصبحَ مُغلقاً لا يعى ما يدورُ حولَهُ مِنْ مُستجدات، ولا يفهمُ ما دونهُ مِنْ ماجريات!

فالعقلُ المغلقُ كجهازٍ مُغلق، وإنْ بلغَ أعلى درجاتِ التطوُّر؛ لأنّهُ لا يُجْدِى نفعاً، ولا يُحْسِنُ صُنعاً، فليسَ ثمّةَ إرسالٌ ولا استقبال. ولهذا قيلَ: الإعاقةُ الحقيقيّةُ هِىَ فى العقُولِ المغلقة([٥٦])! وقد صدقَ مَنْ قالَ: إنّ "الشعُوبَ التى لا تملكُ وَعْياً، قَدْ تُصبِح يوماً قطيعَ غنمٍ يسُوقهُ إعلامٌ لا يملكُ ضميراً"! هذا، وقد قال (غوبلز)، وزير الدعاية الألمانىّ إبّان حُكمِ (هتلر): أعطنى إعلاماً بلا ضمير؛ أُعطيكَ شعباً بلا وعى([٥٧])! كما أنّ "الخوفَ الجمعىَّ - كما قال برتراند رسل - يُحَفِّزُ غريزةَ القطيع، ويميلُ هذا الخوفُ إلى إنتاجِ شراسةٍ تجاهَ أُولئكَ الذينَ لا يعتبرُون أعضاءً فى القطيع"! لهذا عليكَ أن تعلمَ جيِّداً أنّ "انجرافَكَ خَلْفَ القطيعِ الضّالِ تحتَ مبدأ (الكلُّ يفعلُ ذلِكَ)، يسلبُ مِنْكَ خِصَالَكَ البديعةِ كإنسانٍ

ميّزَهُ الله بالعقل"! وإذا فقدَ الإنسانُ هذهِ الميزةَ الفريدةَ - الّتى حبانا الله إيّاها - أصبحَ آلةً صمّاء تعملُ بإرادةِ غيرِه، وتتحرّكُ امتثالاً لطوعِ بنانِه.

وهكذا يتمّ اغتيال العقلِ الإنسانىّ، وإهدارِ وظيفتِهِ فى الكشفِ والإدراكِ والتمييز بين الأشياء، ويكون مُجرّد منفِّذ للأوامر، ولا يدرى أنّهُ قد يلقى حتفَهُ عندَ تنفيذها! وهو مع ذلك قد يتصوّرُ واهِماً أنّهُ يفكّرُ بعقلِه، ويتحرّك برأيه، وينقادُ باختياره، ولا يعى أنّهُ حامِلٌ أمين لفكرٍ دخيل زرعُوه فى لُبّهِ، فـ"أفضلُ ثروةٍ للحكُومات أنْ تكون الشّعُوبُ غبيّة لا تفكّرُ أبداً"([٥٨]). و"مِنْ حُسْنِ حَظِّ القادة أنَّ الناس غير مُستعدين للتفكير"([٥٩]). وقد لخّص الفيلسوف الإنكليزىّ (برتراند رسل) هذهِ الفكرةَ؛ بقولهِ: "قَدْ تَقْضِى عُمْرَك وأنتَ تعتقِدُ أنّكَ تدافِعُ عن أفكارِك، ثمَّ تكتشِفُ أنّكَ فى الحقيقةِ تدافِعُ عن أفكارِهم الّتى زرعُوها فى عَقْلِك"([٦٠]). وفى هذا المعنى قال (أريك فروم): إنّ "الإنسان فى العصرِ الحديث يعيشُ فى وَهْمِ أنّهُ يَعْرِفُ ما يريدُ، بينما هو فى الحقيقة يريدُ ما هو مفرُوضٌ عليهِ أنْ يريدَهُ"([٦١]). فـ"إذا لم تُسيِّطِرْ على عقلِك، سوفَ يُسيِّطِرُ عليهِ شخصٌ آخَر!"([٦٢]). وقد وردتْ هذهِ الفكرةُ بعبارةٍ أُخرى، وهِىَ: "إنْ لم تستخدِمْ عقلَكَ؛ فإنَّ الآخرينَ سوفَ يسُوقونه!"([٦٣]). وإنْ لَمْ تُبَرْمِجْ عقلَكَ، ستكون مُبرْمَجاً من قبلِ شخصٍ آخَر!([٦٤]).

فنحنُ وَفْقاً لهذهِ الأفكار مجرّد ذاكرة خالية لحملِ المعلوماتِ وتحديثها تارةً بعد أُخرى، ولهذا فإنّ "أغلبُ مَشاكلِنا - حسبما أومأ إليهِ الدكتور بشير الرشيدى - هى بسببِ قناعاتٍ تعلّمْناها، وترسَّخَتْ فى أذهانِنا، وبالتالى يكونُ سلُوكُنا وكُلُّ تصرُّفاتِنا وَفْق هذهِ القناعات"، وهذا ما أشارَ إليهِ أيضاً (ألبرت انشتاين)؛ بقوله: حين يُخبِرُكَ الآخَرُون أنّكَ تغيَّرْتَ؛ فالمعنى أنّكَ توقّفْتَ عَنْ عيشِ حياتِكَ بطريقتِهم الّتى يُفَضِّلُونها([٦٥])!

فما أحرى بالإنسان أن يعيشَ على طريقتهِ التى يفضِّلها، ما دام على الطريقِ الصّحيح. وفى هذا المعنى قال (رالف إمرسون): "ألا يُمكننا أن ندعَ النَّاسَ يكونون هُمْ أنفسَهم، ويتمتّعُون بالحياةِ على طريقتِهم؟ أنتَ تحاوِلُ أن تجعلَ الآخَرَ هو أنتَ. ويكفى (أنتَ) واحِد"([٦٦])! وما أجمل تلك العبارة التى تؤكّد ما نقلناهُ آنفاً؛ وهى "جميعُكم تضحكُون علىَّ؛ لأنِّى مُختلِفٌ عنكُمْ، وأنا أضحكُ عليكُمْ؛ لأنّكُمْ مُتشابِهُون!"([٦٧]). وما أروع ما قاله الأديب الروسى (ديستويفسكي): "لا يَنْبَغى أن يشبهَ الإنسان جمهرةَ النّاس، كُنْ مُختلِفاً ولَوْ صِرْتَ وحيداً". ولهذا "قَدْ يكرهُكَ النّاسُ؛ لأنّكَ مختلِفٌ، ولا تعيشُ وَفْقَ معايير المجتمع، ولكن فى أعماقِهم يتمنّون لَوْ كانت لديهم الشجاعة لفعلِ الشىءِ نفسِه"([٦٨]). وفى هذا الصّدد قال (لابويسى): إنّ الّذين "يملِكُون بالفطرة عقلاً سليماً"، والّذين يزيدُون على ذلك "فيصقُلونه بالدِّراسة والمعرفة"، يرون مِنْ فورِهم ما قوامُ الخير للإنسان. "إنّهم، وقد وُلِدوا خيراً مِنَ الآخرين، لا يسعهم أنْ يألفوا الخضُوع"، وحتّى حين "تفقدُ الحُريّة تماماً، وتغدُو خارِج عالمِهم، يظلّون يتخيّلونها، ويشعرُون بها فى فِكْرِهم". وليسَ ما يدعو إلى تعليمهم ما قوامُ الحُريّة: فلديهم إحساسٌ بها داخلى وحى([٦٩]).

**بلدان العالم: تشابه فى المقدّمات، واختلاف فى النتائج**

هناك الكثير من بُلدانِ العالَم، التى عانت الأمرّين فى ظلّ أنظمةٍ قمعيّة غير ديمقراطيّة، ودفعت الثمن باهضاً من حياتها وحياةِ أبنائِها، ولكن استفادت من تجارِبها البائسة، ودشّنت نهضتها الحضاريّة على أطلال الماضى الرهيب، ومن هذهِ الدول (سنغافورة)، التى شهدت تطوّراً حضارياً وتقدّماً عمرانيّاً،

بعد سنواتٍ طويلة من البؤس والحرمان والتخلّف. ولنستمِعْ هنا إلى خطابِ مُؤَسِّس سنغافورة الحديثة (لى كوان يو) عندما سُئِلَ عنِ الفرقِ بين سنغافورة ودول العالَم الثالِث الآسيوية؟ فأجابَ بالقول: الفرقُ هو أنّنا نبنى المكتباتِ ودورَ البحثِ العلمىّ، وهُم يبنون المعابد. نحنُ نصرفُ مواردَ الدّولة على التعليم، وهم يصرفونها على السِّلاح. نحنُ نحاربُ الفساد مِنْ قِمّة الهرم، وهـم يُمْسِكون اللصُوص الصّغار، ولا يقتربون من المفسدينَ الكِبار! ولهذا قيل: "لَمْ تَعُدْ هُنـاكَ حاجـةٌ لأىِّ دولـةٍ أنْ تسـتعمرَ دولـةً أُخـرى، يكفى أنْ توظِّفَ لصوصاً بهيئةِ حكومة"!

والفسادُ الإدارىّ هو أمّ المشكلات السياسيّة فى عالمِنا اليوم، ولهذا قال (كارل كراوس): الفسادُ أسوأ مِنَ الدّعارة، فالدّعارةُ قَدْ تُفْسِدُ أخلاقَ فردٍ واحِد، لكنّ الفسادَ يُفْسِدُ أخلاقَ الدّولةِ بأكملِها"! ولهذا قيل: لِكُلِّ داءٍ دواءٌ يُسْتَطَبُّ بهِ، إلاّ الحكومةَ أعيتْ مَنْ يُداوِيها! وقد حقّ مَنْ قال: إن فى البلادِ العربيّة نوعين مِنَ اللّصُوص: لصُوص صِغار تُلاحقهم الشرطة، ولصُوص كبار تحرسُهم الشرطة! فأجمـل مـا فى بلادِنـا أنّ اللّصُوصَ لا نـراهم لـيلاً عـلى أسـوارِ المنـازِل، بَـلْ نـراهُم فى وضـح النّهـار عـلى مكاتِـب فخمـة! أمّـا فى (سنغافورة) فقد بدأوا باللّصُوص الكبار قبل الصّغار، وذلك لأنّ "تنظيفُ الفسـادِ مثـل تنظيـف الـدرج؛ يبدأ من الأعلى نزولاً للأسفل!([٧٠]). وفى هذا المعنى قال الشيخ (محمّد الغزالىّ): الفسادُ يجىء مِنْ أعـلى ويهبط إلى أسفل.. أمّا الإصلاحُ فيبدأ مِنْ أسفل، ويصعـدُ إلى أعـلى! ودعنـا هُنـا نسـتمِعْ إلى بـانى نهضـةِ سنغافورة الحضارية (لى كوان يو)، وهو يقول: قرّرنـا تركيـز جُهـدِنا عـلى الحيتـانِ الضّـخمة، واللّصُـوص الكبـار، ووجّهْنـا مكتـب التحقيـق تبعـاً لأولوياتِنـا. كـما شرعْنـا، بالنسـبةِ للأسـماكِ الصّـغيرة، بتبسـيطِ الإجراءاتِ، وإلغاءِ الممارساتِ السريّة، عبر الإعلانِ عن خطُوطٍ إرشاديّة واضِـحة وجليّـة... وحـينَ واجهنـا مُشكلاتٍ فى ضمانِ نزاهةِ الأحكام، قُمْنا بتشديدِ سُلطةِ القانون على مراحِلَ مُتدرِّجة([٧١]).

وقد تجسّد أهمّ تغيير فاعِل - أجريناهُ عام ١٩٦٠م - فى مبدأ (مِنْ أينَ لكَ هذا؟)، أى السّماح للمحاكِمِ بالتّعامُل مع البيّناتِ الّتى تُثبت أنّ المتّهمَ يعيشُ حياةً تتجاوزُ حدودَ إمكانياتِهِ الماديّة، أو أنّهُ يملكُ عقاراً لا يسمحُ دخلهُ بشرائِه، كدليلٍ دامِغ على أنّهُ قَبِلَ أو تقاضى رشوة. ومع الدقّة فى التحريّاتِ، والسّلطة المخوّلة بالتحقيق مع أىّ مسؤُول، وكلّ وزير، استطاع مدير مكتب التحقيق، الّذى يُمارِس مهمّته فى رئاسةِ مجلس الوزراء، اكتساب سُمعة مُرعبة فى اكتشافِ أولئكَ الّذين يخونون الأمانة([٧٢]). وفى عام ١٩٦٣م، جعلْنا استدعاء الشّهُود من قبل مكتب التحقيق، لتقديمِ المعلُوماتِ أمراً إجباريّاً. وفى عام ١٩٨٩م، قُمْنا بزيادةِ الحدِّ الأقصى مِنْ غرامةِ الرشوة من عشرة آلاف إلى مائة ألف دولار. أمّا تقديم معلُوماتٍ كاذِبة أو مُضلّلة إلى مكتبِ التحقيق؛ فقد أصبحَ جنايةً خاضِعةً لعقُوبةِ السّجنِ والغرامة التى تصلُ إلى عشرة آلاف دولار، فى حين زُوّدتِ المحاكِمُ بصلاحيّةِ مُصادرةِ المكاسِبِ الآتية مِنَ الفساد([٧٣]).

وقد أكّد (لى كوان يو) أيضاً فى موضعٍ آخَر: أنا لَمْ أَقُمْ بمعجزةٍ فى سنغافورة، أنا فَقَطْ قُمْتُ بواجبى نحو وطنى، فخَصَّصْتُ مواردَ الدّولةِ للتعليم، وغيَّرْتُ مكانةَ المعلّمينَ من طبقةٍ بائِسة إلى أرقى طبقةٍ فى سنغافورة. فالمعلّمُ هُوَ مَنْ صنعَ المعجزة، هُوَ مَنْ أنتجَ جيلاً مُتواضِعاً يُحِبُّ العِلْمَ والأخلاقَ، بَعْدَ أنْ كُنّا شعباً يشتمُ بعضهُ بعضاً فى الشّوارِع! ومن إنجازاتِهِ الرّائِدة التى يصِفُها بقولِه: رَفَضْـتُ أنْ أُوَجِّـهَ مـواردَ الدّولةِ لشراءِ السِّلاح، كما يفعلُ حُكّامُ العالَم الثّالِث، بَلْ وَجّهْتُ مُعظمَ مواردِ الدّولةِ للتعليم، فتَحَوَّلَـتْ سنغافورة مِنْ دويلةٍ فقيرة مديونة، إلى واحِدةٍ مِنْ أسرعِ اقتصاديّاتِ العالَم نُمُوّاً. فالتعليمُ هُوَ سِرُّ نجاحِ سنغافورة!

وعلينا أنْ نتذكّرَ هُنا ما قالَهُ (جبران)؛ وهو: أنّ الوطنَ يقومُ على كاهِلِ ثلاثة: فلاحٌ يُغذيّه، وجندى يَحْميهِ، ومعلِّم يُربّيه! هذا، وقد أجمل (مهاتير محمّد) أثر التعليم الفاعِل فى حلِّ المشكلاتِ جميعِها؛ بقوله: إنّ "أهمَّ درسٍ تعلّمْتهُ مِنْ تجربتى فى الحكم، أنّ مشاكِلَ الدّوَل لا تنتهى، لكن علاجها جميعاً يبدأ مِنَ التّعليم!". وما أجملَ ما عبّر بهِ أيضاً المناضِل الإفريقىّ (نيلسون مانديلا) بقوله: "التعليمُ هو أقوى سلاح يُمكن أنْ تستعملَهُ لتغييرِ العالَم!"(٧٤). وأكّد الدكتور (فيكتور شيا)، خبير جودة التّعليم فى كوريا الجنوبيّة أنّه: "لا توجدُ دولةٌ تتحمّلُ إنتاجَ جيلٍ كامِلٍ دون تعليمٍ جيِّد، فهذا الجيلُ سيدمِّرُ الدّولةَ داخليّاً؛ لتتفّتت وتفقد وجودَها. الشرقُ الأوسط أهملَ التعليم، والآن يدفعُ الثّمن!".

وهذا ليسَ غريباً، لأنّ "بنيان الحضارة والرقى لدولِ العالَم يرتكزُ على دعامتَيْنِ أساسيتَيْن؛ هُما: العِلم، وسيادة القانون المستوحى من الشرعِ القويم. فالمؤسّسات العلميّة هى القوّة المحرِّكة للتقدُّمِ العلمىِّ والحضارىّ والاقتصادىّ، ومبعث الرّخاءِ والرفاهية والازدهارِ لأبناءِ الشّعب. والقضاءُ هِىَ السّلطةُ القانونيّة التى تحمى العدالةَ، وتوفّر الطمأنينةَ والأمن للجميع"(٧٥). فالعلمُ والمعرفةُ هُما أمضى سلاحٍ لتغييرِ هذا الواقعِ المؤلِم الّذى يعيشهُ أبناءُ وطننا المعطاء. والكفاحُ من أجلِ العلمِ والثقافة هو جزءٌ متمِّم للنضالِ السياسىّ، ويستحيلُ فصل إحراز النجاح السياسىّ، فى أىِّ بلدٍ، عن مُستوى التقدّم العلمى والثقافىّ الذى وصل إليهِ، نظراً للترابُط الوثيق بينهما(٧٦).

ولا ننسى- أنْ نذكِّرَ هُنا "أنّ منحَ الدّولة بنية سياسيّة مُستقرّة، لا يتطلّبُ إنشاء مؤسّسات ديمقراطيّة فحسب، وإنّما أيضاً إنشاء مُؤسّسات (امتصاص الصدمات) الّتى تُشكّل المجتمع المدنى، كالصحافة الحُرّة، ونقابات العُمّال، والأحزاب السياسيّة، والمنظّمات المهنية. فهذهِ المؤسّسات تساعِدُ فى وقاية الفرد مِنْ طغيانِ قُوّة الحكومة(٧٧). كما أنّ "الديمقراطيّات لا تعملُ ما لم تستندِ البنية السياسيّة إلى مُجتمعٍ مدنىّ صلب، وأحزابٍ سياسيّة، وصحافة حُرّة، وقضاء مُستقل، ومسؤوليّة صريحة عن الأموالِ العامّة. هذهِ هى "أدواتُ امتصاص الصّدمة" فى المجتمع، وهى الّتى "تحمى الفرد مِنْ سُلطة الدّولة المجحفة"(٧٨).

**استراتيجيّة السيطرة على التّعليم فى الدّول المتخلِّفة**

والسؤالُ هنا: لماذا يجب أن يبقى التعليمُ - على الدوامِ - ميداناً فسيحاً تحتكِرهُ السياسةُ، لماذا أصبحَ كلُّ ما يمتّ إلى المعرفةِ بصلةٍ مسألةً تخصُّ بالضرورةِ السُلطة والدولة؟ فسيطرةُ الحكوماتِ على نظامِ التعليمِ فى العالَم العربىِّ له دورٌ خطير فى تردِّى المستوى التعليمىّ. فإذا دخلتِ السياسةُ والتجارةُ كأهدافٍ رئيسةٍ للتعليم انهارَ التعليم، ولهذا فقد قيل: مِنْ أجلِ تدميرِ أُمّةٍ لا حاجةَ إلى قنبلةٍ نوويّة، أو إلى صواريخ طويلة المدى.. يكفى فقط أن تخفضوا مِنْ نوعيّة التعليم! وإلى هذا المعنى ذهب (راى برادبورى) بقوله: "لا تحتاجُ إلى إحراقِ كتُبِ شعبٍ كي تدمِّرَ ثقافتَه، تحتاجُ فقط إلى جعلِ النّاسِ تتوقّفُ عن قراءةِ هذهِ الكُتُب".

فالسياسةُ عندما تدخلُ فى المجالِ التعليمىّ تُسْقِطُ منظُوراتها اللاغائيّة فيهِ، وتستخدمُ تبريراتِها الجاهزة لغاياتِها اللاعقلانيّة، بوسائلَ ميكافيليّة ذرائعيّة! فـ"المبدأُ العام للتعليمِ الحديث هو الابتعادُ عن كُلِّ ما يمسُّ السياسة أو الاعتقاد. ولا يهمّ المؤسسة الصناعيّة الرأسماليّة أن تكون أفكارُ المهندسِ أو

العامِل مِنْ هذا الاتجاه أو ذاك. وتكوينُ العقليّة لا يتمّ فى المدرسةِ بالدرجةِ الأُولى، ولكن فى المؤسساتِ الأُخرى الثقافيّة والأدبيّة والفكريّة"([٧٩]).

فالشرطُ المهم لممارسةِ تعدديّة حقيقيّة؛ البدءُ فى قطعِ (الحبلِ السرىّ) الّذى يربطُ المفكّر والمثقّف والسياسىّ، والعمل على استقلالِ أدواتِ إنتاجِ المعرفة عن سُلطةِ السياسىّ، الّذى يُحاوِل تحجيم دورِ المثقّف، ويلحُّ على أنْ يسيرَ فى ركابه.

إنّ السياسةَ فيما يُقال: هى فنُّ تحقيقِ المُمْكِن، أمّا المعرفةُ فهى فنُّ بناءِ المستقبل وتحقيق المستحيل([٨٠]). ومن المفارقاتِ الّتى تفضحُ السياسة الميكافيليّة، أنه إبّان تفجُّر ثورةُ أكتوبر عام ١٩١٧م، كانتْ طبقةُ العُمّال تمثّل فى رُوسيا أقلّ مِنْ (٣%) مِنَ المواطنين العاملين. وهكذا تكوّن حزبٌ يَدَّعِى أنّهُ يُعبِّر عن ضميرِ طبقةٍ غير موجُودة... ومِنْ هُنا بدأ الانهيارُ: حِزبٌ عدَّ نفسَه ضميرَ طبقةٍ اجتماعيّة، ثمّ تكلّمَ الزُعماءُ باسمِ هذا الحِزب، ثمّ أخيراً أصبحَ شخصاً واحِداً بدلاً مِنَ السُّلطة الجماعيّة، الّتى لم تعد انتخابيّة، ولا تعبِّرُ عن رغبةِ القاعِدة العريضة (السّوفييت)([٨١]).

وعندما تكفُّ المدرسةُ أو الجامِعةُ عن نقلِ المعارِف الحقيقيّة، لكي تتحوّلَ إلى مُؤسسةٍ مُسيّسة؛ ترمى إلى فرضُ الشعارات، وزرع الأيديولوجيات، وإخضاعِ الأجيالِ الواعِدة لحُكْمِ العاطفة، وليس لحكمِ العقل والمنطق، لا بُدّ أن تفقدَ وظيفتها الحقيقيّة؛ بوصفها إطاراً للتربيةِ الاجتماعيّةِ الصّحيحة([٨٢]). ومن هنا، فعلى الأستاذ الجامعىّ أن ينأى بنفسهِ عن الانشغالِ بالأُمورِ الحزبيّة داخِل الحرمِ الجامعىّ، لأنّ العملَ الحزبىّ يكونُ قطعاً على حسابِ العملِ الوظيفىّ، فضلاً عن ضرورةِ إبعادِ الحرمِ الجامعىّ عن الصِّراعاتِ الحزبيّة؛ نظراً لاستحالةِ التوفيق بينها وبينَ المهامِ العلميّة ذاتِ الطبيعة المحايدة([٨٣]). إنّ مبدأ استقلاليّةِ الجامعاتِ لو قُدّر لهُ أنْ يُوضَع فى حيِّزِ التّطبيق؛ لكان ذلِكَ دعماً كبيراً للتقدّم العلمىّ والحضارىّ فى وطننا. فهذا العُرْف الجامعىّ - الّذى هو حصيلةُ القيم الحضاريّة والإنسانيّة - قد أثبتَ جدواهُ على مرِّ السّنين. ويعودُ بعضُ الفضلِ فى التقدّم العلمىّ والثقافىّ المذهِل للجامعاتِ المرمُوقة فى العالَم إلى مُمارسةِ هذا المبدأ بكُلِّ أمانةٍ وإخلاص"([٨٤])، لهذا وجبَ أن تُفصل السياسةُ عن التعليم، ويُوضع فى رأسِ إدارةِ النظُم التعليميّة ذوو الخبرة والكفاءة، ويُديرَ دفّتها العارِفون بأهدافِها وغاياتِها الحقيقيّة، لا أن يخوضَ غِمارَها سماسِرةٌ يُتاجِرُون بها كما يُتاجِرُون بالسِلع والبضائع المستوردة! وقد حقّ مَنْ قال: إنّ قضيّة الفَقْرِ فى مجتمعاتِنا يُناقِشُها الأغنياء، وقضيّة السّكَنْ يُناقِشُها أصحابُ القصُور، وقضايا المرأة يُناقِشُها الرِّجال، وقضيّة التعليم يُناقِشُها التُجّار، ثمّ نتساءل فيما بيننا: تُرَى لماذا أصبحتْ قضايانا مُعقّدةً إلى هذهِ الدرجة الّتى هِىَ عليها! فـ"الحقيقة التى لا تحتاجُ إلى بُرْهان هى ضرورة وضع (الرّجل المناسِب فى المكانِ المناسِب).

فقد أحرزت هذهِ النظريّة نجاحاتٍ باهِرة فى حيّز التطبيق، فى كُلِّ الدّول التى سارتْ على هُداها. إنّ جزءاً مِنْ فشلِ الإدارةِ الكُورديّة، وشللِ مؤسّساتِها، يعود إلى تطبيقِ هذهِ الحقيقةِ بصُورةٍ مُعاكِسة([٨٥]). وإذا نظرنا إلى الحكومةِ الكنديّة وجدنا أنّ: وزيرَ الزّراعةِ مُزارِع، ووزيرَ الهجرة لاجِئ، ووزيرَ الثروة السمكيّة صيّاد، ووزيرَ العلُوم عالِم، ووزيرَ النقل رائِد فضاء، ووزيرَ الرّياضةِ بطلٌ رياضىّ، ووزيرَ الشباب شابّ، ووزيرَ الصحّة طبيب، ووزيرَ الاقتصاد رجل أعمال ناجِح، ووزيرَ الأمن مُحارِب قديم.. تطبيقٌ عادِل لمقُولةِ (الشّخصُ المناسِب فى المكانِ المناسِب)! وفى العراق يوم كان فى أوْجِ عِزّته وذُرْوَة مَجْدِه، وتحديداً فى عام ١٩٦٤م، حيثُ أصدرَ رئيسُ الوزراء العراقىّ (طاهِر يحيى) أمراً بصَرْفِ

مبلغ (٥٠) ديناراً نفقاتِ شِراء (قهوةٍ وشَاى)، لضيوفِ مكتبِ رئيسِ الوزراء، وحينَ وصُولِها الخزينةَ المركزيّة، رفضَها مُوظِّفُ التّدقيق مِنَ الدّرجةِ السّابعة، يحمِلُ شهادةً إعداديّة، يُدْعَى (كريم عبدالله)، وكَتَبَ على ظهرِ مُستند الصّرْف: إنّها دائِرةٌ حكُوميّة وليستْ مقهى، ومَنْ أرادَ أنْ يُضَيِّفَ الآخرين، عليهِ أنْ يُضَيِّفَهُم مَنْ جَيْبِه الخاصّ، وليسَ مِنْ أموالِ الخزينة العامّة الّتى هِىَ مُلْكُ الشّعْب! بعدَ يومين أرسَلَ رئيسُ الوزراءِ اعتذاراً للموظَّف، وطَلَبَ مِنْ وزيرِ الماليّة مَنْحَهُ قِدَماً لِمُدّة سِتّة أشهُر؛ تقديراً لنزاهتِه وحِرْصِه على المالِ العامّ، وتعميم مُطالعتِه على كُلِّ دوائِرِ العِراق!

وجديرٌ ذكرهُ هنا أنّه أثناء الحربِ العالميّة الثانية تمكّن الحُلفاء من القبضِ على عميلٍ بريطانىّ يعمل لصالحِ ألمانيا، وكان موظّفاً كبيراً فى الحكومة البريطانيّة، لكنّهم لم يعرِفُوا كيفَ كان يُسرّب الأسرار، إذ لَمْ يَكُنْ يمتلكُ أسراراً عسكريّة، ولا حتّى مدنيّة. وكانت وظيفته تقتصِرُ فقط على اختيارِ الموظفين الحكوميين. وبعد التحقيق المستمرّ معهُ، تبيّنَ أنّ مهمّتَهُ كانتْ تقتصِرُ فقط على وضعِ الرّجُل غيرِ المناسِب فى المكانِ الّذى لا يستحقّه. تُرى كَمْ من نوعيّة هذا العميل لدينا فى مؤسّساتِنا الحكوميّة!

وبعد سقُوطِ الاتحادِ السوفييتى كرَّمتِ المخابراتُ الأمريكيّة عميلَها الروسىّ، وكان يَشْغَلُ منصبَ وزير الخدمةِ المدنيّة فى موسكو. سألَهُ ضابطٌ فى المخابراتِ الروسيّة: أنا كُنْتُ مسؤُولاً عن مراقَبَتِكَ، لَمْ أجِدْ لكَ علاقةً مع المخابراتِ الأمريكيّة، ولا تواصُلاً، ولا مُراسلة، فماذا عَمِلْتَ لها؟ قال: كُنْتُ أُعَيِّنُ كُلَّ خريجٍ فى غيرِ تخصُّصِه، وفى غيرِ مجالِه، وأُشَجِّعُ على ترقيةِ الأغبياءِ إلى الأعلى، معَ دعايةٍ إعلاميّة لَهُمْ، وأَحُوْلُ دون صعُودِ الكفاءاتِ بذريعةِ نقصِ الشّرُوط، حتّى بقىَ فى رأسِ الدّولة العجائِزِ القُدامى، والأغبياء الجدُد، فأُصيبَ الاتحادُ السوفييتى بالإفلاسِ الفكرىّ، وسقط. عندما يُوَكَّلُ الأمرُ إلى غيرِ أهلِه، يكونُ الانهيارُ حتميّاً!!

هذهِ هِىَ الحربُ الأيديولوجيّة الّتى "لا نسمعُ فيها صليلَ السُّيوف، ولا أزيزَ الرَّصاص، ولا أنينَ الجَرْحى؛ معركةٌ صامِتةٌ، تريدُ أنْ تَصْرَعَ الأُمّةَ فكريّاً، فيَسْهُلُ انهيارُها بعدَ أنْ تنحرِفَ عن أصالتِها. حربٌ مُبَرْمَجة، قادِرةٌ على تزوير الحقائِق؛ لأنّ الفكرَ الأصيل يُعانى أبناؤُه إمّا مِنْ عَجْزِ الإمكانات، وإمّا مِنْ سطحيّة الأبناء. حربٌ شمّرَتْ عن ساقِها، ولَنْ تضعَ أوزارَها حتّى تتركَ ضحاياها مِنْ شبابِ أُمّتِنا بينَ أسيرٍ، أو قتيلٍ، أو كسيح. حربٌ كحربِ السِّلاحِ تماماً، أو هى أشدّ فَتْكاً، خصُوصاً بعد أنْ أخذَتْ على عاتقِها تحقيقَ ما أرادَهُ مؤتمر التبشير الّذى عُقِدَ فى القاهِرة سنة ١٩٠٦م برئاسة صموئيل زويمر - رئيس إرساليّة التّبشير فى البحرين -([٨٦])، وقد جاءَ فى مقدّمةِ كتاب (العالم الإسلامى اليوم) للقس زويمر بعض الملاحظاتِ والنّصائح للمبشّرين؛ منها: "تبشيرُ المسلمين يجب أنْ يكونَ بواسطةِ رسُولٍ مِنْ أنفسِهم، ومِنْ بينِ صفُوفِهم؛ لأنّ الشّجرةَ يجب أنْ يقطعَها أحدُ أعضائِها"([٨٧])، أىْ تهديد الحصُون مِنْ داخلِها، بواسطةِ دِعِىّ مِنَ المسلمين أنفسِهم([٨٨]).

وقمينٌ بنا هُنا أنْ نعودَ أدراجَنا إلى القرنِ العشرين، وتحديداً حِقْبَة الاستعمارِ البريطانى يوم كان اللورد الإنكليزى (كرومر) (١٨٤١ - ١٩١٧م) حاكِماً على السُودان، وقد سُئِلَ حينَها: "هَلْ سَتَحْكُمُ أيضاً مصر؟"، فأجابَ: "بَلْ سأحْكُمُ مَنْ يَحْكُمُ مِصْر!"([٨٩]). وهذا ما يحصُل الآن فى الدول العربيّة والإسلاميّة، حيثُ يحكمُها ساسةٌ من العرب والمسلمين لصالحِ أجنداتٍ خارجيّة. ولا تزالُ ذاكرتنا طريّة بما حصل فى العراق من تدميرٍ وتهجير، وإتلافٍ وتبذير، ونَهْبٍ وسَلْب، وفسادٍ وتخريب. وكُلّنا "شاهَدَ ذلكَ الرَّهْطَ الغريب مِنَ الرِّعاعِ واللّصُوص، وهم يَهْجُمُون على متحفِ بغداد، فيستبيحُون ذاكرةَ الإنسانيّة، ويَعيْثُون فيها خراباً، ويُدَمِّرُون كُلَّ ما لَمْ تستطِع أيديهم نهْبَهُ، ويتركُونَهُ وقد غدا مغارةً مرَّتْ بها الوحُوشُ

البشريّة"([٩٠]). هكذا، تحت مَرْأَى الضمير العالمىّ، طالَ النّهبُ والتّدميرُ (١٧٠) ألفَ قطعةِ آثارٍ ونفائسَ تاريخيّة، لا يوجَدُ مثيلٌ لها فى أىِّ مكانٍ فى العالَم"([٩١]). حدثَ هذا على مرأى مِنْ جيُوشٍ جاءتْ تُبَشّـرُنا بالحضارة، مُفاخرةً بمعدّاتِها المتطوِّرة فى الاستطلاع، والتقاط (الصُّور الحراريّة)، والرؤية اللّيليّة، لكنّها لَـمْ ترَ شيئاً، وأكبرُ مخازنِ التّاريخ تُنْهَبُ كنُوزُه فى عِزِّ النّهار. فهىَ لَمْ تأتِ أصلاً لحمايةِ التّاريخ، ولا لصيانةِ الذاكرة، إنّما لإعادةِ صياغتِها، بحيث نتساوى جميعاً فى انعدامِها، مُراعاةً ومُجاملةً لتاريخِها. عُـذْرُها أنّ العالَم بدأَ، قياساً بتقويمِها، منذُ خمسة قرُون فقط، يوم نبتتْ أميركا على قارّةٍ كانتْ - حتّى ذلكَ الحين- مُلْكاً للهنُودِ الحُمْر. ولِذا هِىَ لَمْ تتوقّع أنْ يكون للعراقِ الصّغير الّذى استَضْعَفَتْهُ، تاريخٌ يفوقُ تاريخَها بخمسةِ آلافِ سنة([٩٢]). وفى هذا قال (كورديل هل) Cordell Hull([٩٣]) (١٨٧١ - ١٩٥٥م)، الّـذى شَـغَلَ مَنْصِـبَ وزيـر الخارجيـة الأمـريكي بـين ١٩٣٣ و١٩٤٤م: "إذا أردتَّ أنْ تُلْغِـىَ شـعباً تبـدأ بشـلّ ذاكرتـه التاريخيّة، ثمَّ تُشوِّه ثقافتَهُ، وتجعله يتبنَّى ثقافةً أُخرى غيرَ ثقافتِه، ثمّ تُلَفِّقُ لهُ تاريخاً آخر غير تاريخِه، وتعلِّمُه إيّاه.. عندئذٍ يَنسى هذا الشّعْبُ مَنْ هُوَ، ومَـنْ كـان، وتنـدثِرُ معـالِمُ حضـارتِه، وبالتـالى ينسـاهُ العالَمُ، ويُصْبِح مثلَ الأُمم المنقرِضة"!

لا ينقصُنا الذكاء والإبداع، كما لا ينقصنا العقلُ والبصيرة، طلبتنـا عنـدهُم الجـدّ والمثـابرة، وأُسرُنـا متماسكةٌ بحيث تتابع أبناءَها الطُلاّب، وتحرصُ عليهم، فكلُّ شىء ميسَّرٌ لنا، لكنّا فى النهاية ندِّرسُ أبناءَنا علُوماً مُتأخّرة، بينما هُم يُدرِّسُونهم علُوماً مُتقدِّمة، نحنُ نحرصُ على الحشوِ وعـلى الحفـظِ الآلىّ، وهُـم يحرصُون على المنهجِ العلمىّ، كما يُركِّزُون على المنهجيّةِ والتخطيط قبل التنفيذ. وفى هذا الصـدد يقـول (أحمد زويل): "الغربُ ليسُوا عباقرة ونحنُ أغبياء، هُم فقط يدعمُون الفاشِل حتّى ينجح، ونحنُ نحارِبُ النّاجِحَ حتّى يفشل!". وإلى هذهِ الفكرة ذهبَ الشيخ أحمـد ديـدات (رحمـه الله) بقولـهِ: "نحـنُ لَسْـنا مُتخلِّفينَ عنِ الغرب، ولكننّا مُتخلِّفون عنِ الإسلام؛ وما تخلّفْنا عنِ العالَم إلاّ بعد تفريطِنا فى دينِنا". هذا، بالإضافة إلى أن الوطن العـربىّ والكثـير مـن الـدول الإسـلاميّة أصـبحت خاضـعةٍ لأنظمـةٍ سياسـيّة غـير ديمقراطيّة، تدير الشعوب بناءً عـلى سياسـاتٍ فرديّـة، تضحّى بالمصـالح الشخصـيّة مـن أجـلِ مصـلحة الشعبِ ككلّ. وفى هذا الصدد أكّد الباحِث (هيثم مُراد) بقولهِ: إنّ كوريا كانـت دولـةً مُوحّـدة بشـعبٍ واحِد، انقسمت بعد الحربِ العالميّة الثانية إلى دولتَيْن، وشعبين، أساسهما شعبٌ واحِد، ولكن بـ(نظامَىْ حكم) مُختلفين تماماً: كوريا الشـماليّة يحكمهـا حكـمٌ عسـكرى قمعـىّ، وتعـيشُ فى غياهِـب التخلّـف، وتحت خطّ الفقر. أمّا كوريا الجنوبيّة، فيحكمها حكمٌ مـدنىّ حُـرّ، وتعـيشُ فى قِمّـة التقـدُّم والرفاهيـة، وتنتج (LG)، و( SAMSUNG)، و(KIA)، و(Hyundai)، و(Daewoo)، وغيرها. الفكرة هى أنّ شعبَ كوريا الشماليّة هو شعبُ كوريا الجنوبيّـة نفسـه، هـو الشـعبُ الكـوريّ الأصـلىّ قبـلَ التقسـيم، فهـما يتحدّثانِ لغةً واحِدة، ويتقاسمانِ ثقافةً واحِدة، ولكن الفارِق الرّهيـب الّـذى حصـلَ بـينَ البلـدينِ بعـد التقسيم سببه اختلافُ نظام الحكم بينهما. فالعيبُ فى أنظمةِ الحُكْم وليسَ فى الشـعُوب. العيـبَ لـيسَ فينا، إنما العيبُ فى الّذين يحكمُوننا!

هذهِ الفكرةُ التى نحنُ بصددِها، صاغها الفيلسُوف الفرنسىّ (هلفيتيوس) فى القرنِ الثـامِن عشـر، عندما قال: "إنّ التفاعُل بينَ المجتمعِ والسُلطة ذو اتجاهٍ واحِد. فالشّعْبُ لا يؤثرُ فى طبيعةِ السُلطة، وإنّما تؤثرُ السُلطةُ فى خصائِصِ الشّعْبِ، وأخلاقِه. واسْتَنْتَجَ مِنْ ذلِكَ أنّ السُلطةَ مسؤولةٌ عن مساوئ الشّعْب، كما أنّها مسؤولةٌ عن محاسنه.. فالسُلطةُ التى تقومُ على الابتزاز، ويتمتّعُ أقطابُها بامتيازاتٍ استثنائيّة، لا بُدّ وأن تخلّفَ جهازاً مُرتشياً. والسُلطةُ التى تتعاملُ مع الشّعْبِ بطريقةٍ فاشية، فإنّ جهازَهـا لا بُـدّ وأنْ

يكون فاشياً، سواء بتشكيلاتهِ، أو بالنزعةِ التى تُسيطِرُ على أفرادِه(٩٤). ولذلك، فإن وجدْتَّ بينَ النّاسِ فضائِلَ شاعَتْ، أو رذائِلَ ومعايب تفشّت وذاعَتْ، ففتِّشْ عنِ الحكُومة، ودقِّقْ فيما تقولُ وتفعل. حتماً ستجدُ ذلِكَ الحبلَ السريَّ الّذى يربطُ فيما بينَ الاثنين، حتّى ليُخيَّل إليكَ أنّك بإزاءِ نهرٍ واحِد: السُلطةُ منبعه، والنّاسُ مصبّه(٩٥). وقد تقولُ - مع مَنْ قالَ - بأنّ المحكومينَ مرآةُ الحاكمين، وأنّ النّاسَ بأُمرائِهم أشبه منهم بآبائِهم فى التمثّل والتلقّى والتقليد(٩٦).

وفى (تاريخ الطبرى)، أنّه لما حملَ الجندىّ إلى عمر بن الخطّاب سيف كسرى وجواهره، بعد هزيمتهِ أمام جيشِ المسلمين، فإنّ أميرَ المؤمنين قال: "إنّ قوماً أدّوا هذا لذوو أمانة". فعقّب علىّ بنُ أبى طالِب، مُوجّهاً كلامَه إلى عُمر، قائِلاً: "إنّكَ عففت، فعفّتِ الرعيةُ".

وهذا (ابنُ الأثير)، يُسجِّلُ فى موسوعته التاريخيّة (الكامِل فى التاريخ): كان الوليدُ بن عبدالملك (الخليفةُ الأُموىّ) صاحِبَ بناء، واتخاذ المصانِع والضياع، فكان النّاسُ يلتقون فى زمانه، فيسألُ بعضهم بعضاً عنِ البناء. وكان سُليمان بن عبدالملك صاحِب طعامٍ ونِكاح. فكان النّاسُ يسألُ بعضُهم بعضاً عنِ النِّكاحِ والطّعام. وكان عمر بن عبدالعزيز صاحِبَ عبادة، فكان النّاسُ يسألُ بعضهم بعضاً عنِ الخبر: ما وردُك اللّيلة، وكَمْ تحفظُ مِنَ القرآن، وكَمْ تصومُ مِنَ الشّهر؟

**غياب المنهجية العلميّة الاستراتيجيّة فى الأنظمة التعليميّة**

المنهجيّة: "هِىَ الطريقةُ التى يتبعُها الباحِثُ لدراسةِ موضُوعٍ معيّن، من أجلِ التوصُّلِ إلى نتائِجَ مُعيَّنة". و"هى الإطارُ المنطقىُّ الذى تترتّبُ فى ضوئِهِ الأفكار". وتتمثّلُ المنهجيّة فى البحثِ عن أيْسَرِ الطّرق من أجلِ الوصُولِ إلى المعلُومة، مع توفير الجهدِ والوقت. و(المنهجُ العلمىُّ): "هُوَ الأساسُ الّذى ينطلِقُ منهُ الباحِثُ فى بحثِهِ؛ لحلِّ المشكلة، أو نقدِها، أو إدراك الحقيقة، واختبار صِحّتها".

وهناك حقيقة منطقيّة تؤكّد أنّك "إذا لَمْ تَكُنْ تعرفُ إلى أينَ أنتَ ذاهِب، فكُلُّ الطّرُقِ ستأخذُكَ إلى هُناك(٩٧). فليسَ مُهِمّاً أنْ تسألَ عنِ الطّريق، إنْ كُنْتَ لا تعرفُ إلى أينَ تتّجِهُ بالضّبط.. فكُلُّ الطّرُقِ تؤدِّى إلى اللاهدف!" فما تعانى منهُ جامعاتنا هو "مشكلةُ المنهج، والمنهجيّة، وتحديد الخطّة، وهى ليستْ مشكلةً صغيرة.

ولكننا بدلاً من ذلك أصبحنا مُولعين بغيرنا، والمغلوب - حسب تعبير ابن خلدون - مولعٌ دائِماً بالغالِب، فلولا غلبة لسانِ الغالب، لما تكالبنا على مائدةِ لسانه، وتهافتنا على اصطلاحاتهِ! والدليل أننا تركنا المئات من كلماتِنا القوميّة، وأصبحنا نلتقطُ هنا أو هناك الكلمات اللاتينيّة، كي نتشبّع بالحضارة، وكأنّ الحضارةَ هِىَ كلماتٌ نستعملها، أو عباراتٌ نتحاشى إطلاقها. ولا زلنا نتذكّر قصيدة (هوامِش على دفتر النّكسة) التى جاء فيها: **السرُّ فى مأساتنا.. صُراخنا أضخمُ من أصواتِنا، وسيفُنا أطولُ من قاماتِنا.. خُلاصةُ القضيّة.. توجزُ فى عبارةْ.. لَقَدْ لبسْنا قشرة الحضارةْ.. والروحُ جاهليّة..** حقاً أصبحنا مجرّد صراخ يصمّ الآذان، وصيحاتٌ تخرقُ الجُدران، ولكننا فى النهاية مجرّد ظاهرة صوتيّة بتعبير عبدالله القصيمى، أو صيحةٌ فى واد أو نفخةٌ فى رماد.. فكم من الكلمات التى انطلقت من حناجرنا، لكنها فارغة من مضامينها. نعم: ورُبّ وامتعصماهُ لامستْ أسماعَنا، لكنّها لم تلامِسْ نخوة المعتصم!

وإذا ما أراد أحدُهم أن يَفِرَّ بجلدهِ إلى دُوَلِ العالَمِ المتقدِّم، لكي يحظى بالعِلْمِ والمعرفةِ، والأمن والاستقرار، فضلاً عن سدِّ جوعته، وصَوْن كرامته، باعُوا عليهِ شعاراتِ الوطنيّة، ورفَعُوا فى أُذنيهِ هُتافاتِ القوميّة، ونعتُوه باللاوطنيّة، ووصمُوه بالخيانة، مع أنهُ لا يجدُ فى أرضِ أجدادهِ، وترابِ آبائهِ، قطعةَ أرضٍ تأويهِ، أو راتبٍ محترَمٍ يكفيهِ! فما الجدوى إذاً من الوطنيّة التى لا تطعمنى خبزاً، ولا تمنحنى أرضاً. فالوطنيّة شعارٌ جميلٌ لمن باعُوا الوطن بثمن بخس دراهِم معدودات. وقد حقّ مَنْ قال: "عندما تُصبح الوطنيّة (مصدرَ دخلٍ) جيِّد، حينها يكثر الوطنيُّون! وقد تساءلَ الكاتِب الصحفىّ روبرت فيسك Robert Fisk([٩٨]): "لماذا تبدو بيوتُ العربِ غاية فى النظافة، لكنّ شوارِعَهُمْ والأماكِن العامّة تملؤُها القاذورات؟! هذا الأمرُ فى غاية الدقّة.. والسببُ أنَّ العربَ يشعرُون أنّهم يمتلِكُون منازِلَهُمْ، ولكنَّهُمْ لا يمتلِكُون أوطانهم". لهذا، "يَشُدُّ الشَرْقِىُّ حقائِبَهُ باتِّجاهِ الغرب؛ لَيَرْتاحَ مِنْ جَهْلِ العاطِفة، ويستفيدَ مِنْ ثمارِ العِلْمِ والمعرِفة، ويَشُدُّ الغربىُّ حقائِبَهُ باتِّجاهِ الشَرْق؛ لِيَرْتاحَ مِنْ عناءِ العَقْل، ويتمتَّعُ بسِحْرِ العاطِفة. فإلى متى يُصبِح الشرقىُّ حالِماً، والغربىُّ عالِماً؟!!

وما أجملَ ما عبّر به الفيلسوف الإسبانى (خوسيه أورتيغا) بقولهِ: إنّ الوطنيّة الحقّة ليستِ المحافظة على أرضِ آبائنا، بقَدْرِ ما هِىَ حمايةُ أرضِ أولادِنا مِنَ اللّصُوص المفسدين والعُملاء الخونة! ولهذا قيل: إنّ السياسىَّ سيفعلُ أىَّ شىءٍ للحِفاظِ على وظيفتهِ، حتّى لو اضطرّ لأنْ يُصبِحَ وطنيّاً! ألستُم معى إذاً، فى الحكمةِ التى تقُول: "الوطنُ للأغنياء، والوطنيّةُ للفقراء"! فَهُناكَ أُناسٌ سَمِعُوا أنّ الوطنَ غالٍ فباعُوه! و"عندما يُدرِكُ النّاسُ أنّ الدولةَ تُدار لحسابِ نُخبةٍ، وليسَ لحسابِ أُمّة، يُصبِح الفردُ غير قَادرٍ على التضحية مِنْ أجلِ الوطن، وينصرِفُ ليبحثَ عن مصلحته الخاصّة"([٩٩]). هذا، وقد أكّد الدكتور (على الوردى) أنَّه "طيلَةَ مكوثى فى أمريكا لَمْ أسْمَعْ أحداً يتفوّهُ بدعوى حُبِّ الوَطَنْ، أو وجُوبِ التضحيةِ فى سبيلهِ. إنّهُمْ ينسون الوطنَ فى أقوالِهم، ويخدمُونه فى أعمالِهم!". فالسياسةَ كما يقولُ (مالِك بن نبى) هِىَ ليستْ ما يُقال، بَلْ ما يُنْجَز! فعلينا إذاً، أنْ نُنْجِزَ ما نقولُه، وأنْ نقولَ ما يُمكِن إنجازُه، وأنْ نُكافئَ النّاسَ على إنجازاتِهم، لا على أقوالِهم، حتّى نحقِّقَ نهضتَنا الواعِدة، ونُدَشِّنَ حضارتَنا الرّائِدة!❐

**الهوامش:**

١- تعود هذهِ المقولة الشهيرة إلى الزعيم الألمانى أدولف ألويس هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥م)، وقد ولد فى النمسا، وكان زعيم حزب العمال الألمانى الاشتراكى الوطنى، والمعروف باسم الحزب النازى (مؤسس النازية). حكم ألمانيا فى الفترة ما بين عامى ١٩٣٣ و١٩٤٥م، حيث شغل منصب مُستشار الدولة.

٢- صعود وسقوط التخطيط الاستراتيجى، هنرى منتزبرج، فى كيف تكتب خطة استراتيجيّة، للدكتور طارق محمّد السويدان، والدكتور محمّد أكرم العدلونى، ط(١)، قرطبة للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربيّة السعوديّة، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص١٨.

٣- لمحات من فنِ القيادة، ج.كورتوا، تعريب: الهيثم الأيوبى، ط(٢)، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص٣٥- ٣٧.

٤- مقولة شهيرة للسياسى الأمريكي البارز جويل باركر.

٥- ينظر بتصرّف: أزمة التعليم فى عالمنا المعاصر، فيليب كومبز، ترجمة: أحمد خيرى كاظم، والدكتور جابر عبدالحميد جابر، (د.ط)، دار النهضة العربية، القاهرة - مصر، (د.ت)، ص٢٢٤.
٦- ينظر بتصرف: أزمة التعليم فى العالم العربى ومخاطرها على مستقبل الأمة، د.طارق سويدان، المدير العام لمؤسسة الإبداع الأمريكي، الجزيرة، فى ٢٠٠١/٠٢/٢١م.
٧- "Nothing is particularly hard if you divide it into small jobs".
٨- ينظر بتصرّف: أزمة التعليم فى عالمنا المعاصر: ٢٢٤.
٩- ينظر أيضاً بتصرف: أزمة التعليم فى العالم العربى ومخاطرها على مستقبل الأمة.
١٠- أزمة التعليم فى عالمنا المعاصر: ١٠٦.
١١- م.ن: ١٤٩.
١٢- م.ن: ١٤٨.
١٣- مقدمة ابن خلدون، حقّق نصوصه، وخرّج أحاديثه، وعلّق عليه: عبدالله محمّد الدرويش، ط(١)، دار يعرب، دمشق - سورية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ١/ ٢٨٣.
١٤- ينظر موقع أخبارك: www.akhbarak.net
١٥- مجتمع النخبة، د.بُرهان غليون، ط(١)، معهد الإنماء العربيّ، بيروت - لبنان، ١٩٨٦م، ص٢٥٦.
١٦- دراسات وشؤون جامعية، خالد محمّد خالد، ط(١)، منشورات دار روشنبير للطبع والنشـر، العراق - سليمانية، ١٩٩٨م، ص٣٨.
١٧- ينظر بتصرف: دراسات وشؤون جامعية: ٣٨.
١٨- كيف صنعنا القرن العشرين؟، روجيه غارودى، دار الشروق، ط(١)، القاهرة - مصر، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص١١١.
١٩- رواه مسلم.
٢٠- التدين المنقوص، فهمى هويدى، ط(١)، دار الشروق، القاهرة - مصر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص٤١.
٢١- مقولة شهيرة للمفكر الفرنسى جان بول سارتر.
٢٢- فن القراءة، ألبرتو مانغويل، تر: جولان حاجى، ط(١)، دار الساقى، بيروت - لبنان، ٢٠١٦م، ص٣٤٨.
٢٣- " Since The beginning of creation, man has never refrained from committing any folly he is capable of" رحيق العمر، جلال أمين، ط(٢) دار الشروق، القاهرة - مصر، ٢٠١٠م، ص١٧٣.
٢٤- فن القراءة: ٣٥٧.
٢٥- العولمة وإعادة صياغة العالَم.
٢٦- كيف صنعنا القرن العشرين؟: ١٢٧- ١٢٨.
٢٧- الأمة المشلولة.. تشريح الانحطاط العربيّ، محيى الدّين صبحى، ط(١)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٩٧م، ص٦٠.
٢٨- م.ن: ٦٣.
٢٩- م.ن: ٦٣- ٦٤.
٣٠- الأستاذ شمس الدين.
٣١- تهافت التهافت.. انتصاراً للروح العلميّة وتأسيساً لأخلاقيات الحوار، سلسلة التراث الفلسفى العربى، مؤلفات ابن رشد (٣)، مع مدخل ومقدمة تحليليّة وشروح للمشرف على المشروع الدكتور محمّد عابد الجابرى، ط(٢)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ٢٠٠١م، ص١٩.
٣٢- فن القراءة: ٢١٩- ٢٢٠.

٣٣- محنة ثقافة مزوّرة.. صوت النّاس أم صوت الفقهاء، الصّادق النيهوم، ط(٢)، رياض الريس للكتب والنشـر، بيروت - لبنان، ١٩٩٦م، ص١٥٧.
٣٤- هذهِ المقولة الشهيرة تعود إلى كارل ماركس.
٣٥- ديفيد هيوم (١٧١١- ١٧٧٦)، فيلسوف ومؤرّخ اسكتلنديّ، مؤسِّس المذهب الظاهريّ فى الفلسفة، يعدُّ من أهمِّ فلاسفةِ عصرِهِ الذين مارسُوا تأثيراً على الفكرِ السياسيّ. من أهمِّ مؤلّفاتهِ (مقالاتٌ حولَ الفهم الإنسانىّ).
٣٦- الربح فوق الشعب.. الليبرالية الجديدة والنظام العولمى، نعوم تشومسكي، تر: مازن الحسينى، ط(١)، دار التنوير للترجمة والطباعة والنشر، رام الله - فلسطين، ٢٠٠٠م، ص٥٧.
٣٧- م.ن، ص٥٨- ٥٩.
٣٨- م.ن، ص٦٠.
٣٩- فن القراءة: ٣٣٣.
٤٠- م.ن: ٣٣٤.
٤١- م.ن: ٣٣٧.
٤٢- الربح فوق الشعب.. الليبرالية الجديدة والنظام العولمى، ص٦٠.
٤٣- م.ن: ٧٢.
٤٤- قصّة سنغافورة من العالَم الثالث إلى الأوّل، لى كوان يو، نقلهُ إلى العربيّة: مُعين الإمام، ط(٢)، مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص١٧٢.
٤٥- الإسلام فى الأسر.. مَنْ سرق الجامع وأين ذهب يوم الجمعة؟، الصّادق النيهوم، ط(٣)، رياض الريس للكتب والنشـر، بيروت - لبنان، ١٩٩٥م، ص٩٥.
٤٦- م.ن: ٩٨- ٩٩.
٤٧- م.ن: ٩٩.
٤٨- م.ن: ٩٩.
٤٩- م.ن: ٩٩- ١٠٠.
٥٠- م.ن: ١٠٠.
٥١- م.ن: ١٠٠.
٥٢- م.ن: ١٠٠.
٥٣- م.ن: ١٠٠.
٥٤- Keep in mind, one lie can ruin a thousand truths.
٥٥- The further a society drifts from truth the more it will hate those who speak it.
٥٦- مقولة شهيرة للمهاتما غاندى (١٨٦٩ - ١٩٤٨م)، السياسى البارز والزعيم الروحى للهند، خلال حركة استقلال الهند. كان رائداً لـ(الساتياغراها)، وهى مُقاومة الاستبداد من خلال العِصيان المدنى الشامل، التى تأسّست بقوّة عقب (أهمسا) أو اللاعنف الكامل، والّتى أدّت إلى استقلال الهند، وألهمتِ الكثير من حركات الحقُوق المدنيّة والحريّة فى جميع أنحاء العالَم. وغاندى معروف باسم المهاتما، وتعنى (الروح العظيمة).
٥٧- بول جوزيف غوبلز (١٨٩٧ - ١٩٤٥م) وزير الدعاية السياسية فى عهد أدولف هتلر وألمانيا النازية، وأحد أبرز أفراد حكومة هتلر، لقدراتِه الخطابية.
٥٨- مقولة شهيرة لأدولف ألويس هتلر.
٥٩- Fortunately for leaders that their people are unwilling to think. Adolf Hitler
٦٠- برتراند أرثر ويليام راسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠م) فيلسوف وعالم منطق ورياضى ومؤرِّخ وناقد اجتماعى بريطانى.
٦١- إريك فروم (١٩٠٠ - ١٩٨٠م) عالم نفس وفيلسوف إنسانى ألمانى أمريكي.

٦٢- If you don't control your mind, someone else will. (John Allston).
٦٣- If you don't use your mind, the others will drive it.
٦٤- If you don't program your mind it will be programmed by somebody else.
٦٥- ألبرت أينشتاين (١٨٧٩ - ١٩٥٥م) عالم فيزياء ألمانى المولد، أمريكي الجنسية.
٦٦- رالف والدو إمرسون (١٨٠٣- ١٨٨٢م) أديب وفيلسوف وشاعر أمريكي.
٦٧- من أقوالِ (جون ديفيس) (1787- ١٨٥٤م)، وهو سياسى أمريكي، والحاكم رقم ١٤ و ١٧ لولاية ماساشوستس الأمريكية.
٦٨- Some people may hate you for being different and not living by society's standards, but deep down they wish they had the courage to do the same.
٦٩- مقال العبوديّة الطوعيّة، إيتيان دو لا بويسى، تر: عبّود كاسوحة، ط(١)، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت - لبنان، ٢٠٠٨م، ص١٣٠.
٧٠- مقولةٌ شهيرة لرئيس وزراء سنغافورة الأسبق: لى كوان يو.
٧١- قصّة سنغافورة من العالَم الثالث إلى الأوّل: ٢١٢.
٧٢- م.ن: ٢١٢.
٧٣- م.ن: ٢١٢.
٧٤- Education is the most powerful weapon, which you can use to change the world.
٧٥- دراسات وشؤون جامعية: ٣٨.
٧٦- م.ن: ٤٤.
٧٧- عام قضيته فى العراق.. النضال لبناء غدٍ مرجو، السفير بول بريمر، تر: عمر الأيوبى، ط(١)، دار الكتاب العربى، بيروت - لبنان، ٢٠٠٦م، ص٢٠.
٧٨- عام قضيته فى العراق: ٣٠.
٧٩- مجتمع النخبة: ص٢٤٧.
٨٠- النص، السلطة، الحقيقة.. الفكر الدينى بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، د.نصر حامد أبو زيد، ط(١)، المركز الثقافى العربى، بيروت - لبنان، ١٩٩٥م، ص٦٦.
٨١- كيف صنعنا القرن العشرين؟: ١١٨.
٨٢- ينظر بتصرّف: مجتمع النخبة، ص٢٤٠.
٨٣- دراسات وشؤون جامعية: ٤٩.
٨٤- م.ن: ٥٠.
٨٥- م.ن: ٢٨.
٨٦- صموئيل زويمر (١٨٦٧م- ١٩٥٢م) مُبشِّر أمريكي، رئيس بعثات التّبشير فى المشـرق، حرّر مجلة (العالم الإسلامى)، والّتى عُرِفَتْ بعدائِها السّافِر للإسلامِ والمسلمين.
٨٧- الغارة على العالَم الإسلامى، أ.ل.شاتليه، لخّصها ونقلها إلى العربيّة: مساعد اليافى، ومحبُّ الدين الخطيب، ط(٢)، منشورات العصر الحديث، جدة - المملكة العربيّة السعوديّة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، ص٨٠.
٨٨- قراءة علميّة للقراءات المعاصرة، للدكتور شوقى أبو خليل، ط(١)، دار الفكر، دمشق – سورية، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، ص٨- ٩.
٨٩- قلوبهم معنا وقنابلهم علينا، أحلام مستغانمى، ط(٣)، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ٢٠١٠م، ص٨.
٩٠- م.ن: ٥٣.

٩١- م.ن: ٥٣.
٩٢- م.ن: ٥٣- ٥٤.
٩٣- كورديل هل: هو شخصية سياسية أمريكية، ولد فى ٢ أكتوبر ١٨٧١ وتوفى فى ٢٣ جويلية ١٩٥٥. شغل منصب وزير الخارجية الأمريكي بين ١٩٣٣ و١٩٤٤م، وذلك خلال رئاسة فرانكلين روزفلت، ومدة خدمته هى الأطول بين وزراء الخارجية الأمريكيين. تحصّل سنة ١٩٤٥ على جائزة نوبل للسلام، وذلك لعمله على إنشاء منظمة الأمم المتحدة.
٩٤- فى السياسة الإسلامية، هادى العلوى، نقلاً عن التدين المنقوص، فهمى هويدى، ط(١)، دار الشروق، القاهرة – مصر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م: ٥٠.
٩٥- م.ن: ٥١.
٩٦- مقولة شهيرة للإمام على بن أبى طالِب (كرّم الله وجهه).
٩٧- مقولة رائعة تعود إلى (لويس كارول).
٩٨- روبرت فيسك (Robert Fisk) روبرت فيسك صحفى بريطانى ولد فى (١٢ يوليو ١٩٤٦) ويعملُ حالياً مراسِلاً خاصّاً لمنطقة الشرق الأوسط لصحيفة الأندبندنت البريطانية.
٩٩- مقولةٌ شهيرة للمفكر المصرىّ الدكتور عبدالوهاب المسيرى.

# □الإرساليات الكاثوليكية

□

# تأثيراتها الثقافية والاجتماعية على المجتمع الكوردستاني

**أ.د.فَرسَت مَرعى**

المقدمة

عندما فتح السلطان العثمانى (محمد الفاتح -١٤٥١-١٤٨١م) عام ١٤٥٣م مدينة (القسطنطينية)، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، ومقر الكنيسة الشرقية العالمية (الأرثوذكسية)، وقعت على عاتق (الفاتح) مهمة صعبة، وهى إرساء العلاقات المقبلة - منذ البداية - بين المسلمين الفاتحين، وبين أتباع الكنيسة الشرقية، الذين كانوا غريبين عن العثمانيين فى الدين واللغة والعادات والتقاليد. وقد استند السلطان فى هذا الأمر على تعاليم القرآن الكريم، وسنّة المصطفى (عليه الصلاة والسلام)، التى توصى بمنح الحرية الدينية لأهل الكتاب (اليهود النصارى)، والمحافظة على ممتلكاتهم، شرط أن يمنحوا ولاءهم للدولة الإسلامية، من ناحية، ويدفعوا الجزية، من ناحية أخرى. حيث يشير إلى هذه المسألة المستشرق البريطانى الشهير (هاملتون جب)، بقوله : "أما عن موقف العثمانيين الأوائل، من غير المسلمين، من سكان البلدان التى فتحوها قسراً، فيبدو وكأنه أبعد ما يكون عن الموقف الإسلامى المعروف، بل إنه - وهذا من الغرابة بمكان - أشبه ما يكون بموقف المسلمين الأوائل عند فتحهم بلاد الشام، إذ عاملوا الكفار من أهل البلاد المفتوحة بانفتاح ذهنى لم يتوفر عند من جاء بعدهم من المسلمين"(١).

وكان للأرثوذكس بطريركية رئيسية مسكونية فى العاصمة العثمانية (استنبول)، وثلاثة بطريركيات أخرى، تجرى طقوسها باللغة السلافية، فلم يكن بينها وبين الأرثوذكسية اليونانية أي خلاف عقائدى، ولكنها نشأت وقامت نتيجة حركات كان بعضها قومياً، وبعضها الآخر أسروياً، ولذلك صارت مركزاً للمشاعر القومية. ولهذا عندما تهيأت الفرصة للسلطان (محمد الفاتح) لتقرير سياسة ثابتة تجاه الكنيسة الأرثوذكسية، بصورة عامة، وضع جميع رعاياها - دون استثناء- تحت سلطة البطريركية المسكونية فى (استنبول). وفى الوقت نفسه عيّن السلطان (جينياديوس سكولاريوس) لمنصب بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية، الذى كان شاغراً منذ مدة طويلة، وقدّم له بيده العصا والبينة والخاتم، وبذلك التزم السلطان المسلم بكل المراسيم التى كانت تتبع فى مثل هذه الحالات فى عهد الأباطرة البيزنطيين، ورقىّ البطريرك (جينياديوس) إلى باشا ذوى الأطواغ الثلاثى، ومنحه لقب (ملت باشى)، أى: رئيس طائفة، وتسلّم (براءت)، وهى وثيقة سلطانية تفوّضه حكم المسيحيين كافة، دون رقيب تقريباً(٢).

لم يكن السلطان العثمانى على دراية بالاختلافات والمنازعات العقائدية واللاهوتية، التى كانت تجرى بين الطوائف والكنائس المسيحية، لذا أراد - فى بداية الأمر - أن يخضع كل مسيحيى الدولة العثمانية، دون تفريق، لزعامة البطريرك الأرثوذكسى- اليونانى. وكان مطران الأرمن (يواكيم) أول من خرج على هذه القاعدة، فقد استطاع - أثناء وجوده مع السلطان (محمد الفاتح) فى مدينة (بورصة) - أن يكسب وده، بعد انتقاله مع حاشية السلطان إلى العاصمة (استنبول).. استطاع رئس الطائفة الأرمنية أن يحصل على اعتراف من السلطان بمساواته مع البطريرك اليونانى، فعيّن هذا الآخر بلقب (ملت باش)، أو رئيس لجميع المسيحيين غير السلاف.

كما استطاعت الطائفة اليهودية، التى وضعت مع المسيحيين غير السلاف تحت وصاية البطريرك الأرمنى، أن تتحرر من تلك الوصاية، وتمّ تعيين المدعو (موسى كاسبالى) بمنصب (حاخام باشى)، ومنحه سلطة مشابهة لسلطة البطريرك الأرثوذكسى على أبناء دينه فى الدولة، بل إن الحاخام الأكبر منح الأسبقية على البطريرك فى المراسم، وكان، فى مقامه - فى بعض الروايات- يأتى بعد رئيس العلماء (المسلمين) مباشرة(٣).

**كنيسة روما والكنائس الشرقية:**

لقد اتصلت أوربا بالمسلمين لأول مرة منذ الحروب الصليبية، أو حملات الفرنجة، كما يحلو للبعض تسميتها (كأن التسمية تغيّر من نوعيّتها)(٤)، غير أن تلك العلاقات كانت بعيدة عن السلم، فى حقيقة الأمر. ويذكر أحد الباحثين الروس بهذا الصدد قوله: "اعتاد العالم المسيحى النظر إلى المسلمين نظراته إلى أعدائه الألداء، ولم يتورع الباباوات، ملهمى حملة الصليب، عن استخدام كل الوسائل المتوفرة لهم لتأجيج هذا الحقد، ولم يترددوا حتى فى اتخاذ إجراءات من أمثال منع أىّ علاقة تجارية مع المسلمين، مهدّدين المخالفين بالحرمان من الكنيسة، وبفرض غرامة عليهم تعادل قيمة كل البضائع التى صدّروها إلى ديار الإسلام"(٥).

والحال أن الحياة الدينية والتطور الثقافى لدى الطوائف المسيحية الشرقية، سيرتبطان مباشرة بالتاريخ الدينى للغرب المسيحى، وذلك بسبب ارتباط مصالح الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أولا، والكنائس البروتستانية لاحقاً، بالطوائف المسيحية الشرقية. بمعنى آخر، فإن مصير الكنائس

الشرقية غدا فى بعض الحالات متّصلاً اتصالاً مباشراً ووثيقاً بالعمل الذى يقوم به مرسلو الكنائس الغربية (المبشّرون = المنصّرون) على أرض الشرق.

فوحدة الكنائس، فى ظل سلطة البابا، وطبقاً لعقيدة الكنيسة الرومانية، وطقسها، كانت الشغل الشاغل والدائم للسياسة البابوية حيال المسيحيين الشرقيين(٦).

هذا ما جرى التأكيد عليه فى مقررات مجمع فيرارى- فلورنسا(١٤٣٨-١٤٤١م)، واعتباره المرجعية الأساسية فى تشكيل العلاقات ما بين الجانبين. غير أن الظروف السياسية التى كانت سائدة آنذاك لم تكن مؤاتية، لذا أصاب هذه العلاقات المزيد من التدهور، فانعقد مجمع فى القسطنطينية عام ١٤٨٤م، وقرّر أن مجمع فلورنسا باطل، فلم تجد البطريركيات الثلاثة الأخرى (أورشليم القدس – والأسكندرية والقسطنطينية)، وكذلك الكنيسة الروسية، أىّ صعوبة فى الموافقة على القرار، لكن الدوائر البابوية الرومانية لم تيأس جراء ذلك، ولم تحد عن الخط الذى رسمته.

**العثمانيون ومنح الامتيازات للكاثوليك**

بعد أن تمكن السلطان العثمانى سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) من ضمّ غالبية البلاد العربية إلى رقعة الدولة العثمانية، فإنه اصطدم بواقع جديد هو وجود طوائف مسيحية أخرى غير أرثوذكسية، مثل الأقباط فى مصر، والسريان فى الشام، والنساطرة (= الآثوريون – الآشوريون) فى العراق وكوردستان.. لذا بدا - لأول وهلة- بأن على الدولة أن تفكّر فى إيجاد آليات جديدة للتعامل مع هذه الكنائس المسيحية غير الخلقدونية، التى تعتبرها الأرثوذكسية كنائس هرطقية، أىْ أصحاب بدعة. وبعد الوفاة السريعة للسلطان سليم، حلّ ابنه فى الحكم، وهو السلطان سليمان، الذى يطلق عليه المؤرخون عدة ألقاب وصفات منها: العظيم، والقانونى، وهو الذى وافق - دون تردّد- على عقد حلف دفاعى وهجومى مع الملك الفرنسى (فرانسو الأول)، حيث كان الأخير قد دخل فى صراع غير متكافئ مع الملك الإسبانى (شارل الخامس)، الذى استطاع أن يوحّد نصف أوروبا تحت سيطرته، واستطاع أن يلحق الهزيمة بخصمه (فرانسو الأول)فى معركة (بافيام)، وأسره، وألقاه فى السجن(٩).

ودخل هذا الحلف فى التاريخ تحت اسم (حلف الزئبق المدّنس مع الهلال) - كما يسمّيه خصوم فرانسو الأول السياسيون- وأثار عاصفة شديدة من الغضب فى أوروبا. لذلك تحت هذا الضغط من الهجوم، وهذه الاتهامات، قرّر فرنسوا الأول أن يزكّى نفسه أمام العالم المسيحى ويتخذ دور المدافع عن المسيحيين فى ممتلكات السلطان، وهكذا استطاع المبعوث الرسمى للملك الفرنسى فى سنة ١٥٣٥م، أن يحصل من السلطان سليمان القانونى على أول وثيقة مكتوبة، كانت فاتحة لما يسمّى بـ(الامتيازات)(Capitulation) .. إن كبرياء وغطرسة السلاطين العثمانيين، الذين كانوا آنذاك فى أوج قوتهم - على حدّ تعبير أحد المؤرخين الأوروبيين- لم تكن تسمح لهم بأن يربطوا أنفسهم بالتزامات ثنائية مع الكفار، لذا فإن الوثيقة المذكورة لم تكن على شكل معاهدة، وإنما كانت عبارة عن مرسوم سلطانى، منح (فرنسا) حقوقاً وأفضليات معينة فى الإمبراطورية العثمانية. ومن هذه الحقوق:

إقامة المحاكم القومية. حرية التجارة. حرية الدين، وممارسة الشعائر الدينية، على أن يشمل هذا الحق جميع رجال الدين الذين يعتنقون المذهب (الفرنسى)، مهما كانت القومية التى يتنمون إليها. حرية التجارة للأمم الأوروبية الأخرى، ولكن تحت العلم الفرنسى فقط.

وإذا كانت فرنسا فى مقدمة الدول الأوربية التى منحت لها هذه الامتيازات، فإن بقية الدول، لا سيّما العظمى منها، حصلت هى الأخرى، وفى فترات مختلفة، على امتيازات مشابهة، واتسمت خلال فترة انحطاط الدولة العثمانية بكونها امتيازات مذلّة للعثمانيين، وأصبحت تشكّل مصدر نفوذ للدول الغربية الطامعة بها، وسبباً فى اشتداد انحدار دولتهم، ثم سقوطها.

وهكذا ظلّت فرنسا المحامى الوحيد لرعايا السلطان الكاثوليك حتى مؤتمر باريس ١٨٥٦م، الذى طرحت فيه أول مرة قضية تدّخل الدول بصورة جماعية لصالح الرعايا المسيحيين فى الدولة العثمانية، ثم دخل هذا المبدأ فى الممارسة الدولية نهائياً عن طريق مؤتمر برلين (١٨٧٨م)، الذى ساوى بين الدول الكاثوليكية والبروتستانتية فى حقوق الحماية الدينية(١٢).

**وصول الإرساليات الكاثوليكية إلى كوردستان:**

لقد كان للقرارات التى أصدرها المجمع التريدانيتنى (١٥٤٥-١٥٦٣م)، وقوة شخصية بعض البابا‌وات، كالبابا (كريكورى الثامن -١٥٧٢-١٥٨٥م)، وإنشاء الرهبانية اليسوعية (١٥٤٠م)، وتأسيس البابا كريكورى لمجمع التبشير بالإيمان (**The Collge for the propagation of he Faith**) ، من قبل الكنيسة الكاثوليكية عام ١٦٢٢م، الذى اشتهر فى التاريخ الكنسى باسم(Propaganda) ، فضلاً عن الامتيازات التى منحتها الدولة العثمانية لفرنسا، وإنشاء مدارس متخصصة فى (روما)، مخصّصة للطلاب الشرقيين، وتأليف الكتب الدينية الكاثوليكية، ونقلها إلى لغات الشعوب المسيحية فى مختلف المناطق (كاليونانية والعربية والقبطية والسريانية والأرمنية والكوردية)، أثرها فى التعليم، والتبشير(= التنصير)؛ ناهيك عن أساليب متعدّدة لا تمّت إلى هذه الأمور بصلة، كالدسائس والسعايات والتدّخل فى شؤون الكنائس الداخلية، واستخدام النفوذ الأجنبى أو العثمانى، كل هذا بغية إحداث انقلاب فى الأوضاع يكون لغير مصلحة كبار الأحبار المشاكسين، على حدّ تعبير الباحث الكنسى الفرنسى(أستيرويوس أرجيريو).

ولكن من جانب آخر، أتى هذا العمل (إرسال المرسلين إلى الشرق)، مفيداً للطوائف المسيحية الخاضعة للعثمانيين، والمفتقرة إلى الوسائل الضرورية لتأمين تنشئه ثقافية ودينية وروحية. فلقد ساهم -إذن- المرسلون، بطريقتهم، فى إعادة إذكاء الإيمان المسيحى لدى المسيحيين، ورفع المستوى الروحى عندهم، إلى جانب التطوّر الثقافى؛ فكان صنيعهم هذا يقابل بالشكر والامتنان، كلما أدوه بتبصّر ورقّة، وبكثير من العداء وردّات الفعل العنيفة، والمواقف المناهضة، والاتهامات بشقّ وحدة الكنيسة، والتدخل فى شؤونها، إذا كان تحرّك هؤلاء المرسلين ناجماً عن هوى وتعصب ورغبة تبشيرية عمياء.(١٣)

لذا بدأت الإرساليات الكاثوليكية تتوافد على منطقة الشرق الأدنى، ومن ضمنها كوردستان، فوصل اليسوعيون والفرنسيسكان والأوغسطينيون والكبوشيون واللعازريون والدومنيكان.

وبخصوص (كوردستان) يذكر أحد الباحثين الدومنيكان قوله-:

فى سنة (١٥٥١م) قامت ردّه فعل على عادة ذميمة، شقّت طريقها عام ١٤٨٠م عند (النساطرة)، وهى تسليم البطريركية بالوراثة من العم إلى ابن أخيه، فرفض ثلاثة أساقفة، وبعض

المؤمنين، البطريرك الوارث المعيّن، واجتمعوا فى (الموصل)، واختاروا مكانه رئيس دير الربان هرمز (سولاقا)، وهو الذى يميل إلى الاتحاد مع روما، فذهب البطريرك الجديد، يرافقه وفد من الموالين له، إلى القدس، ثم إلى روما، حيث وصلوها فى ١٥ تشرين الثانى ١٥٥٢م. وفى ٢٠ شباط من سنة ١٥٥٣م أعلن (سولاقا) إيمانه الكاثوليكي، فسلّمه البابا (جوليانس الثالث) درع البطريركية فى ٢٨ نيسان ١٥٥٣م، وعاد أول البطاركة الكلدان إلى الشرق، برفقة اثنين من الرهبان الدومنيكان المالطيين: (أمبروسيوس بودجاج)، و(أنطونيوس زهرة)، الذى أصبح فيما بعد مطراناً. واتخذ البطريرك اسم شمعون، وجعل مقرّه فى مدينة آمد(= دياربكر)، حيث وصل إليها فى ١٢ تشرين الثانى ١٥٥٣م.

وما كاد البطريرك الجديد يرسم خمسة مطارين، حتى وشى به خصمه (شمعون الثامن دنخا-١٥٥١-١٥٥٨م)، بطريرك (القوش) النسطورى، فسجنه باشا العمادية(=أمير العمادية – بهدينان) مدّة، ثم قتل فيما بعد فى كانون الثانى سنة١٥٥٥م فى إحدى البحيرات الواقعة جنوب شرقى مدينة العمادية، بالقرب من دير مار ساوه (= قرية ديرش- منطقة برى كاره).

غير أن باحثاً آخر، يأتى بوجهة نظر أخرى، متّهماً فيها الكنيسة الكاثوليكية بزعامة روما، بأنها بدأت محاولاتها لشقّ كنيسة المشرق فى أواسط القرن السادس عشر، تزامناً مع بداية ظهور الحملات الاستعمارية القديمة، أى إنه بعبارة أخرى يربط التبشير المسيحى بالاستعمار، حيث يستند إلى قول للكاردينال الكاثوليكي (أوجين تيسران)، إذ يقول: "أوائل البعثات التبشيرية صاحبت الحملات الاستعمارية البرتغالية والإسبانية."

وبخصوص حادثة المطران (سولاقا)، فإنه يتّهم روما مباشرة بأنها قامت بهذا العمل لإكمال مشروع تقسيم كنيسة المشرق، وأن طلائعها من المبشرين الفرنسيسكان استطاعت إغواء الراهب المذكور (سولاقا)، رغم معرفتهم بأن بطريرك كنيسة المشرق حىّ يرزق، وأن كنيسة المشرق قد بلغ بها الضعف مبلغاً كبيراً، بعد المجازر التى لحقت بها على يد المغول وتيمورلنك. لذلك فإن المبشرين الكاثوليك لمسوا بأنفسهم مقدار ضعفها عندما لم يستطيعوا إيجاد ثلاثة مطارنة محليين لسيامة (سولاقا) بطريركاً خاضعاً لهم، فكان أن نقلوه إلى روما. ورغم تنصيبه من قبل البابا، فإن الخط التى جاهدت روما لخلقه، ظل ضعيفاً وهزيلاً، وانتهى كالوميض.

ومما تجدر الإشارة إليه، إن الإرساليات اللاتينية استطاعت إقناع قسم من السريان الشرقيين (النساطرة) اللاجئين إلى جزيرة قبرص، بالاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية، فأقرّ أسقفهم (طيمثاوس) إيمانه الكاثوليكي بين يدى (اندراوس)، رئيس أساقفة رودس الدومنيكي، وكان على إثرها اعترف البابا (أوجيس الرابع) (١٤٣٩-١٤٤٧م) بالفريق الجديد، مطلقاً عليهم اسم (الكلدان)، تذكيراً بكلدو القديمة فى جنوب العراق، حيث أسس كرسى (مار مارى)، على حدّ تعبيرالمستشرق الفرنسى (جان موريس فييه).

**الإرسالية الكبوشية:**

**أولاً:** وفى سنة ١٦٣٦م تأسست رسالة كبوشية فى الموصل، لجذب النساطرة إلى كنيسة روما. وسرعان ما أفلحت هذه الرسالة فى تكوين نواة كاثوليكية فى الموصل. وتمكن الكبوشيون من إقناع الجاثليق (مار إيليا التاسع) بإرسال صورة إيمانه إلى البابا (أنوجنسيوس العاشر-١٦٤٤-

١٦٦٠م) سنة ١٦٥٧م، طالباً من قداسته الوحدة، مع الإبقاء على طقوس وصلوات كنيسته، وطالباً لطائفته إقامة كنيسة في روما(١٧).

ومن جانب آخر، فإن مجمع بروبغندا (مجمع التبشير بالإيمان، في روما) قد أرسل سنة ١٦٦٣م مرسلين من رهبانيات مختلفة إلى بلاد الشرق، ومن بينهم رسالة الكبوشيين إلى آمد (دياربكر) وماردين.

وقد نشر الأباتي (شموئيل جميل التلكيفي)، رئيس الرهبانية الهرمزدية، في كتابه المطبوع باللغة الإيطالية، والموسوم: (العلاقات بين الكرسي الرسولي والسريان المشارقة، أيْ الكنيسة الكلدانية)، قسماً من المراسلات التي كانت تجرى بين كنيسة روما وبين المرسلين وجثالقة كنيسة المشرق. وهناك شيء ملفت للنظر، وهو أن الأباتي (شموئيل جميل التلكيفي) ذكر في إحدى الرسائل التي نشرها، نقلاً من الملفات العائدة لكلية (بروبغندا) في روما، معلومات مهمة عن المدعو (بطرس جيسى)، الملقب بالفارسي، وهو كوردي من والدين مسلمين من أهالي العمادية، وقد دخل في المسيحية، حيث تذكر سجل حوليات كلية بروبغندا، في المجلد الأول لمجموعة الوثائق لسنة ١٦٣٣-١٧٥٣، ما يأتي: "إن بطرس جيسى- الفارسي، من مدينة العمادية، قبل في الكلية (بروبغندا)، في ١٧ آب عام١٦٤٧م، وله من العمر آنذاك ما يقارب ٢٤ سنة، وذلك بترشيح من قبل الكاردينال (بربرينو)، وبقرار المجمع في ٣ حزيران من نفس السنة، وهو من والدين مسلمين، وادّعى أنه مدعو من الله أن يأتي إلى روما ليصبح مسيحياً سنة ١٦٤١م. وفي ٧ أيلول١٦٤٢م عمّده المونسيور(سكنا رولا ) في كنيسة (سيدة الجبال)، وكان أشبينه السيد التقي (الكونت جيسى الفرنسي)، ابن سفير الملك (الفرنسي) في القسطنطينية (= استنبول).

رجع الأب (بطرس جيسى)، بعد رسامته الكهنوتية، إلى بلاده (كوردستان)، وعمل كثيراً في الرسالات والمواعظ، وخصوصاً في مدينة آمد (دياربكر)، حيث يبدو أن مجيئه إلى مسقط رأسه في العمادية ربما سيثير مشاكل، كانت الكنيسة آنذاك في غنى عنها. مهما يكن من أمر، فإنه كان غيوراً على نشر الإيمان الكاثوليكي، والدفاع عنه ضد النساطرة(= الآشوريون الحاليون)، الذين كانوا لا يزالون هم الأكثر بين أتباع كنيسة المشرق(١٩).

مكث الأب (بطرس جيسى) عدة سنوات في (آمد)، ثم ذهب إلى قصبة (القوش)، شمال شرقيّ مدينة الموصل، للقاء البطريرك (مار إيليا الثامن -١٦١٧-١٦٦٠م)، الذى سرّ بقدومه، ورآه غيوراً، عالى الإيمان، ويكنّ محبة عميقة للكنسية، ووحدتها مع جميع الكنائس، وخصوصاً كنيسة روما، التى عاش بها فترة، وتعلّم اللغة الإيطالية، وتعرّف على المسؤولين في الدوائر الرومانية، لذا اختاره للذهاب إلى روما برفقة اثنين، وهما: الأب (مرقس)، والشمّاس (طيمثاوس)، لاطلاع المسؤولين في روما على حالة المسيحين في بلاد الشرق، وتحديداً كوردستان. وقد كتب البطريرك رسالة بهذا الخصوص إلى مجمع التبشير بالإيمان (البروبغندا)، جاء فيها: "أرسل إلى روما عندكم تلميذكم الأب بطرس جيسى، فإنّا أجبناه لأنه تلميذكم، ونرجو أن يكون وسيطاً بيننا وبينكم، وهو مطّلع على كتبنا، وعارف جيداً نظام طقوسنا التى نقوم بها يومياً. أرجو منكم أن لا تعتمدوا على كل من يقول لكم إنه مرسل من قبلنا، ولكنه بالواقع ليس كذلك". وفي تعقيب على هذه الرسالة يقول الأب (بطا الكبوشي)، مسؤول رسالة الكبوشيين في الموصل، في رسالته إلى مجمع (البروبغندا): "إن البطريرك أرسل الأب بطرس جيسى مع شخصين آخرين، وهو يعرف اللغة، لكي يرى ماذا يمكن القيام به لمجد الله وخلاص نفوس كثيرة"(٢٠).

بخصوص ما تبقى من حياة بطرس جيسى الفارسى العمادى، فإن حوليات البروبغندا تشير فقط إلى أنه استشهد فى الحبشة (= أثيوبيا) من أجل الإيمان الكاثوليكي، بدون تحديد السنة.

يبدو أن بطرس جيسى العمادى أصبح ضحية نشر الكاثوليكية فى بلاد الحبشة، الذين كانوا يتبعون الطقس السريانى الأرثوذكسى. ففى سنة ١٦٢٢م نجح الرهبان اليسوعيون فى حمل إمبراطور الحبشة (سوسانيوس) على التنّصر، واستحصلوا من البابا أمراً على تعيين بطريرك لاتينى على الحبشة. لكن الجهود المفرطة التى بذلوها فى سبيل ليتنة الحبشة (أىْ: جعلها لاتينية)، تسببت - بعد حوالى عشر سنوات - بردود فعل عنيفة. فخليفة (سوسيانوسفاسيلادوس-١٦٣٢-١٦٦٧) أمر بقتل وطرد كل المرسلين، وقطع العلاقات مع روما. وهكذا أصبح الأب بطرس الكوردى العمادى، الذى كان مسلماً، ضحية لنشر الكثلكة فى الحبشة؛ البعيدة جداً عن وطنه كوردستان، حيث قام الكهنة الأرثوذكس بالهجوم عليه بالرماح، ورجموه بالحجارة التى تكدّست على جثمانه، فمات حبّاً بالمسيح سنة ١٦٨٠م، حسب رواية البروبغندا(٢١).

**ثانياً: الرسالة الدومنيكية:**

عندما فشل مسيحيو الموصل، من الكاثوليك، فى إعادة فتح الإرسالية الكبوشية، التى غادرت الموصل عام ١٧٢٤م، التمس القس (خضر الكلدانى)، الموصلى المقيم فى روما آنذاك، هرباً من بطريرك النساطرة، من البابا (بندكتس الرابع عش ) بفتح دار لهم فى هذه المدينة. وبعد تردّد طلب البابا من الدومنيكان تجديد نشاطهم فى بلاد ما بين النهرين وكوردستان، فتأسّست الرسالة فى عام ١٧٤٨م. وفى ١٧كانون الثانى عام ١٧٥٠م، وصل المرسلان الإيطاليان: (فرنسيس طوريانى - Tarriani)وعبدالأحد كوديلنشينى)، وأضيف إليهما - بصورة مؤقتة- الكرملى لياندرو للقديسة بسيسيليا، لمعرفته اللغة العربية والأماكن. وعملت هذه الرسالة فى ظروف متباينة حتى سنة ١٨١٥م، حيث تركت ردحاً من الزمن، ثم استبعدت سنة ١٨٤٠م، وتغيّر المرسلون سنة ١٨٥٩م من إيطاليين إلى فرنسيين(٢٢).

وقد استعان هذان المرسلان بمهمتهما الطبية، فنالا النجاح فى مهمتهما الدينية، لا سيمّا وأنهم تمتعوا بتأييد كاثوليك الموصل. ولما بلغ الخبر مسامع (بهرام باشا الأول بن سعيد خان بك الثانى)، أمير بهدينان(١٧١٤-١٧٦٨م)، وكان مريضاً، أرسل فى طلب الأب الطبيب (فرنسيس توريانى) لمعالجته، فلما نجح الأخير فى مهمته، سمح الأمير بهرام بفتح فرع للإرسالية الدومنيكانية فى العمادية، فى سنة ١٧٥٩م(٢٣).

وبعد وفاة الأب (عبدالأحد كوديليو)، تولى الأب (ايبولود والين)، الحاذق فى الأمور الهندسية، إضافة إلى الطب، احترام الأمير بهرام باشا، حيث منح الدومنيكان دير (كنيسة عبد يشوع)، فى قرية (ديرى)، الواقعة على بعد عدة كيلومترات شمال شرقى العمادية. كما أن الأمير حثّ النساطرة (= الآشوريون الحاليون)، السكان الأصليين للمنطقة، على اعتناق المذهب الكاثوليكي. وقد توفى الأب (والين) فى زاخو سنة ١٧٧٥م، ودفن فيها، وهو المرسل الأول إلى العمادية.

وفى سنة ١٨٤٠م، بعد عودة الإرسالية الدومنيكانية إلى كوردستان، قام الأب (اسكا فهوسر)، وزميله (أوغسطين)، بفتح فرع للإرسالية فى دير ماريا قو (= قرية قشفر)، الواقعة شمال غرب دهوك سنة ١٨٤١م، وبنوا فيها كنيسة. وفى سنة ١٩٤٢م بنوا مدرسة فيها، أصبحت مركز إشعاع فكرى فى المنطقة بأجمعها، فكان يقصدها طلاب من القرى المسيحية، مثل: آرادن، ومانكيش،

وبيرسفى، وآشيشا، وفيشخابور، وبيدار. كما تمّ بناء قسم داخلى لإيواء الطلاب القادمين من القرى البعيدة، وكان للدير مكتبة كبيرة تضم آلاف الكتب. وفضلاً عن ذلك، فإن الدير كان يستقبل المرضى من أبناء المنطقة، من كافة الأديان، مجاناً.. وقد أغلقت هذه الإرسالية سنة ١٩٦١م، بعيد اندلاع الثورة الكوردية التى قادها ملا مصطفى البارزانى(٢٥).

**تأثير الإرسالية الدومنيكانية على البنية الاجتماعية والفكرية للمجتمع الكوردستانى:**

لقد ساهمت هذه الإرسالية كثيراً فى التعريف بكوردستان، وسكانها، لأن المرسلين الذين عملوا هناك وضعوا تآليف ذات فوائد كبيرة.

وقد اختار من بينهم الآباء: لانزا، وماوريتزيو غارتزين، الذى وضع أول قواعد ورسم باللغة الكوردية، فى روما سنة ١٧٨٧م، واعترف فيها لأول مرة بأصالة اللغة الكوردية على أساس علمى، بحيث إن مؤلفه استحق لقب (أب الكوردية)

The pipherKardish gram maroan Padre dellacourdologia

كما دعى بـ(رائد القواعد الكوردية).

ويلاحظ الباحث الإيطالى (بريدارىPredari ) أنه لم يفكر أحد قبله، بين العلماء الأوروبيين المستشرقين، باللغة الكوردية. كما أن المعجم الذى ألّفه فى السنوات ١٧٦٤- ١٧٧٥م، يشتمل على ٤٦٠٠ لفظة، وتدخل فيه عناصر القواعد الكوردية وفق نهج تقريبى(٢٦).

ويميّز المؤلف فى اللغة الكوردية خمس لهجات، وفق الإمارات الكوردية: كاراجولان (قه لا جولان)، العمادية، جوله ميرك، الجزيرة (جزيرة بوتان)، تبليس. وهو يستخدم فى معجمه لغة العمادية، لأنه عاش فترة طويلة فيها، وهو المرسل الثانى فيها بعد (سولدينى)، فضلاً عن ذلك فإنه يعتبر لهجة العمادية هى الأكثر نقاءً (٢٧).

كما لا يمكن نسيان مؤلفات (كمبانيلى Campanile)، وغيره، الذين وصفوا فى مؤلفاتهم، بشكل مفصل، لغة المجتمع الكوردى، والبنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتركوا وثائق ثمينة لتفهّم المجتمع الكوردى، فضلاً عن ملاحظات وانطباعات حول عادات وتقاليد الديانات السائدة فى كوردستان؛ من إسلامية ومسيحية ويهودية ويزيدية وغيرها.

وقد وصف الكنسىّ العراقى (يوسف حبى) عمل هؤلاء الرهبان، بقوله: " إنهم كانوا يرسمون عادة النواحى السلبية والغريبة للمجتمع الكوردى، كما كانت تبدو فى أعينهم، بينما كان الرحالة، من العلمانيين وذوى الأفكار التحررية، أمثال: ديلا فالى ددى بيانكى Della Valle De Biahchi، يقيّمون النواحى الإيجابية والخصوصيات المهمة، وذلك بكل اهتمام، مع تقبّل لما عليه الأكراد، دون محاولة تغيير أو تشويه فى مجرى حياتهم، أو المساس بالأسس الخلقية والثقافية والاجتماعية التى يرتكز عليها مجتمعهم(٢٨)❐

## المصادر والمراجع والهوامش:


1- المجتمع الإسلامى والغرب، ترجمة: عبد المجيد القيسى، دار المدى، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٧،ج ص ٢٤٣-٢٤٤.
2- الكسندر آداموف، ولاية البصرة فى ماضيها وحاضرها، ترجمة: الدكتور هاشم صالح التكريتى، منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة، الطبعة الأولى – ١٤٢٠هـ،١٩٨٢ ص ١٨٥ -١٨٦.
3- هاملتون جيب وهارولدبوين، المجتمع الإسلامى والغرب، ح٢ص ٢٥١.
4- نقولا زيادة، المسيحية و العرب، قدمس للنشر والتوزيع دمشق ،الطبعة الثانية ٢٠٠م-ص٢١٠.
5- الكسندر آداموف، المرجع السابق، ص ١٨٧.
6- استيريوس ارجيريو، المسيحيون فى العصر العثمانى الأول (١٥١٧-١٦٥٠)، ضمن كتاب: المسيحية عبر تاريخها فى الشرق، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٢ ، ص٦١٨.
7- برنار هيبر جيه، تطور الكثلكة فى الشرق، ضمن كتاب: المسيحية عبر تاريخها فى الشرق، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٢، ص ٦٤٩.
8- هاملتون جب، المرجع السابق، ص ٢٦٣.
9- عبدالعزيز نوار، تاريخ العراق الحديث، ص ٢٨٣.
10- الكسندر اداموف، المرجع السابق، ص ١٨٩-١٩٠.
11- عبدالعزيز نوار، تاريخ العراق الحديث، ص ٢٨٣.
12- استير يوس أرجير يو، المسيحيون فى العصر العثمانى الأول، ص ٦١٩-٦٢٠.
13- المرجع نفسه، ص ٦٢٠.
14- جان موريس فييه، الكنيسة السريانية الشرقية، نقله إلى العربية: الأب كميل حشيمه اليسوعى، دار المشرق بيروت، ص ٣٠ -٣١.
15- هرمز أبونا، الآشوريون بعد سقوط نينوى- صفحات من تاريخ الكنيسة الكلدانية، كاليفورنيا، ص ٧٦-٧٨، والغريب أن الكاردينال تيسران لم يشر إلى الاستعمار فى الصفحة التى أشار إليها السيد أبونا.
16- الكنيسة السريانية الشرقية، ص ٣٠ .
17- القس بطرس نصرى الكلدانى، كتاب ذخيرة الأذهان، الموصل، دير الآباء الدومنيكان، ١٩١٣ ، ج٢، ص ٣٤.
18- المطران عمانوئيل دلى، مبادرات الاتحاد بين بطاركة بابل ورد فى القرن السابع عشر، مجلة نجم المشرق، العدد ٢٧،٢٠٠١ ، ص ٣٤٩. نقلاً عن وثائق مجمع البروبغندا لسنة ١٦٧٢.
19- المرجع نفسة ،ص٣٤٩- ٣٥٠ .
20- المرجع نفسه ص ٣٥٠.
21- المطران عمانوئيل دلى، مبادرات الاتحاد بين بطاركة بابل وروما فى القرن السابع عشر، القسم السادس، مجلة نجم المشرق، العدد ٢٨ فى ٢٠٠١ ، ص٤٨٦ – ٤٩٣.
22- استريوس ارجير يو، المرجع السابق ، ص ٦٢١ -٦٢٢ .
23- تيسران، خلاصة تاريخية الكنسية الكلدانية، نقلها إلى العربية القس سليمان الضائع، الموصل، ١٩٣٩،ص١٨٧-١٨٠.
24- م. إبراهيم، الدومنيكان – نشأتهم – إرسالياتهم ودورهم الإنسانى والثقافى والعلمى فى العراق، مجلة الصوت الكلدنى، العدد ٤، سنة ١٩٩٩ ،ص ٤٥-٤٦.
25- المرجع نفسه ، ص ٤٦ -٤٧ .
26- جميل برنادوس، دير قرية مار ياقو، مجلة الصوت الكلدانى، العدد ٢ ، سنة ١٩٩٨، ص ١٢-١٣.
27- يوسف حبى، التراث الكوردى فى مؤلفات الإيطاليين، مجلة المجمع العلمى العراقى- الهيئة الكوردية، العدد الثامن، سنة ١٩٨١ ، ص ٢٤٠ ،٢٧٤.
28- المرجع نفسه، ص ٢٦٧-٢٧٧.
29- المرجع نفسه ،ص ٢٤٠ -٢٤١ .

# التعددية السياسية والحزبية من منظور إسلامي

## – القسم الأول –

**سالم الحاج**

المقدمة

يمرّ العالم الإسلامى، والأمّة الإسلامية، بأكبر تحدّ تواجهه فى تاريخها، وها قد مضى أكثر من قرنين من الزمان منذ أن استفاق العالم الإسلامى على وقع سنابك خيل (نابليون)، وهى تدّك (الأزهر الشريف).. ومنذ ذلك الحين والعالم الإسلامى كله يخوض معركة البقاء والنهضة والتنمية، ولكن دون أن يستطيع حتى الآن امتلاك زمام المبادرة والنهوض الحضارى.

وقد عانى الفكر الإسلامى، وهو البنية الفكرية لهذه الأمّة، من آثار هذه الأزمة، أو لعلّه كان جزءاً منها، فلم يستطع أن يكون فى مستوى التحدى، ليدفع بالأمّة فى طريق النهوض.. ولكن ذلك لا يعنى اتهام المصلحين والمفكرين والحركات الإسلامية بالتقاعس والتقصير، فهم قد أدّوا

جهدهم، وحاولوا أن يخوضوا المعركة بكل أبعادها، غير أن أغلال التخلّف، وتحـديات (الآخـر)، لا تزال تاركة آثارها.

ولعل ميدان (الفكر السياسى الإسلامى) كان أحد الميادين البارزة، التى شـهدت تلكـؤاً وتبـاطؤاً واضحاً فى النمو والاستجابة لتحديات العصر.. فمع أن رواد الإصلاح والنهضـة فى العـالم الإسـلامى هم الذين قـادوا ( الأمّـة ) فى ميـادين الجهـاد ضـد الاسـتعمار، وفى ميـادين التجديـد والاجتهـاد والفكر، ولكن التطورات التى حدثت ما بين الحـربين العـالميتين؛ مـن سـقوط الخلافـة الإسـلامية، ونشوء الدويلات القطرية فى العالمين الإسلامى والعربى، والتبعية السياسية والاقتصادية والثقافيـة التى ظلت تعيشها هذه الأمّة تجاه (الغرب)، كل ذلك أحدث انقطاعاً فى مسيرة الإصلاح والنهضة الإسـلامية، حيـث اجتاحـت موجـة (التغريـب) الأمّـة الإسـلامية، وكلّفتهـا الكثـير مـن الخسـائر والتضحيات، ومزيداً من التخلّف.

ومع هذا، فقد ظل رجال الفكر والدعوة فى العالم الإسلامى والعربى يقاومون هـذه التحـديات، ويصارعونها، متخذين فى ذلك كافة الوسائل والسبل، بما فى ذلـك خـوض غـمار العمـل السـياسى، والنقابى، والاجتماعى، وسائر الميادين الأخـرى (الاقتصـادية، والثقافيـة، ... إلـخ).. ولا يـزال عالمنـا الإسلامى يعيش هذه المرحلة من الصراع بـين (الفكـرة الإسـلامية) و(الفكـرة الغربيـة)، رغـم أن (الصحوة الإسلامية)، اليوم، قد عمّت العالم الإسـلامى جميعـه، مـن أقصـاه إلى أقصـاه، ورغـم أن هناك أكثر من (دولة) تُحكم مـن قبـل تيـارات أو تجمّعـات إسـلامية، وتحـاول أن تقـدّم نفسـها نموذجـاً لدولـة إسـلامية عصـــرية، كـما أن (الحركـات الإسـلامية)، فى كثـير مـن الـدول العربيـة والإسلامية، قد أصبحت فى مقدمة القوى السياسية المؤثرة والفاعلة فيها..

ومن هنا تأتى أهمية وحساسـية مثـل هـذا الموضـوع الـذى نطرقـه هنـا، موضـوع (التعدديـة السياسية والحزبية)، فحيث أن الفكر الإسلامى مطالب بأن يقدّم الحلول للمشكلات التى تواجـه المجتمع، وأن يواكب تطورات الحياة والأحداث، مجتهداً ومجدّداً وموجّهاً، ومـا دامـت الحركـات والأحزاب والجماعات الإسلامية هى (طرف سياسى) فى الدول الإسلامية الموجودة اليـوم، لـذا فـإن من الواجب عليها أن تقوم باستكشاف مواقعها ومواقـع الآخـرين، وتقـدم الأجوبـة والحلـول لمـا يطرأ من مستجدات ومشكلات.

وهكـذا، فقـد قمنـا فى هـذا البحـث بتتبـع موقـف المفكـرين والحركـات الإسـلامية فى قضـية التعدديـة السياسـية والحزبيـة، آخـذين فى الاعتبـار المواقـف المناهضـة والمؤيـدة لهـا، وذلـك فى (المبحث الأول)، الذى جعلناه (مطلبين)، خصصنا الأول مـنهما لأدلـة الفريـق الـرافض للتعدديـة السياسية والحزبية، بينما خصصنا (المطلب الثانى) لأدلـة الفريـق الآخـر المؤيـدة للتعدديـة، مـع التمهيد لذلك ببحث مفهوم (الحزب)، ومسألة (الحزبية) فى فكر المسلمين..

أما (المبحث الثانى) فقد تناول الموقف من وجود وتشكيل (الأحزاب غير الإسلامية) فى النظام الإسلامى، وتطرق إلى بيان اتجاهات الفكر الإسلامى تجاه هذه المسألة، وذلك فى ثلاث نقاط، وكما يلى:

1- الفريق الذى يرى أنها تعددية إسلامية حصراً .
2- الفريق الذى يرى أنها تعددية إسلامية مشروطة .
3- الفريق الذى يرى أنها تعددية مطلقة .

ثم أنهى البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التى انتهى إليها البحث..

ولا بد من الإشارة هنا إلى قلّة المصادر التى تبحث فى هذا الموضوع من منظور إسلامى، على أهمية الموضوع، والحاجة العلمية إليه.. فباستثناء كتاب (د. صلاح الصاوى)، الموسوم بـ (التعددية السياسية فى الدولة الإسلامية)، الذى يتناول الموضوع بصورة وافية، لا نجد مصدراً آخر ذا بال فى هذا الميدان.. مع الإشارة بالطبع إلى الكتاب القيم للأستاذ (راشد الغنوشى)، الذى عرض فيه للموضوع بشكل جيد، وكتاب الباحث (زكي الميلاد): الوحدة والتعددية والحوار فى الخطاب الإسلامى المعاصر، وفتوى الشيخ (يوسف القرضاوى)، ومصادر أخرى قليلة..

نأمل أن نكون بهذا الجهد المتواضع، قد تمكنّا من إلقاء الضوء على قضية (التعددية السياسية والحزبية) من خلال الرؤية الإسلامية، والله الموفق، وهو الهادى إلى كل خير.

## المبحث الأول

### التعددية السياسية والحزبية عند المسلمين:

مع أن (التعدّد)، فى المنظور الإسلامى، هو سُنّة كونية، وأن (الوحدة) التى " لا تركّب فيها، ولا تعدد لها، مقصورة على الذات الإلهية وحدها"(١).. ومع أن المسلمين الأوائل قد استوعبوا ذلك على مستوى الفهم والممارسة، فكانت الحضارة الإسلامية نموذجاً للحضارة الإنسانية المتعددة الأعراق والمذاهب والأديان، ولم تضق ذرعاً باختلاف الآراء والمذاهب والفرق.. فإن من الواضح أن مصطلحات مثل (التعددية)، و(التعددية السياسية والحزبية)، هى مصطلحات لم تعرف، ولم تتداول، عند المسلمين، إلا حديثاً.. ورغم أنه لا يعلم على وجه الدقة متى ومن أول من استعمل هذا المصطلح عند المسلمين فى العصر الحديث، إلا أنه أصبح الآن متداولاً فى الكتابات الإسلامية، مع وجود اختلاف واضح فى المواقف تجاهه من قبل المسلمين.. بل إن مصطلحاً حديثاً آخر، ملازماً له، مثل (الحزب)، أو (الحزبية)، ورغم أنه قد جاء ذكره فى أكثر من آية قرآنية، فقد اختلف المسلمون حوله هو الآخر، فذهب بعضهم إلى أن المسلمين الأوائل عرفوا (الظاهرة الحزبية)، وشكّلوا (الأحزاب السياسية)، وإنْ سمّوها بأسماء أخرى(٢)، فى حين أنكر البعض الآخر

ذلك قائلين: إن (الحزبية) أمر منبوذ فى الإسلام، وإن (التحزب) محرّم ومخالف للإسلام(٣)، وهكذا..

ولأن مسألة (التعددية السياسية والحزبية) لا يستقيم الكلام عنها دون التطرق إلى مفهوم (الحزب)، فإننا سنعمد أولاً إلى الحديث عن هذا المفهوم، ثم نعرض للاختلاف الواقع بين المسلمين فى شأن جواز، أو حرمة، تشكيل الأحزاب السياسية، ثم نأتى بعدها إلى عرض مواقف الإسلاميين من مسألة (التعددية السياسية والحزبية)..

**أولاً : ( الحزب ) لغة واصطلاحاً:**

جاء فى (لسان العرب): "الحزب: جماعة الناس. والجمع: أحزاب. والأحزاب: جنود الكفار، تألّبوا وتظاهروا على حرب النبى صلى الله عليه وسلم... والحزب: الطائفة. والأحزاب: الطوائف التى تجتمع على محاربة الأنبياء عليهم السلام"(٤).

وفى (القاموس المحيط) أن "الحزب: الطائفة... وجماعة الناس، والأحزابُ جَمْعُهُ، وجَمعٌ كانوا تألّبوا وتظاهروا على حرب النبى (صلى الله عليه وسلم)، وجُنْدُ الرّجُل، وأصحَابُهُ الذين هم على رأيه... وحَازَبُوا وتَحَزَّبُوا: صاروا أحزاباً"(٥).

وتتفق المصادر القديمة على هذا المعنى لكلمة (الحزب)، كما أنها تتفق على تفسير كلمة (الأحزاب) بالجموع التى اجتمعت على حرب النبى (صلى الله عليه وسلم)، من قريش وغيرها.. ولكن السؤال هنا هو : لماذا هذا الإصرار على الربط بين كلمة (الأحزاب)، وبين الواقع التاريخى الذى استعملت فيه لأول مرة؟ ولماذا لا ينظر إلى معنى الكلمة بصورة مجردة، وبمعزل عن الواقعة التاريخية ؟ "لماذا لا نقول عنهم: إنهم جماعات من الناس، بعيداً عن أىّ دلالات خارجة عن اللغة، ومن غير أى ارتباط بالحدث التاريخى الذى حصل على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين اتفق الكفار على محاربته"(٦).

ولعلّ ما يفسر ذلك هو ورود هذه الصيغة فى القرآن الكريم فى معرض الذم دائماً ، حيث نجد أن هذه الكلمة (الأحزاب) قد وردت فى القرآن الكريم للدلالة على معانى الاختلاف والفرقة والاجتماع على الباطل:

قال تعالى: {فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ} سورة مريم : ١٩/ ٣٧ ،

وقال تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ} سورة الأحزاب : ٢٣/ ٢٢ ،

وقال تعالى: { وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ } سورة هود : ١١/ ١٧ ، وغيرها من الآيات..

وقد اعتمد الفريق الذى يرفض (الحزبية) مطلقاً، على مثل هذه الآيات للتدليل على مطلبه.. ومن الجدير بالذكر أن كلمة (حزب) قد وردت فى (عشرين) موضعاً، فى (١٢٣) سورة، (ثمان) منها وردت بصيغة المفرد، وواحد بصيغة المثنى، وأحد عشر مرة بصيغة الجمع(٧).

أما (الحزب) فى المعنى الاصطلاحى الحديث، فهو "كل تجمع لأشخاص يعتنقون نفس النظرية السياسية، ويحاولون وضعها موضع الاعتبار والتقدير، عن طريق التحالف مع أكبر عدد ممكن من المواطنين، ثم التوصل إلى السلطة، أو على الأقل التأثير على قراراتها(٨). ويرى بعض علماء القانون الدستورى أن من الصعوبة إعطاء تعريف موحّد جامع للحزب، "نظراً لاختلاف العقيدة والمقاصد لكل حزب، وتنوّع الأدوار التى تقوم بها"(٩).

ويعرّف (د. محمد عمارة) (الحزب) بأنه: "كل طائفة أو جماعة جمعهم الاتجاه إلى غرض واحد، سياسياً كان ذلك الغرض، بالدرجة الأولى، أو غير سياسى.."(١٠)، ثم يقول: وغلب – فى الحديث والمعاصر – إطلاق مصطلح الحزب على التنظيم الذى يجمع جماعة من الأفراد، تشترك فى تصوّر واحد لبعض المسائل السياسية، وتكوّن رأياً انتخابياً واحداً"(١١).

ومن هذه التعريفات نجد أن (الحزب)، فى الاصطلاح، يكاد يقتصر على الشأن السياسى.. فالغرض السياسى، وهو (الوصول إلى السلطة)، أو ( التأثير فى قرارتها )، أو (تكوين رأى انتخابى واحد)، هو الغاية أو الغرض البارز من وراء (تجمّع) أناس داخل (إطار تنظيمى)، واعتناق نفس المبادئ والأفكار التى يقوم عليها (الحزب)..

ومن هنا، يرى البعض أن (الحزب)، فى المفهوم الغربى، إذا كان يعبّر عن دلالات سياسية، بصورة رئيسية، فإن دلالاته الرئيسية – " ترتبط بالدعوة، والتبليغ، والأمر بالمعروف، والنهىّ عن المنكر، والدلالات السياسية هى أحد هذه الدلالات لا غير"(١٢).

**ثانياً : الحزبية فى فكر المسلمين:**

قلنا إن المسلمين اختلفوا فى شأن العمل الحزبى، وتشكيل الأحزاب، فذهب البعض إلى حرمة تشكيلها أصلاً، فى حين يرى آخرون جواز ذلك، بل ووجوبه..

ومن المعلوم أن موضوع العمل الحزبى، أو المعارضة السياسية، هو موضوع حديث، لم يطرقه فقهاء المسلمين قبل منتصف القرن الرابع عشر الهجرى، أىْ بعد أن بدأت الجماعات والأحزاب الإسلامية فى الظهور، رغم أن المجتمع الإسلامى – حسبما يرى البعض – قد عرف "الانقسام والتعددية السياسية المنظّمة، منذ معركة صفين"، حيث "نشأت تيارات كبرى، تقوم كل منها على رؤية للدين والتاريخ ودور الإنسان والموقف من السلطة والثورة، وكان أهمها الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة"(١٣).

ويرى (الشيخ الغنوشى) أن "مباشرة العمل السياسى، من خلال انتشار الأحزاب السياسية، وإعداد البرامج لها "(١٤)، بدأت منذ الجيل الثانى من رواد الإصلاح والنهضة (جيل الأفغانى، ومحمد عبده، ورشيد رضا، والكواكبى)، ويشير - على وجه الخصوص - إلى تجربة الأفغانى، ومحمد عبده.. فهذا (رفاعة الطهطاوى) ( ١٨٠١-١٨٧٣ ) يقول: "الحرية الدينية هى حرية العقيدة والرأى والمذهب، بشرط ألا تخرج عن أصل الدين، كآراء الأشاعرة، والماتريدية، وآراء أرباب المذاهب المجتهدين فى الفروع، ومثل ذلك حرية المذاهب السياسية"(١٥)، وكأنه يؤصّل مبدأ التعدّدية السياسية، قياساً على تعدّدية المذاهب.. "أما الكواكبى ( ١٨٥٤ – ١٩٢٠ ) فينوّه بما أنجزه الغرب من تطور على مستوى تنظيم الدولة، حتى إن انقسام الأحزاب لم يضعف الدولة الغربية، لأن الاختلاف بين الأحزاب إنما هو فى وجه تطبيق القواعد على الفروع والنصوص الخصوصية"(١٦).

ويعلّق (خير الدين التونسى) الآمال على تأسيس (التنظيمات) الغربية على أسس إسلامية، ويرى أن (الأمّة) إذا أذكيت حريتها بتنظيمات مضبوطة، ساعدها ذلك على التدّخل فى أمور السياسة، "وكان سيرها فى طريق التمدن أسرع من غيرها، وأمكن الحدّ من حكم الاستبداد"(١٧).

فمثل هذه النصوص تدل على أن هؤلاء الرواد لم يروا فى إنشاء الأحزاب السياسية بأساً، بل على العكس رأوا فيه طريقاً من طرق الإصلاح، وسبيلاً للحد من الاستبداد..

ولكن (الجيل الثالث) من رواد الإصلاح والحركة الإسلامية سجّل ما يمكن اعتباره تراجعاً فى الموقف تجاه قضية (الحزبية)، ويتجلى ذلك فى موقف الإمام (حسن البنا) (١٩٠٦-١٩٤٩) – مؤسس كبرى الحركات الإسلامية فى العصر الحديث – الذى اشتهر عنه موقفه المعادى للأحزاب وللتعددية الحزبية.. ومع أن البعض برّر هذا الموقف بأنه لم يكن ضد (الحزبية) بإطلاق، وإنما كان ضد "واقع الأحزاب، وانحراف بعضها، وارتباطها بالإنكليز، وإفسادها للنفوس"(١٨). فإن آخرين، ومنهم (حركة الاتجاه الإسلامى) فى (تونس)، على لسان زعيمها (راشد الغنوشى)، و(د.عبدالله النفيسى)، فى كتابه (الحركة الإسلامية: ثغرات فى الطريق)، وغيرهم، انتقدوا هذا الموقف، واعتبروه (خطأ سياسياً شنيعاً)، جعل الجماعة "غير قادرة، حتى الآن، على تأسيس شبكة متوازنة، ومستقرة، لعلاقاتها مع الأطراف السياسية الأخرى، فى السوح العربية والإسلامية"(١٩).

ويقترب موقف (أبو الأعلى المودودى) (١٩٠٣- ١٩٧٩) – مؤسس الجماعة الإسلامية فى باكستان – من موقف (حسن البنا)، فى رفضه للحزبية وتشكيل الأحزاب، ويتّفق معه كذلك فى النزول إلى ميدان (السياسة)، وتشكيل (جماعة منظمة)، تمارس العمل السياسى، وتخوض الانتخابات مع غيرها.. وهو ما يدفع إلى التساؤل عن السر فى مثل هذا التناقض بين ذلك الموقف، وتلك الممارسة: فهل "هو من قبيل الاعتراف بالأمر الواقع، دون أن يعنى ذلك ضرورة الاعتراف بمشروعيته؟!"(٢٠).

ويجيب الأستاذ (راشد الغنوشى) على ذلك بقوله: "ولكن، على فرض صحة هذا التأويل، هل تجيزه الأخلاق الإسلامية؟ لا نرى لذلك وجهاً "(٢١).

وقد نشأت بين المسلمين اتجاهات رافضة للعمل الحزبى، مستندة فى ذلك إلى واقع التجزئة الذى تحدثه (الأحزاب) فى جسم (الأمّة)، وإلى عدد من آيات القرآن الكريم، وبعض الأحاديث الشريفة، التى يرى هؤلاء أنها تحرّم على المسلمين القيام بإنشاء أحزاب سياسية.. ومن هؤلاء (صفى الرحمن المبار كفورى) الذى "قال بالتحريم، وأسهب فى ذلك مفصلاً: تحليلاً، وتدليلاً، وتعليلاً"(٢٢)، وذلك فى كتابه (الأحزاب السياسية فى الإسلام).. ومنهم (د. صبحى عبده سعيد)، الذى يرى أن نشأة الأحزاب – أو الفرق – عند المسلمين، إنما "جاءت ثمرة طبيعية لخروج المجتمع الإسلامى على أصول منهجه، ووقوع المسلمين بين أيدى حكام غير قادرين على ردّ كل أمر لصراط الله المستقيم بحزم لا يلين، أو فى أيدى حكام مارقين، فظهر التحزّب فى المجتمع كدليل على اعوجاجه"(٢٣).. ومن ثمّ فهو يرى أن المجتمعات الإسلامية اليوم لا تحتاج إلى (أحزاب)، وإنما هى "فى حاجة إلى تربية إسلامية، تعود بنا إلى وحدتنا كأمة واحدة، اجتمعت على آصرة العقيدة، ولا ترى لها راية غير راية الله، وحزب الله، بمنظوره الإلهى، ومفهومه الإيمانى"(٢٤).

ومنهم أيضاً المفكر الباكستانى (كليم صديقى)، وآخرين..

ولن يتسع المجال - بالطبع - لعرض أدلة هذا الفريق فيما ذهب إليه، وردود الفريق المقابل عليه، خاصة وأننا فى حديثنا عن (التعددية السياسية الحزبية) سنعرض لأدلة الرافضين لها، وهى تقترب فى مجملها وروحها من الأدلة التى يستند عليها هذا الفريق!

وأخيراً، فإن مما تجدر الإشارة إليه أن هذا الفريق الداعى إلى نبذ الحزبية، والقائل بحرمة تشكيل (الأحزاب)، هو فى تناقض وضعف، وهو ما يؤكده أكثر من باحث وكاتب.. فهى تصورات "تعبّر عن مرحلة كانت شائكة ومضطربة فى التفكير الإسلامى، وتكاد تشارف على نهايتها، فما كان مرفوضاً فى السابق بشكل مطلق فى بعض الأمور، هو اليوم مرفوض بشكل نسبى"(٢٥).

وفى ختام هذه الجولة السريعة فى موقف الإسلاميين من (الحزبية)، لا يسعنا إلا أن نقول مع (د. محمد عمارة): إن مصطلح (الحزب)، فى الأصول الإسلامية – قرآناً وسنة-، وكذلك فى تجربة الدولة الإسلامية الأولى، على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ليس مرفوضاً لذاته، وبإطلاق، وليس مقبولاً لذاته، وبإطلاق.. وإنما معيار القبول لمصطلح الحزب، ومن ثمّ للتحزب، والتنظيم الحزبى من ثم، هو مضمون الأهداف والأغراض والمقاصد والمبادئ التى قام بها، وعليها، هذا الحزب(٢٦)..❐

**الهوامش:**

(١) التعددية، الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية، د. محمد عمارة، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م ص ٤ .
(٢) انظر : الحريات العامة فى الدولة الإسلامية، راشد الغنوشى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط١، ١٩٩٣ . ص ٢٥٠ .
(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٦.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقى المصرى، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ١٩٥٥. م٣، ص ٣٠٨ مادة (حزب).
(٥) القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥. فصل الحاء، مادة الحزب، ص ٧٣.
(٦) الفكر الإسلامى قراءات ومراجعات، زكي الميلاد ، مؤسسة الانتشار العربى ، بيروت ، ط١، ١٩٩٩م . ص١٤.
(٧) المصدر السابق ص١٦ .
(٨) الفكر الإسلامى، قراءات ومراجعات ، زكي الميلاد، مصدر سابق ، ص١٥
(٩) المصدر السابق، ص١٤.
(١٠) المصدر السابق، ص١٤.
(١١) معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، د. محمد عمارة، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ط)، ١٩٩٧. ص١٢٨.
(١٢) المصدر السابق .
(١٣) الفكر الإسلامى قراءات ومراجعات، زكي الميلاد، مصدر سابق، ص١٥.
(١٤) الحريات العامة فى الدولة الإسلامية، راشد الغنوشى، مصدر سابق، ص ٢٥٠. انظر أيضاً: حكم المعارضة وإقامة الأحزاب السياسية فى الإسلام، أحمد العوضى، دار النفائس، عمان – الأردن، ط١ ، ١٩٩٢ . ص٢١.
(١٥) الحريات العامة فى الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ص٢٥١ .
(١٦) المصدر السابق، ص٢٥١ .
(١٧) المصدر السابق، ص٢٥٢ .
(١٨) المصدر السابق ص٢٥٢ .
(١٩) الوحدة والتعددية والحوار فى الخطاب الإسلامى المعاصر، زكي الميلاد، مصدر سابق، ص١٤٢. انظر أيضاً: حكم المعارضة وإقامة الأحزاب السياسية فى الإسلام، أحمد العوضى، (مصدر سابق) ص٢٣، حيث يرى الكاتب أن الإمام (البنا) إنما قصد بذلك: "تحريم إقامة أحزاب سياسية غير إسلامية فى الدولة الإسلامية، وليس فى كلامه ما يدلّ على أنه يرى تحريم إقامة أحزاب سياسية إسلامية فى الدولة الإسلامية". وهذا فى الحقيقة تحميل لكلام الإمام البنا ما لا يحتمله، وهو ما لم يفهمه ( الإخوان ) من كلام زعيمهم، وما لم يقولوا به.. والحقّ أن دعوة الإمام البنا لإلغاء الأحزاب، إنما كانت تنطلق من حرصه على (وحدة) الأمّة، التى كان يرى فى وجود (الأحزاب) – بأشكالها، وهيئاتها القائمة آنذاك – تمزيقاً وتضعيفاً لها ..
(٢٠) الوحدة والتعددية والحوار فى الخطاب الإسلامى المعاصر، مصدر سابق، ص١٤١ .

(٢١) الحريات العامة فى الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ص٢٨٧ .
(٢٢) المصدر السابق، ص٢٨٧.
(٢٣) حكم المعارضة وإقامة الأحزاب السياسية فى الإسلام، أحمد العوضى، مصدر سابق، ص٢٣ .
(٢٤) يصف (د. يوسف القرضاوى) الفتاوى والآراء التى تحرّم العمل الحزبى، بأنها "جرأة غريبة على دين الله، وتهجّم على الشرع بغير بيّنة، وتحريم لما أحلّ الله بغير سلطان"، ويقول: "بل الصواب أن تكوين هذه الجماعات مما توجبه نصوص الشرع العامة، وقواعده الكلية". انظر: من فقه الدولة الإسلامية، د. يوسف القرضاوى، دار الشروق، بيروت، ( د. ط )، ١٩٩٦، ص١٥٨-١٥٩.
(٢٥) الحريات العامة فى الدولة الإسلامية، راشد الغنوشى، مصدر سابق، ص٢٨٧.
(٢٦) المصدر السابق، ص٢٨٨.
(٢٧) انظر: المصدر السابق، ص٢٨٧، وكذلك: التيارات الإسلامية وقضية الديمقراطية، د. حيدر إبراهيم على، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١٨٨وص٣٣٦. وأيضاً: الوحدة والتعددية والحوار فى الخطاب الإسلامى المعاصر، زكي الميلاد، مصدر سابق، ص٣٢.
(٢٨) الوحدة والتعددية والحوار فى الخطاب الإسلامى المعاصر، مصدر سابق، ص٣٣.
(٢٩) سئل شيخ الإسلام (ابن تيمية) عن جماعة من الناس يسمّون حزباً، ويتّخذون لهم رسلاً، فقال: "وأمّا رأس الحزب، فإنه رأس الطائفة التى تتحزّب، أو تصير حزباً، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله، من غير زيادة ولا نقصان، فهم مؤمنون لهم ما لهم وعليهم، وإن كانوا قد زادوا فى ذلك ونقصوا، مثل التعصّب لمن دخل فى حزبهم، سواء كان على حق أو باطل، فهذا من التفرّق الذى ذمّه الله تعالى ورسوله.. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرّانى، مجمع الملك فهد، ١٩٩٥، (د.ط). ج١١، ص٨٥، كتاب التصوف، فصل: معنى لفظ (الفتى).
(٣٠) معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام : د. محمد عمارة . دار نهضة مصر، القاهرة، (د. ط)، ١٩٩٧م. ص١٢٨.

عبق الكلمات

# فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ

**عبد الباقى يوسف**

abdalbakiuosf@gmail.com

✍ يثبت الزمن أن مضامين القرآن متجدّدة، يعيشها الناس فى كل زمان ومكان، ويرون صلاحهم فيها. وهنا نقف مع الكيل والميزان، وقد جاء فى الآية ٨٥، من (سورة الأعراف): [قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ.]

اعدلوا فى كيلكم إذا كلتم، وميزانكم إذا وزنتم. وجاءت كلمة [فَأَوْفُواْ] بمعنى: أَعطوا تمام البضاعة التى قبضتم ثمنها، ولا تنقصوا منها شيئاً من خلال التحايل فى [الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ]. فإن استطعتم أن تتحايلوا على الناس، فلن تستطيعوا أن تتحايلوا على رب الناس. وكلمة البخس تذكير بقلّة النفع من هذا الاعتداء على أموال الناس بالتحايل من خلال[الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ]. فالبخس هو القليل النفع، فترفّعوا عن هذا التحايل.

إذن تعلّمك الآية الكريمة بأنك عندما تقبض قيمة بضاعة جيدة من شخص، ثم تعطيه بضاعة ما دون ذلك، فتكون قد بخسته، أىْ هى بضاعة ليست وفق القيمة التى دفعها لك، فتكون بذلك قد بخسته. ومثل ذلك ما يضع البائع بضاعة جيدة من الخضار والفاكهة أو ما شابه، فى الواجهة، ثم يخفى فى أسفلها ما دون ذلك، بحيث لا تكون ظاهرة للعيان، فيضع لك الوزن الذى تريد فى الكيس من تلك البضاعة الخفيّة، وإن مدَدتَ يدك إلى حبّة لتضعها فى الكيس، منعك، لأنه يكون قد وضع ذلك ليستجرّ به الناس ويخدعهم. فذلك كالمصيدة التى يصطاد بها الناس، حتى يبيع من خلالها بضاعته الرديئة بسعر البضاعة الجيدة، وعندما تعود إلى البيت، تكتشف ذاك الغَث، فتضطر أن ترمى نسبة فى الحاوية، وأحياناً تكون النسبة مرتفعة قد تشمل ثلاثة أرباع ما قد بخسك به، وقد أخذ منك قيمة كاملة عن بضاعة جيدة سليمة. ولذلك نرى أن يتجنّب البائع هذا الشكل فى البيع، وأن يدع المشترى ينتقى ما يريد، فإن انتقى حبّة فاسدة، فيكون هو الذى انتقاها. ثم أنه يفرز البضاعة ما دون الجيدة، فيعرضها للبيع

ظاهرة للعيان بسعر منخفض، لأنه قد لا يأمن أن تمتد يده إلى حبّة فاسدة، فتضعها في الكيس في لحظة طَمَع. فلسدّ هذا الباب، يعرض البضاعة كاملة وظاهرة للعيان، ويعفى نفسه من مسؤولية الانتقاء. وقد توعّدهم الله تعالى بالويل: [وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ] المطففين١،٣ .

جاءت كلمة (أشياء) جامعة ومفتوحة، لتشمل كل شيء يمكن أن يبخس فيه البائع على حق المشترى، وإن كان الميزان يعنى الثقل الموازى للوحدة، الذى يمكن أيضاً أن يبخس البائع من خلاله المشترى من خلال إحداث خلل في هذه الوحدات، فإن الكيل يعنى جودة البضاعة التى قد لا تخضع للميزان، مثل الأقمشة، والأثاث، ومختلف الأدوات التى يمكن للبائع أن يبخس بها [النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ] على أنها أصلية، وتكون ما دون ذلك.

ما هو مهم أن تعلم بأن هذا الكلام ليس موجهاً من النبى شعيب (عليه السلام) إلى قومه بشكل خاص، بل هو مثال لجميع البشر، أينما كانوا، وحيثما وُجِدوا، فلو كان الكلام مقتصراً على قوم دون غيرهم، لَما كان من وجوده في القرآن من معنى، لأن الناس كانوا سيقرؤونه دون أن يجدوا فيه نفعاً. فاعلم أن كل أنبياء ورسل الله (عليهم الصلاة والسلام)، هم أنبياء ورسل للناس جميعاً، وأن في قصصهم عبرة وموعظة للناس جميعاً. فلا يجوز لك أن تقول بأننى لستُ مَعنيّاً بهذا الكلام، وأنه كلام خَصّه نبىّ لقومه. ولذلك جاء خاتم أنبياء الله ورسله (عليهم الصلاة والسلام)، مصدّقاً لِما جاء الأنبياء والرسل من قبله، وهذه الأحداث والوقائع يقصّها الله تعالى لك من خلال رسوله، والغاية من قَصّها، أن تنتفع بها، وتتعظ بها. ولذلك فإن كل كلمة في القرآن، تلزم الإنسان، وما من كلمة احتواها القرآن، لا تلزم الإنسان .

إن الله غنى في أمثلته للناس، ويبيِّن لهم أن الغَلَبة لن تكون للفساد، بل للصلاح. ومهما كثر المفسدون، ومهما امتدّت رقعة الفساد، فإن الله يُعاقِب المفسدين بفسادهم، ويجعلهم يمنون بالهزيمة، وينصر علیهم قوماً صالحين، ويورّثهم الأرض. فهى إذن دروس حتى يصلح الإنسان من شأنه، ويبلغ قناعة بأن الخير له ولأبنائه يكون في الصلاح، وأن بركة الله تكون في الصلاح، وأن الفوز في الدنيا والآخرة لا يكون إلاّ بالصلاح❐

# مقالات


| | |
|---|---|
| - حول النبوءات المستقبلية | د.عمادالدين خليل |
| - عورات القراءة الماركسية للتاريخ | د.مصطفى عطية |
| - الإنسان والأمانة الإلهية | معصوم محمد خلف |
| - جابر بن حيّان وعلوم عصره | عرض: د.نبيل فتحى حسين |
| - تأملات فى آية الاصطفاء | صالح شيخو الهسنيانى |
| - حمير تقدمّوا.. عقلاء تأخرّوا! | د.عبد الحكيم مختار |
| - بين وهم الفشل وقوة الإرادة.. | زهراء مؤيد رمضان |

# حول النبوءات المستقبلية

**بقلم: أ.د.عمادالدين خليل**

✍الذى يطالع نبوءات الساحر والمنجّم الفرنسى المعروف (نوسترا داموس)، والتى يتحدّث فيها عما سيشهده العالم من وقائع وأحداث، وعمّا سيقع مستقبلاً، يأخذه العجب العجاب من تلك المقاربة المدهشة لما سيجرى ..

صحيح أن كل واحدة من تلك المقاربات التى كتبت قبل قرون، إنما كتبت بلغة تنطوى على الكثير من المعمّيات، والبعد أحياناً عن نسيج الواقعة.. إلا أنها فى خطوطها العريضة ودلالاتها المؤكدة، تجيئ مطابقة - إلى حدّ كبير - لما سيشهده العالم من وقائع وكوارث وسياسات وعلاقات دولية، بما سيمرّ عليه من زعماء وطواغيت ومتجبّرين، قادوه إلى الويل والدمار، وألحقوا بشعوبهم، وربما بالعالم كله، الأذى والخراب ..

عجيب أمر هذا الكتاب الذى ألّفه (نوسترا داموس)، وقام بترجمته الأخ الأستاذ (محمد جميل حمادة)، وهو يحكي – على سبيل المثال – عما سيفعله زعيم كهتلر، أو موسولينى، أو ستالين.. وعما سيشهده عالمنا العربى والإسلامى من زعامات وحكام، أمثال: القذافى، وعبد الناصر، وصدام حسين.. وعن النهايات الدرامية التى انتهوا إليها..

حتى ليقال إن أجهزة الاستخبارات فى الدول الكبرى، كالولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفياتى؛ قبل انحلاله، وغيرهما، وضعوا فى حساباتهم، ودوائرهم السرّية، معطيات هذا الكتاب، لكي يحسبوا حساباتهم الدقيقة لما سيشهده العالم من وقائع وردود أفعال وأحداث.

ومعروف أن العديد من زعماء العالم كانوا يضعون فى دوائر مخابراتهم، شياطين السحرة الكبار، والمنجّمين المعروفين، من أجل أن يرسموا سياساتهم المستقبلية، فى ضوء معطيات هؤلاء..

ومعلوم لدينا، نحن المسلمين، أن أحداث العالم قد صمّمت، مسبقاً، بعلم الله وإرادته، منذ لحظة خلق السماوات والأرض، وحتى يقوم الحساب: {... وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}(سورة يونس: الآية ٦١)، {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}(سورة هود: الآية ٦)، {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}(سورة الرعد: الآية ٣٩)، {وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ}(سورة الحجر: الآية ٤)، {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً، فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً}(سورة الإسراء: الآيات ٤-٧)، {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}(سورة سبأ: الآيتان ٢-٣)، {... وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}(سورة فاطر: الآية ١١)، {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}(سورة ق: الآية ٤)، {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً}(سورة النبأ: الآية ٢٩)، {وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً}(سورة الإسراء: الآية ١٠٤).

ثم تأتى الآية التى تحسم الأمر كله بكلماتها المعجزة: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}(سورة الحديد: الآية ٢٢).

وقد ناقشنا فى غير هذا المكان مسألة عدم التعارض، فى الضمير المسلم، بين قدر الله سبحانه وتعالى فى الخلق، وبين حرية الإنسان.. بين علم الله المطلق، وبين مشيئة الإنسان الحرّة فى الاختيار؛ داخل دائرة هذا العلم الشامل.. فلا مبرّر لإعادة القول فيها.

ويبدو فى ضوء ما سبق، أن السحرة والمنجّمين يعتمدون محاولات الجن والشياطين لاستراق المعلومات هذه من الملأ الأعلى.. ولهذا وضعت الحواجز فى طريقهم {رصداً}.. ومع ذلك فإنهم قد يحصلون – أحياناً –، ولحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى، على بعض المعلومات، فيسخّرهم

السحرة والمنجّمون لإيصالها إلى الناس، وإيهامهم بقدرتهم على اختراق الغيب، والاطلاع على ما سيشهده العالم من وقائع وأحداث.. ولهذا تأتى معلوماتهم هذه – كما هو الحال فى كتاب نوسترادامو س – وهى تنطوى على خليط من الوقائع المؤكّدة، والغبش، والمعمّيات، والضباب.. وهم - فى نهاية الأمر- يوظّفون معلوماتهم هذه لتعبيد الناس المغفّلين حيناً، ولجرّهم إلى الكفر والفسوق حيناً آخر، ولتحقيق الكسب حيناً آخر، ولتبوّء المراكز المتقدمة لدى أصحاب السلطان حيناً رابعاً، والاستمتاع الشامل المنحرف حيناً خامساً.. بهذا الذى يضللون به الناس، ولجلب إعجابهم، والالتفاف حولهم، وللوقوف بوجه دعوات الأنبياء (عليهم السلام)، وإعلان الحرب عليها.. امتداداً لموقف إبليس، الذى أعلن الحرب ابتداء: {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً ، لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ، وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً ، يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ، أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً}(سورة النساء: الآيات ١١٧-١٢١)، {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ، قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ، قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ، قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}(سورة ص: الآيات ٧٥-٨٥)، {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}(سورة البقرة: الآية ١٠٢)، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ، وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ}(سورة الأنعام: الآيتان ١١٢-١١٣)، {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِىَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}(سورة الأنعام: الآيتان ١٢٨-١٢٩)، {قَالَ ادْخُلُواْ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِى النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ، وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ}(سورة الأعراف: الآيتان ٣٨-٣٩)، {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ،

قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ، فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}(سورة سبأ: الآيات ٤٠-٤٢)، {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} (سورة فصلت: الآية ٢٥)، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} (سورة فصلت: الآية ٢٩).

وهذه الآيات تجيب بوضوح على سؤال، قد يعتمل فى أذهان الملاحدة والمشككين: لماذا هذا كلّه، ما دام بمقدور الله أن يقطع الطريق على أية محاولة للاستراق منذ اللحظة الأولى؟!

إنها حتمية أن يكون هناك فى الحياة الدنيا صراع بين الخير والشر.. بين الإنسان، وبين الجان والشياطين.. بين إرادة الله سبحانه وتعالى، وبين رغبات الجان والشياطين.. بين علم الله المطلق، وبين سعى هؤلاء لاقتباس - ولو شىء بسيط منه - لتحقيق أغراضهم، التى مرّت بنا قبل قليل.

إن المسألة تنسحب - أيضاً - على موقف الإنسان فى العالم، والذى وضعت فى طريقه شبكة من العراقيل.. وحزم من الأسلاك الشائكة.. ومجموعة هائلة من الإغراءات والإغواءات.. من أجل أن يتمرّس على المقاومة، وأن يشحذ فى نفسه سلاح الردّ، وأن يخرج منتصراً، بعزمه، وإرادته، وقدرته على المجابهة.. وإلا فإنه الكسل، والقعود، والاستسلام، الذى لا تستقيم معه حياة فاعلة، ولا تقوم حضارة مبدعة، على الإطلاق.

ولنستدع - مرة أخرى- الآيتين اللتين مرّ ذكرهما، ففيهما حسم لتساؤل المشككين: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ، وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ}(سورة الأنعام: الآيتان ١١٢-١١٣).

ومن أجل ذلك، وضع فى الملأ الأعلى ما يمكن اعتباره سياج حماية ضد استراق السمع، كي لا يمضى الجان والشياطين، ومن ورائهم حشود الناس الوصوليين، أو المغفّلين، إلى أهدافهم الملتوية.. ومن ثم فإننا نطالع فى كتاب الله مقاطع وآيات تحدّثنا عن هذا الذى تشهده السماء: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ، وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً ، وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً}(سورة الجن: الآيات ٦-٩)، {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ}(سورة الملك: الآية ٥)، {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ، وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ، لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ، دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}(سورة الصافات: الآيات ٦-١٠).

وكما هو معلوم، فإن السحر، وخداع البصر، والتنجيم، والكهانة، وادّعاء العلم بالغيب، وما يسمى بتحضير الأرواح، وتبادل المعلومات بين الإنسان والجان.. إلخ .. إنما هى طبقات يعلو بعضها بعضاً.. تبدأ بالقضايا البسيطة، التى قد تخطئ وقد تصيب، وتنتهى بالكشف المدهش عن الحقائق القاطعة كالسكين.

وقد أتيح لى شخصياً أن أشهد العديد من هذه الممارسات، فرأيت العجب العجاب.. وهى جميعاً، على ضلالتها وانحرافها عن المنهج القويم، بل واتكائها على المعلومات الكونية، والتاريخية، المسترقة من الملأ الأعلى.. يمكن أن تقدّم لنا - نحن المؤمنين - تأكيداً مقترناً بوقائع حسية مختبرية – إذا صح التعبير – عن وجود عالمى الجن والشياطين بين ظهرانينا، بحيث لا تترك أىّ مجال للشك فى هذا الوجود الذى يملك ثقله، وقدرته على الحركة، واختراقه للخبرات البشرية، بسبب من تكوينه النارى، فيما يصفع كل مقولات المشكّكين بعوالم الجان والشياطين.

عبر جلسة لتحضير الأرواح بالفنجان، وهى واحدة من أبسط عمليات التحضير الروحى، كما يقولون، حيث ترسم دائرة واسعة على قطعة من الكارتون، تقسم إلى أحرف، ويوضع الفنجان فى بدايتها، ثم يوضع أصبع الوسيط على ظهر الفنجان، وتوجّه الأسئلة من الحضور إلى ما يعتبرونه أرواحاً، بينما هو فى الحقيقة من كفرة الجانّ وشياطين الإنس، فإذا بالفنجان يتحرك دون أى جهد مبذول من الوسيط على هذا الحرف أو ذاك، لكيما تلبث مجموع الحروف المقروءة أن تعطينا الجواب على كل سؤال..

كنت أتابع العملية بكثير من الملل والشك، فإذا بالأجوبة تنصّب كلها على الوسيط عبر مجموعة من أقذر الشتائم والسباب.. وإذا بالوسيط يصفر وجهه، وينهض قائماً وهو يصرخ: أقسمت بالله عليك أيتها الأرواح الشريرة أن تكفّى عن هذا العبث!!

وقلت فى نفسى: لا يمكن لإنسان - مهما كان تافهاً - أن يوجّه لذاته مثل هذا السيل من السباب، وإذن فلا بد أن تكون هناك قوى خفية، ماكرة، تريد أن تعبث بهذا الإنسان..

وفى جلسة أخرى، أكثر تعقيداً، طلبت من الوسيط أن يسأل (أرواحه) التى يحضرها، عن خطط بغداد فى العصر العباسى الأوّل.. وكنت يومها طالب ماجستير فى معهد الدراسات العليا ببغداد، وقد كلّفت من قبل أحد أساتذتى بكتابة بحث عن (خطط بغداد)، فإذا بالوسيط يجيبنى، نقلاً عمّا يقال أنه روح الجاحظ، بجملة من الأجوبة، أذهلتنى بدقة معلوماتها، وانطباقها على ما توصّلت إليه من نتائج، عبر تجوالى فى خبرة هذا الأديب المعروف.

وثمة جلسة أخرى، نقل فيها الوسيط عن (أرواحه) التى استحضرها، العديد من وجهات نظر الشهيد (سيد قطب) فى مفهوم المفاصلة، فإذا بها تأتى مطابقة تماماً لما قرأته فى معطيات هذا المفكر الإسلامى الكبير.

والوسيط رجل لم يتجاوز فى دراسته المرحلة المتوسطة.. فكيف أتيح له أن ينقل ما قاله (الجاحظ)، وما ردّده (سيد قطب)، وهو لم يقرأ فى حياته سطراً واحداً مما كتبه هؤلاء!!

وغير هذه الوقائع الكثير الكثير، مما شاهدته بعينى، أو سمعته بأذنى..

إنها - إذن - لعبة الأخذ عمّن يملك الكثير مما لا نملكه نحن البشر.. بسبب من قدرتهم على الحركة والاطلاع واختراق الحواجز واستراق المعلومات.. لكونهم - مرةً أخرى - أجساماً نارية، قديرة على الحركة السريعة، والإتيان بما يعجز البشر عن الإتيان به.. إنهم الجانّ والشياطين.. أمّا ما يدّعيه المحضرون والوسطاء، من أنها أرواح الموتى، فإنها - والحقّ يقال - أكذوبة يتحتّم ألا تنطلى على أحد.. ذلك أن أرواح الموتى أعزّ وأكرم من أن يعبث بها المحضرون والوسطاء..

والآن، وتأكيداً (لمختبرية) هذه الكشوف، التى يمثّل الجان والشياطين دور البطولة فيها.. فإن ديار الغرب تشهد حركة واسعة يسمّونها (الروحية الحديثة)، حيث تقام المؤسسات، وغرف التحضير، وصالات التجارب المتواصلة، على أيدى علماء كبار - بعضهم مّمن حصل فى مجال تخصصه على جائزة نوبل - لكي تواصل كشوفها المدهشة فى هذا الميدان.. ولكي تؤكد - بما لا يقبل مجالاً للشك - أننا نحن البشر لسنا وحدنا فى هذا العالم، بل إن عوالم أخرى تعيش بين ظهرانينا من الجان والشياطين، ولكن أجهزتنا الحسيّة المباشرة لم تهيّأ للتعامل المباشر معها.. ولذا يلجأ هؤلاء إلى الطرق الملتوية للتواصل والتخاطب والحصول على المعلومات.. بحيث إن دوائر التحقيق الجنائى فى الدول الكبرى، لجأت هى الأخرى إلى هذا الأسلوب للكشف عن الجرائم والمجرمين.. وحققت بذلك خطوات واسعة فى أنشطتها التحقيقية.

ويبقى أن كلمة الفصل فى الموضوع كلّه، تلك الآية المدهشة التى وردت فى كتاب الله، والتى تتحدّث كيف أن مرور الزمن كفيل بالكشف عن الحقائق المطابقة تماماً للمعطيات القرآنية، فيما سيقود البشرية الضالة إلى مرافئ الإيمان: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}(سورة فصلت: الآية ٥٣).

وسواء جاءت هذه الرؤية عن طريق مناهج البحث الأصيلة، أم تلك الملتوية، فالأمر سواء.. وهو التأكيد الذى لا يقبل نقضاً، ولا جدلاً، على مصداقية ما ورد فى كتاب الله، من تلك المساحات الكبيرة التى محضّت للجان والشياطين.. والتى لا يزال الكثير من السذّج والمغفّلين يرفضون وجودها باسم الروح العلمية، وهى منهم براء: {... إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}(سورة طه: الآية ٦٩)❐

# عورات القراءة الماركسية للتاريخ
# كتاب اليمين واليسار في الإسلام نموذجاً

**د.مصطفى عطية جمعة**
**mostafaateia@gmail.com**

يمثّل كتاب (اليمين واليسار فى الإسلام)(١) نموذجاً فى التعاطى الفكرى، أو القراءة الفكرية المعاصرة، للإسلام وثقافته، ديناً وتطبيقاً، وشخصيات وتاريخاً، وتماشياً مع التطبيق الإيجابى لدعاوى تيار (الاشتراكية القومية)، فى تطبيقاته العربية، التى وجدناها فى نظام (عبد الناصر)، وإيديولوجية (حزب البعث)، وغيرهما .

لذا، فمن المفيد - فى هذا السياق - التوقف عنده، وعرض موجز عن طرحه، ومناقشته؛ فهو بمثابة لبنة أولى فى الكتابات التى قرأت الإسلام، وتاريخه، وفق منظور يسارى.. فهو تجربة للتطبيق، غلب عليها حماس البدايات .

استهل المؤلف كتابه بالتعريف الموجز باليمين واليسار فى الثقافة الإسلامية، ومن ثمّ تطرّق إلى المفهوم المراد من كتابه، وهو تناول اليمين واليسار بمنظورهما المعاصر، وقراءة الثقافة الإسلامية وفق هذا المنظور.. فاليسار، أو اليساريون، هم: المعنيون بالمسألة الاجتماعية، ويؤمنون بأن الإسلام الصحيح قد قصد إلى حلّها، واعتبرها طريقاً إلى النجاة فى الحياة الآخرة، وللصلاح فى الحياة الدنيا.. أى إن الدين هو عقيدة، وفكر، وشريعة، لرفع الجور عن الفقراء، والمستضعفين، والمساواة بين أبناء المجتمع الواحد. وبعبارة أخرى: دراسة النزعة الاشتراكية فى الإسلام.

وأما اليمين، فهو الاتجاه المعارض لهذا، الذى سمح بالفروق الشاسعة بين أفراد المجتمع الإسلامى. وهو الذى حارب ضد اليسار، لتظل فئة متحكمة فى الثروة، وتتحكم سياسياً واجتماعياً فى غالبية المسلمين..

ويصرح المؤلف أنه سيستخدم مصطلح (النزعة الاشتراكية)، بوضوح، محددا أن المقصود بها ليس الاشتراكية التى تأتى فى مرحلة الإنتاج الصناعى، بعد الزراعى، وإنما الاشتراكيون هم أصحاب الاتجاه الجماعى، الذين يعملون لصالح الأغلبية، ويقدّمون صالح الأغلبية والجماعة.. أما اليمين، فهم أصحاب الاتجاه الفردى، الذين يسعون إلى الثروة، والسلطة، ومصالحهم الخاصة(٢).. ويضاف إلى ذلك وجود تيار الوسط بين اليسار واليمين، والذى يمثّله بعض (٣)الصحابة، وأبرزهم: أبو بكر، وعمر بن الخطاب، واللذان استفادا من الظروف المواتية بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، من أجل الاستيلاء على السلطة، وتوجيهها وفق وجهتهما الخاصة، أو رغباتهما الشخصية(٤).

وهو يؤكد فى قراءته على أن الحضارة الإسلامية استمدت أصولها من الإسلام، وأنه ساع إلى اكتشاف عوامل استمرار هذه الحضارة، وقراءتها قراءة شاملة جديدة(٥).. فالطرف اليمينى ساع إلى المزيد من الثروة والجاه والمنصب، ويتآمر فى سبيل ذلك؛ بتحالفهم مع التجار، فى اللعبة الشهيرة المتمثلة فى تحالف السلطة والمال، فكلاهما يفيد الآخر ويدعمه(٦). والمثال على ذلك هو عثمان بن عفان، الشيخ السهل الطيب، الذى تصدّر القيادة فى الأمة الإسلامية، ومن ثم تمّ تكوين الملكيات الزراعية الواسعة، وتأسّست ارستقراطية عربية، ودعمتها الدولة الأموية، بل كانت امتداداً لخطّ عثمان، وسياسته، التى تخالف ما درج عليه أبو بكر وعمر فى سياستهما(٧).. وانطلقت ثورة اليمين بعد مقتل (عمر بن الخطاب)، بتولية (عثمان).. فى حين برز اليسار، ممثلاً فى شخصية (أبى ذر الغفارى)، الذى عارض أصحاب الأموال فى توجهاتهم(٨).. كما أن كبار الصحابة فى المدينة - المنتمين طبقياً إلى اليمين - ضاقوا بسياسة (عمر بن الخطاب)، وتقشفه الشديد، ودعموا (عثمان)، ومن ثم دعموا (معاوية) خاصة، و(بنى أميّة) عامة، ضد المحرّضين على الثورة، مثل: (طلحة بن عبيد الله)، و(الزبير بن العوام)، وتضامنت أيضاً السيدة (عائشة) (رضى الله عنهم) فى التحريض على الثورة(٩)..

ومن ثم يتبنى النهج الثورى – وفق التصور الماركسى – فى قراءته أحداث الفتنة الكبرى، التى أدت إلى مقتل (عثمان)، وطلب الثوار تولّى (على بن أبى طالب)(١٠)، الذى يمثّل النزعة الاشتراكية فى الإسلام، والتى ظلّت جذوتها مشتعلة، وقبلتها الشعوب الإسلامية. وسعى (على) إلى التعامل مع الواقع الجديد، وتغيّر المراكز الاقتصادية، وكثرة الأموال، بفعل اتساع الفتوحات، وتدفق الأموال على عاصمة الخلافة (١١) .

إن أول ما يستوقفنا فى هـذا الكتـاب - وقـد جـاءت قراءتـه لتـاريخ الإسـلام منطلقـة مـن مفـاهيم حديثـة - ؛ أن منهجـه يكـاد يكـون تحلـيلاً سياسـياً، ينحّـى البعـد الـدينى والروحـى والتشريعى فى الإسلام، ويقرأ أحداث السيرة، والصحابة، ويحلل سلوكهم، وفـق الرؤيـة السياسـية المعاصرة، التى تمثل المنفعة أساسها، والصراع وسيلتها.. أىّ إن كلّ طـرف، ممّـن أسـماهم (اليمـين واليسار)، يحرص على تحقيق مصالحه، ويتآمر ويتحالف فى سـبيلها، وهـو مـا يتنـافى مـع جـوهر الإسلام نفسه..

وقد ذكر المؤلف مرات، فى ثنايا كلامه، أن الإسلام دين شامل، أحدث ثـورة كبـيرة فى العقيـدة، والتشريع، ونظرة الإنسان إلى الكون. فمن الخطأ – بـلا شـك - أن ينحّـى منظـور الإسـلام نفسـه، الذى هو مصدر للقيم والتشريع والحكم، ويذكر نعوتاً وأحكاماً تعميمية، مـن قبيـل أن الإسـلام، وحركـات الجهـاد فيـه، مـا هـى إلا صراع مـن أجـل التطبيـق الاشـتراكي، الـذى يحـارب الأغنيـاء والموسرين، وينتصر للفقراء والمعوزين(١٢). وهى قناعة إيديولوجية معاصرة، تـمّ إسـقاطها عـلى الإسلام الدين والشـريعة والتجربـة التاريخيـة، بافتعـال واضـح.. فالإسـلام ديـن انتصـر للفقـراء والمهمشين فى أحكام كثيرة، مذكورة فى أبواب الفقه وأحكام المال، وأوجـب مهامهـا للحـاكم نحـو رعيته، وحقوق الرعية فى محاسبة الحاكم.. فلا يمكـن قـراءة الإسـلام بمنظـور أحـادى، يسـتند إلى الاشتراكية، بوصفها نظرية إنسانية فيها جوانب جيدة، ولكنها نابعة من سياق ثقافى غربى، ثقافته السياسية مبنية على المنفعة، والصـراع من أجلها. وعنـدما نقـول قـراءة أحاديـة، فإننـا نعنـى أن الكاتب ابتسر أولاً الإسلام الدين، فلم يتوقف عند شريعته، وموقفهـا مـن الفقـر، بـل انطلـق إلى أحداث السيرة، والخلفاء الراشدين، والأمويين، يناقش أفعالهم وسلوكهم من منطلق واحـد، وهـو مدى تعاطفهم مع الفقراء والمستضـعفين، ونسـى أن الحكـم فى هـذا الأمـر كلـه كـان التشـريع الإسلامى، الذى لا يحـرّم الـثروة، ولا السـعى والاجتهـاد فى جمعهـا، وفى ذلـك يتفـاوت الأفـراد فى مواهبهم واستعداداتهم وجهودهم .

فالقضية ليست فى وجود الأغنياء والموسرين، وإنما فى واجب الأغنياء نحو الفقـراء، وواجـب الدولة نحو الفقراء أيضـاً. وهنـاك مئـات النصـوص والأحكـام التـى أثبتـت حـق الفقـراء فى مـال الأغنياء، وحق الدولة نحو الفقراء، وهـى أحكـام شرعيـة، عكـف الحكـام والـولاة عـلى تطبيقهـا، وكانوا على دراية بها.. و(عمر بن الخطاب) هو الذى أسّـس بيـت المـال، وجعـل رافديـه: الزكـاة، والخراج.. ولا ننسى أن الإسلام حـارب الفقـر، بـالحضّ عـلى العمـل للقـادر، وحـثّ عـلى التكافـل الاجتماعى لغير القادر، فى منظومةٍ فصّلتها الكثير من الكتب الفقهية قديماً، وناقشتها وفصّـلتها - بلغة العصـر - دراسات حديثة، منذ منتصف القرن العشرين(١٣).

كما أننا نلاحظ فى الكتاب أمراً جوهرياً، ألا وهو غياب التوثيق للمرويات التاريخية الواردة، بل ولسائر المراجع الأخرى. وهذا من شأنه أن يجعل الكتاب أقرب إلى الكتابة الصحفية، منـه إلى الدراسة العلمية. فغياب التوثيـق فى دراسـة تاريخيـة لهـو طامـة كـبرى، لأنـه يشـير إلى أحـداث

مختلف عليها بين الرواة، وبعضها مدلّس ومكذوب، تمّ الرد عليه فى كتب السيرة والتاريخ، مثل: قضية التحكيم، وموقف عمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى منها. فلم نجد مرجعاً واحداً لما يذكره من روايات، وكأنها معروفة سلفاً للقارئ، ومسلّم بها من حيث دقتها؛ وهذا غير صحيح بالمرّة، بجانب إشارته إلى كتب معاصرة، ونقله عنها مرويات تاريخية أخرى، دون تثبّت، أو مراجعة لها؛ أىْ قام بعملية (نقل علمى عبر كتاب وسيط)، دون رجوع إلى المصدر التاريخى، أو حتى الإشارة إليه، وهذا خطأ علمى بلا شك .

والأدهى فى ذلك، أنه أعطى مصطلحات إسقاطية واضحة، تمتاح من قناعته الإيديولوجية، مثل نحته مصطلح (اليسار الإسلامى)(١٤)، بزعامة على بن أبى طالب ( كرّم الله وجهه )، وقراءته حركة (على) التاريخية فى ضوء هذه الرؤية، وهذا ما لا يمكن قبوله على الإطلاق. فلم يكن النزاع فى جوهره انتصاراً للعدالة الاجتماعية، وإنما كان صراعاً على قضايا عديدة، أهمها: الخلافة، ودم عثمان. وأشعلتها أحداث الفتنة الكبرى .

وقد واصل المؤلف تعميماته، مؤكداً أن حركة المجتمع المسلم، طيلة القرون التالية، كانت صراعاً بين يمين ويسار. وتناسى أن هذا الصراع حسمه الإسلام، وشريعته.. فالقضية كانت القيام على أمر الشريعة، فهى خير كلها للفرد والأمة والمجتمع. كما يقول (ابن خلدون) بأن "الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها دين؛ إمّا مِن نبّوة، أو دعوة حق"، وأن الخلاف يحدث عندما تتصارع النفوس على الدنيا، وتنأى عن شريعة الله، وهدى نبيّه. فإذا أقبلت على الإسلام، "وانصرفت إلى الحق، ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله ؛ اتّحدت وجهتُها، فذهب التنافس، وقلّ الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد، واتّسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدول"(١٥). مع اعترافه بأن الجاه مفيد للمال، وأن السعادة والكسب يتحصلان غالباً لأهل الخضوع والملق (التملّق)، وأن هذا الخلق من أسباب السعادة(١٦).

وهذا باعتراف المؤلف نفسه بما أسماه (المبادئ الإسلامية فى التكافل) بين الأغنياء والفقراء، والتى لا تخرج عن الشريعة، وأحكامها، وتطبيقاتها، المخولّ بها الحكام، والولاة، ومن ينيبونهم..

كما يعترف المؤلف أنه أطلق الكثير من التحليلات البعيدة عن الروح العلمية، وطرح تساؤلات ومظانّ، دون مرويات تاريخية تدعمها(١٧). وهذا دالّ على إسرافه فى المعالجة الفكرية الإيديولوجية، على حساب الواقع التاريخى والمجتمعى. وبعبارة أوضح: هى قراءة متعسفة للتاريخ الإسلامى، تهدف للانتصار لفكرة إيديولوجية، بدون التدقيق كثيراً فى مدى تطابق الأحداث، وفهم الشخصيات، وحركة التاريخ نفسها، لما يتم طرحه.. فيمكننا نعت كتابه بأنه: قليله تاريخ، كثيره سياسة، ظاهره الحيدة، وباطنه الانحياز لقناعات مسبقة .

وبالتالى يكون السؤال: إذا كانت المثل العليا للإسلام تؤكد على المبادئ الاشتراكية، والعدالة الاجتماعية، باعتراف المؤلف، فلماذا لا يكون الطرح من أساسه حول مدى التزام الشخصيات

والحكام بهذه المُثُل، وسعيهم إلى تطبيق الشريعة السمحاء؟ وساعتها يكون معيار الحكم نابعاً من خصوصية التشريع الإسلامى، ومدى اقتراب الحكام، والدول، والناس، منه. وبذلك، لا تكون القراءة إسقاطية لفكر معاصر على قديم، وإنما قراءة استنباطية مؤصلة، نابعة من الإسلام الدين، وحركة تاريخه .

فلا بأس من وجود قراءة معاصرة للتاريخ القديم، على أن تكون القراءة متأملة بعمق للتاريخ الإسلامى، وحركته، وتعى القوى الدافعة لحركة التاريخ العربى الإسلامى، و ما جاء به الإسلام تحديداً، وخصائص الشخصية العربية، وما أحدثه الإسلام بها، ومن ثم تنظر إلى حركتها، فى ضوء المواهب الفردية للشخصيات، وأنهم من كبار الصناع والقادة التاريخيين، وليسوا مجرد سياسيين يتقاتلون. وساعتها ستكون القراءة المعاصرة أكثر دينامية وفهماً للتاريخ والثقافة، وتكون النتائج المستنبطة من أحداث التاريخ فى خدمة الواقع المعاصر المعيش، وليس سبباً فى سوء الفهم، الناتج عن التعامل الجامد/ السياسى/ الإيديولوجى مع الشخصيات .

ويظلّ هذا الكتاب محاولة أولية، بكل ما تعطيه دلالة الأولية من معان، فيها قدر من الريادة مع حماسة، ومن شأن هذين أن يحملا معهما مثالب عديدة❐

**الهوامش :**

١- اليمين واليسار فى الإسلام، أحمد عباس صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢ ، ١٩٧٣م.
٢- السابق ، ص٥-٧ .
٣- السابق ، ص٥٤ .
٤- السابق ، ص٥٩.
٥- السابق ، ص١٠.
٦- السابق ، ص٦١ ، ٦٢ .
٧- السابق ، ص٦٥- ٦٨ .
٨- السابق ، ص٨٣ .
٩- السابق ، ص٩٤ ، ٩٥ .
١٠- السابق ، ص١٠٥ .
( 11السابق ، ص١١٣
( 12السابق ، ص١٣٥

(13منها على سبيل المثال : التنمية الاقتصادية الشاملة فى منظور الإسلام ، د. فرهاد محمد على الأهدن، سلسلة كتاب التعاون، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٤م . وهو دراسة مقارنة للإسلام بوصفه منظومة كاملة: الاقتصاد جزء منها، وبين النظم الاقتصادية الوضعية. ويؤكد المؤلف على سوء القراءات السابقة للجانب الاقتصادى فى الإسلام .

( 14السابق ، ص١٣٨

( 15المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق : د. عبد السلام الشدادى، منشورات: خزانة ابن خلدون (بيت العلوم والفنون والآداب)، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥م ، ج١ ، ص٢٦٦ .

(16السابق ، ج٢ ، ص٢٥٩ ، ٢٦١

(17السابق ، ص١٤٠ ، وفى ص ١٤١ يؤكد على أن المثل العليا للإسلام غاية سامية .

# الإنسان والأمانة الإلهية

**معصوم محمد خلف**

✍ منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى البشر على وجه البسيطة، وهم يعيشون فى صراعات دامية، ضاربين بذلك عرض الحائط، كل الأعراف والقوانين السماوية، التى تنص على إقامة العدل والمساواة ..

وينتج عن هذا الصّراع الدّامى قتل الأبرياء والمساكين، واقتطاع الحقوق من أصحابها عنوةً، وهتك الأعراض، وتشريد الشّعوب، مما يجعل من هذا الكوكب الذى نعيشُ عليه قنبلة موقوتة، تجعل من الحياة عبئاً ثقيلاً، لا يقوى على تحمله الكائن الهزيل الذى هو الإنسان.

كما وتجعل من السعادة والطمأنينة أمران عسيران، ليس باستطاعة أى كائن العثور عليه، نظراً للسلوك الهائج الذى ينتهجه بعض الناس، بحثاً عن موردٍ للرزق، أو طلباً للرفاهية.. يصاحبه علامات من المكر والخداع، إضافة إلى اتباع طريقة وسلوك قائم على العنف والقسوة والظلم.

فتندرج تلك الأفعال ضمن إطار يجعل كفة الشر تعلو على كفة الخير، فتتبدل الآراء والمعانى، ويصبح الحليم فيها حيراناً.

ومن حكمة الله تعالى ورحمته بنا أرسل إلينا علماء مخلصين، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويزيلون أمام أعيننا تلك الغشاوة التى تقف أمام النور، فيعالجون أمورنا الدينية والدنيوية بعقلانية واضحة، وحجة بالغة، بعيدة عن الرياء، كما ويقدمون الطرق الكفيلة والميسرة فى النصح والإرشاد، وإظهار النية السليمة أمام الحقيقة الناصعة، لنتجنب الدخول فى مزالق الردى، ونتّبع الطريق الذى يسلكونه نحو الفضيلة والتعاون والتسامح والإخاء.

ذلك الينبوع العذب الذى يروى ظمأ قلوبنا بحلاوة الإيمان، ويزرع فى عقولنا اليقين التام لصاحب الوحدانية والربوبية المطلقة: ربنا سبحانه وتعالى.

ذاك القلب المعطاء الذى يعلمنا بأن الحياة تسامح وكفاح وإخاء وتآلف وتعاون، نحو بناء مجتمع الحضارة والرقى.

منطلقاً من الأمانة الإلهية التى أُلقيت على كاهل هذا الإنسان، فإن صُلح للأمانة صُلحت معه الأمور برمّتها، وإن تركت دون القيام بما تنص، كانت لنا شقاءً وتخلفاً على مر السنين ، فنلقى الله سبحانه وهو علينا غضبان.

وعندما خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام، أخبر ملائكته أنه سيجعل من آدم خليفةً فى الأرض، فقالوا له: {أتجعلُ فيها من يفسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدّماء}(سورة البقرة الآية ٣٠)، وتدعنا ونحن نسبّح بحمدك، ونقدّس لك، ولا نعصى أوامرك، ولا نفعل شيئاً من نواهيك؟!

فأخبرهم الله عزَّ وجل، أنه يعلم فى هذا المخلوق من الأسرار ما لا يعلمون، وأنهم غير عالمين بالسر الذى من أجله يجعل من آدم خليفته، وأنه سيكون له سلطان على الأرض، متصرفاً فى مواردها وطاقاتها وثرواتها، ليجعلها ملائمة لحاجاته..

ولا يخفى أن استخلاف آدم فى الأرض يشتمل على معنى سام من الحكمة الإلهية، التى خفيت حتى عن الملائكة ، فالله سبحانه وتعالى لو استخلف الملائكة فى الأرض، لما عرفت أسرار هذا الكون العجيب، وما أودع فيه من الخواص والعلوم الغزيرة، التى يحتار فيها العلماء فى كشف سرها وغموضها.

والملائكة ليسوا بحاجة إلى شىء مما فى الأرض، ولا فى البحر، إذ هم على وصفٍ يخالف وصف الإنسان، فما كانت السفن لتصنع وتمخر فى عباب البحر، ولا كانت الطائرات لتطلق فى الفضاء الرحيب، ولا زرعت الأرض بمختلف الزروع والغراس، وما وجد فيها أحد يهتم بمعالجته، واستخراج خباياه وأسراره.. فلا تعرف الأطياب، ولا خواص الأشياء، ولا المركبات الكيميائية، ولا الفوائد الطبيعية، ولا الفلكية، ولا المستحدثات الطبية، ولا الطبائع النفسية، ولا شىء من هذه العلوم الكثيرة، التى تفنى السنين والأعمار ولا يدرك الإنسان منها نهاية.. فسبحانه وتعالى من عليم حكيم.

إن الله عزَّ وجل حينما تعلقت إرادته بإيجاد هذا الكون، بما فيه من الموجودات، ومنها: الإنسان، ليجعله سيّد هذا الكون، ويجعل سائر مظاهره، وموجوداته، مسخرة له، وقائمة بخدمته، وأن يوكل إليه عمارته، وأمر تنظيمه.. فذلك هو المقصود بالخلافة، فى قوله: {وإذ قال رَبُّك للملائكةِ إنّى جاعلٌ فى الأرضِ خليفةً}(الآية ٣٠ من سورة البقرة)، فكان أن جهّز هذا المخلوق بمجموعة من الملكات والصفات، لا بدَّ منها لتتكامل لديه القدرة على إدارة شأن هذا الكون، وتعميره، واستخدامه.

فالإنسان فى كينونته الذاتية عبدٌ مملوكٌ لله عزَّ وجل، خلق من ضعف، وينتهى إلى ضعف، ولكنه نظراً للرسالة التى حملها، يتمتع بصفات نادرة، جهّزه الله بها، فاستحقّ بموجبها الرفعة والتكريم، إن هو استعمل تلك الصفات على وجهها الصحيح.. فهذه الصفات التى متّع الله بها

الإنسان، وكانت مناط رفعته، وتكريمه، فبثَّ فيه صفة العقل، وما يتفرع عنها من العلم، والإدراك، والقدرة على تحليل الأشياء، وسبر أغوارها، والوصول إلى ما ورائها، وبثَّ فيه معنى الأنانية، وما يتفرع عنها من النزوع إلى الإثرة والتملك، وبث فيه أسباب القوّة، ومقومات التدبير، وما يتفرع عنهما من النزوع إلى السيطرة والعظمة والجاه.

ثُمَّ بثَّ فيه مجموعة من العواطف والأشواق والانفعالات، تعتبر متممة لقيمة تلك الصفات، وفوائدها، كالحب والكراهية والغضب.. قال الله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}(سورة الأحزاب/ الآية ٧٣).

وأما وجه تركيز القرآن على تلك الحقيقتين معاً، والاستمرار فى تذكير الإنسان بضآلته، وتفاهة أصله، إلى جانب تذكيره بالمكانة التى يتبوؤها، وبأهمية وجوده، وخطورة الصفات النادرة التى رُكّبت فيه، والوظيفة التى كُلّف بالنهوض بها.. فلأن رجل الحضارة الإنسانية فى القرآن، هو ذلك الذى رُبى فى ظلال هاتين الحقيقتين معاً، وعاش يستلهم غذاءه التربوى من معرفة أصله، وحقيقته، وضآلة شأنه، وذلّ نهايته، ثم من معرفة ما قد أنعم الخالق - عزّ وجلّ- عليه، وما قد أكرمه به من سمو فى الرتبة والمكانة، وما شرّفه به من مسؤولية إنشاء الحضارة الإنسانية وعمارة الأرض.

والإنسان فى القرآن الكريم مخلوق يحمل أخطر مميزات وصفات يحملها مخلوق على الإطلاق، هذه المميزات هى جملة الصّفات الإنسانية المركّبة فيه، ونظراً لما لهذه الصفات من الخطورة والأهمية، ونظراً لكونها أسلحة ذات حدّين: إن استعمل أحدهما جاء بالتنظيم العظيم للكون، وبالخير الوفير للإنسان، وإن استعمل الآخر، أو استعملا معاً، جاء بالشر الوبيل، والفوضى الهائلة، للحياة.. نظراً لذلك أطلق القرآن الكريم على هذه الصفات اسم (الأمانة).

والإنسان خليفة الله - عزَّ وجل- فى الأرض، أى إنه - جلّت قدرته- شاء أن يكون الإنسان مظهراً لعدالته، وأن يكون هو لسان الكون الناطق بحمده، وتسبيحه، والإيمان به، وذلك عن طريق تنفيذ أوامره، وتطبيق شرعه، والاهتداء إلى ألوهيته، ووحدانيته .

والإنسان فى القرآن موصوف بصفتين:

واحدة منهما لبيان أصله، وحقيقته، كي لا يطعنه شيء من صفاته، ولا يتجاوز حدود عبوديته لله (عز وجل).

والثانية؛ لبيان مركزه من هذا الكون كله، ومستواه بين الخليقة أجمع.. والإنسان عبد الله، خُلق ليكون مظهراً لألوهية الله عز وجل، وما صفة الخلافة فيه، وتكريمه على سائر المخلوقات، وتسخير الكون له، إلا وسيلة يحقق عبوديته لله تعالى بالكسب والممارسة والاختيار، كما خلقه عبداً له بالجبر والاضطرار.

لقد خلق الله الإنسان، وقرن به مهمة كبرى، لم يشرّف الله بها أحداً من دونه، ألا وهى أن يمارس العبودية لله - عز وجل- بسلوكه الاختيارى، كما قد طبع بحقيقة العبودية له، فى واقعه الاضطرارى.. وبذلك يغدو الإنسان، من حيث وجوده الفردى والاجتماعى، أبرز الآيات الكونية الناطقة بوجود الله - عزَّ وجل- وألوهيته.

وهكذا، فإن ظهور عبودية الإنسان لله، هو الوجه الثانى لتجلى ربوبية الله عزَّ وجل، غير أن ممارسة الإنسان لهذه العبودية، من خلال سلوكه الاختيارى، تتوقف على قدرات وصفات معينة، لا بدَّ أن يتجهز بها، ثم أنها لا تتحقق - بمعناها الدقيق- (وهو الخضوع المطلق للمعبود) إلا من خلال قيامه بواجبات تنطوى على قدرٍ من الكلفة والمشقة، وهى المعنيّة بكلمة / التكاليف/، ولن يمكنه النهوض بها إلا من خلال نسيج متعاون، تسرى خيوطه بينه وبين بنى جنسه. وإنما سبيل ذلك أن يقبل الإنسان متعاوناً مع إخوانه إلى عمارة هذه الأرض، بمعناها الحضارى الشامل، وإن تصادفه عليها - من جرّاء ذلك - المغريات، وتطوف من حوله الشهوات، ويتعرض للمصائب والآلام، فلا تحرفه الملهيات ولا المغريات، ولا تصدّه المصائب والآلام بشدائدها، بل يظل ثابتاً خلال ذلك كله على تنفيذ ما قد ألزمه الله تعالى من الانضباط بالصراط السلوكي الذى اختطه له، وكلّفه بالسير عليه. فإن أورده هذا الصراط على النعم، تمتّع بها شاكراً، وإن زجّه فى مآسٍ ومصائب، تقبلها صابراً.. وتلك هى حقيقة الاصطباغ بالعبودية لله عزّ وجل من خلال السلوك الاختيارى للإنسان فى فجاج الحياة.

والإنسان هو ذلك الكائن المعقد العجيب، الذى لم يفهم العلم منه إلا أنه جملة هياكل عظميّة، وعضلات، وأعضاء، وأنسجة، وسوائل، وشعور.. غير أن العلم أدرك، رغم هذا، أن الإنسان ليس مجرد هذه الكتلة، وإنما هو حقيقة خفية أخرى، تكمن وراء هذه الأمشاج. إنه تلك العلاقة الخفية المجهولة بين المخ والشعور، وهو تلك الصلة المبهمة بين الأعضاء والعضلات من جهة، ووجوه النشاط العقلى والروحى من جهة ثانية.. وهو السر الغامض العجيب الذى يغشى الجملة العصبية، فنسمّيه الإرادة، وهذا يعنى أن الإنسان منفعل فى ذاته، أكثر من أن يكون فاعلاً.

إن الإنسان مفطور على جملة من الصفات والطبائع، التى لا بدَّ له منها كي يتمكن من عمارة الكون، وهذه الصفات والطبائع لا يمكن أن تؤدى عملها الصالح فى عمارة الكون، على نحو تسعد به الإنسانية، إلاّ إذا كانت هناك رقابة عليا على هذه الصفات، وكان صاحبها مستشعراً وجود تلك الرقابة، إذ إن تلك الصفات والطبائع، إذا تركت وشأنها، كانت منبعاً للشرور، وأسباباً للشقاء، أكثر من أن تكون سبيلاً للخير والسعادة.. فصفة العقل، أو العلم، تنقلب إلى شبكة تصطاد بها كرامة الإنسان، وحياته. ومزيّة القوة، وأسبابها، تنقلب إلى عواصف هوجاء تضرب الجماعات الإنسانيّة ببعضها.

أما مصدر خطورة هذه الصفات، أنها ليست إلا صفات الربوبية: فالعلم، والقوّة، والسلطان، والتملك، والجبروت، كلها مقوّمات للألوهية وصفات الرب جلَّ جلاله.. ومن شأن هذه الصفات،

إذا وجدت فى الإنسان، أن تسكره، وتأخذ بلبّه، وتنسيه حقيقته، وتجعله يتمطى إلى مستوى الربوبية، وإن كان الإنسان لا يملك منها - فى الحقيقة - إلا الاسم وحده.

فإذا تأمل الإنسان فى هذا كله، وآمن به إيماناً جازماً، قائماً على أساس من البحث العقلى المتأمل الحر، شعر فى أعماق كيانه بأنه عبدٌ لهذا الإله الواحد العظيم، وأصبحت هذه الصفات الخطيرة الهامّة، التى يتمتع بها، أقلّ من أن تتجاوز به حدَّ عبوديته، وما هى إلا أن تنقلب فتصبح وسيلة عظمى لسعادته، من حيث إنه فرد، ولسعادة بنى جنسه، من حيث الجماعة، وتقوم بين الناس وشيجة الأخوّة والمساواة أمام عبوديتهم لله، بعد أن كانت تقوم بينهم مسابقات ومنافسات غير شريفة، فى ميدان تتصادم فيه القوى، وتتقارع فيه الأسنّة، ويقع المستضعف فيه ضحية لنزوات القوى، وسكرة جنوحه..

حينئذٍ تغدو نزعة التملك فى الإنسان وسيلة طبيعية لإقامة حياة عادلة رخيّة، يقوم فيها العمران، وتخضرُّ فى أنحائها الحدائق والجنان، وتتكاثر فى جنباتها الخيرات، وتصبح نزعة العلم والإدراك نوراً وهّاجاً، ينكشف به المزيد من خفايا الكون لهذا الإنسان، وقبساً هادياً يؤكد للإنسان دائماً حقيقة الذات الإلهية❐

**المصادر والمراجع:**


1ـ القرآن الكريم.
2ـ قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، دار ابن كثير، دمشق.
3ـ كبرى اليقينيات الكونيّة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى، دار الفكر، دمشق.
4ـ منهج الحضارة الإنسانية فى القرآن، د . محمد سعيد رمضان البوطى، دار الفكر، دمشق.
5ـ من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطى، دار الفكر، دمشق.
6ـ الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانيّة، د. محمد سعيد رمضان البوطى، دار الفكر، دمشق.
7ـ من هو سيّد القدر فى حياة الإنسان، د. محمد سعيد رمضان البوطى، دار الفارابى، دمشق.
8ـ من أسرار المنهج الربانى، د. محمد سعيد رمضان البوطى، دار الفارابى، دمشق.

# جابر بن حيان وعلوم عصره
# من خلال قراءة المستشرق الفرنسي بيير لوري

**عرض وتلخيص: د. نبيل فتحى حسين**

ضمن الجهود المعاصرة لدراسة الكيمياء العربية الإسلامية قام المستشرق الفرنسى المعروف بيير لورى (Pierre Lory) بتحقيق رسالة (الحدود) لجابر بن حيان، ونشرها ضمن كتاب (مجموعة مصنفات فى الخيمياء والإكسير الأعظم)، الذى صدر عن دار ومكتبة بيبليون فى لبنان (٢٠٠٨)، فضلاً عن إعداده دراسة عن جابر بن حيان وعلوم عصره، مع اهتمام خاص برسالته (الحدود)، نُشرت كمقدمة لتحقيق رسالة (الحدود) (ص٥-٥٣).

ونظراً لأهمية دراسة (لورى)، التى يُفترض بأىّ متخصصٍ بالكيمياء العربية الإسلامية، وبـ(جابر) على وجه الخصوص، أن يقرأها، ونظراً لصعوبة أسلوبها، فى بعض المواضع - نوعاً ما-، فقد ارتأيتُ تلخيص وإعادة عرض القسم المتعلق منها بجابر، ونظريته فى الموازين، دون القسم المتعلق برسالة (الحدود)، محافظاً على أهم الفِكَر الرئيسة التى وردت فيها.

يلفت (لورى) - بادئ الأمر - إلى أهم الأعمال التى أنجزت فى مجال تصنيف العلوم فى القرون الوسطى الإسلامية، وتحديداً تلك التى قام بها كلٌ من: الفارابى فى كتابه (إحصاء العلوم)، وإخوان الصفاء فى (رسائل إخوان الصفاء)، والخوارزمى فى كتابه (مفاتيح العلوم)، والغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين)، وابن خلدون فى (المقدمة)(ص٥). وبعد أن يعرض لبعض ملامح المنهج العام لهذه الأعمال، كالتمييز بين العلوم الأساسية أو (الأصول)، والعلوم المشتقة أو (الفروع)، والاهتمام الخاص بالمنطق، والرياضيات، والإلهيات...إلخ(ص٥-٦)، يبيّن أن ترتيب العلوم من وجهة نظر عالم خيميائى لا يخلو من بعض الطرافة والغموض، مقارنة بالتصانيف الفلسفية. ذلك أنَّ الخيمياء لا تقدم نفسها كممارسةٍ عطارية، بل كرؤيةٍ كاملة للعالم، لها مُسلَّمَاتُها ومَنْطقُها وغايَتُها الخاصة بها، ويرجع أصلها البعيد إلى الهِرْمِسية الإسكندرانية (ص٦)، التى تمثل المذهب الفلسفى الباطنى المعروض فى مجموعة الرسائل المنسوبة إلى هِرْمِس، والتى تمّ تأليفها فى الإسكندرية خلال القرون الأولى للميلاد.(ص٦-٧، هامش رقم ٢)

ووفقاً للورى فالخيمياء لا تسعى إلى تفسير القواعد المتحكِّمة فى العالم وحسب، بل إلى السيطرة عليها والتصرُّف بها، كما أنَّ الخيميائى يسعى من خلال محاكاته لقوانين الكون، إلى تغيير بعض عناصر العالم المحسوس – كالمعادن مثلاً – وتحويلها بطريقةٍ أسرع من تطورها الطبيعى،

ولذلك أطلق المترجمون العرب مصطلح (علم الصنعة) لوصف علم الخيمياء الإسكندرانية، كما أطلقوا على من يمارسها اسم (الصانع)(ص٧-٨).

ويرى لورى أنَّ طموح الخيمياء، عندما تدَّعى أنها "نهاية ما فى الفلسفة" أو "الحكمة"، لا يتوقف عند هذين الهدفين، وإنما يتعداهما من خلال السعى لإيصال الإنسان السالك إلى أعلى درجات المعرفة الممكنة، وإلى إلهامٍ حقيقى، لا بل منحه نوعاً من البقاء الدنيوى، على الرغم من أنها تصب جُلَّ اهتمامها على تحضير الأكاسير، وذلك لأنَّ الخيميائيين لا يعدُّون الإلهام الصوفى العلمى (الولادة الثانية)، ثمرة التأمل والانعزال عن العالم، بل نتيجة دراسة تطورات العالم والمادة المتواجدة أمامنا(ص٨-٩).

ويخلص لورى إلى وجود ثلاثة وجوهٍ متضمنة فى العمل الخيميائى، تفسّر التناقضات الظاهرية لتصانيف العلوم التى يقدمها جابر، وهى: تفسير قوانين العالم، وتحويل المادة، وتطوير الذهن(ص٩).

ويشير لورى إلى أنَّ لدى جابر أنموذجين لتصنيف العلوم، يحاول أولهما جمع مجمل ميادين المعرفة فى بنيةٍ سببيةٍ موحدةٍ مشتركة تُدعى (علم الموازين)، تهدف لاكتشاف قوانين كليّة يمكن تطبيقها على عمل الصانع فى مَخبره. ويقسِّم ثانيهما العلوم عبر مقابلتها مع بعضها البعض، وفقاً لتسلسل معيّن، لغرض إيصال (الباحث) السالك إلى مستوى أعلى من الوعى والوجود(ص٩-١٠).

وفى معرض حديثه عن (علم الموازين) ينبّه لورى أول الأمر إلى أنَّ مجموعة المؤلفات الخيميائية الضخمة المنسوبة إلى جابر لا تمثِّل عرضاً منهجياً منظماً، بل هى أبحاث قصيرة، أساليبها ومضامينها ومقاصدها شديدة الاختلاف، مبعثرة، تقدِّمُ أحياناً بعض التضارب من حيث بيان العمل الخيميائى نفسه(ص١١). وبعد أن يحدد لورى المدة الزمنية التى يُفترض أن يكون جابر قد عاش فيها (القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى)، يلفت إلى رأى مستشرقٍ معروفٍ مهتم بالكيمياء وهو باول كراوس (Paul Eliezer Kraus)، مفاده أنَّ جزءاً هاماً من هذه المؤلفات لم يكن بالإمكان كتابتها قبل نهاية القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، لا بل بداية الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى(ص١١-١٢).

وكما يرى لورى فإنَّ كون هذه المؤلفات نتاج عمل طائفةٍ أو تيارٍ من الخيميائيين قاموا بتأليفها على مدى أجيال عديدة، لا يضر بالوحدة الفكرية والتجانس فى مجموعة مؤلفات جابر، ذلك أنها من بدايتها إلى نهايتها، تتضمن فكرة ظلت محافظة على وحدتها من حيث مبادئها وتطبيقاتها الأساسية(ص١٢).

أما التناقض والاختلاف فى مؤلفات جابر، فيرجعه لورى إلى مسألتى المستوى الكلامى والمنظور الأبستيمى أكثر من التعارض الحقيقى فى نقاط عدة، موّضحاً أنَّ جابر يرفض متعمّداً، عرض وجهات نظره بوضوح، فيبعثرها ويفجّر عناصرها إلى حشدٍ من التلميحات أو الرموز، تاركاً للقارئ همَّ اكتشاف التركيب الإجمالى(ص١٢). ويعرض لورى عدّة طرقٍ للترميز الذى أدخله جابر فى مؤلفاته الخيميائية، كالمصطلحات الفنية، والكنايات، والمجاز، وتبديد عناصر المعلومات فى مواضع عديدة من المؤلفات(ص١٢-١٣، هامش رقم (١).

عندما ينتقل لورى إلى إحدى الفِكَر الأساسية فى مؤلفات جابر، وهى (مفهوم الميزان)، فإنه يستهل شرحها اعتماداً على ما يرد فى كتاب (التصريف) بقوله: "كان جابر واثقاً بأنَّ كلَّ ما يحدث

فى عالم المحسوسات والعوالم العليا الروحانية ناتج عن ترتيب مُنَظَّم، عن تركيب متناغم من الحركة والسكون يختلف كَمَّاً، ويمكن قياسُه، عن (تأليف عددى) يعود إليه بُنى جميع الموجودات ونظام جميع العوالم والأجناس. هذا ما يقدِّمه (كتاب التصريف) فى شكل أسطورة النفس الكلية المتيَّمَة بالجوهر الذى يشغل الدائرة التى دونها مباشرة. تحتلُّ النفسُ هذا الجوهَر وتَعْتَورِهُ، ومنْ ثَمَّ تتداخل مع الدوائر الأربع التى يضمّها هذا الجوهر: دوائر الحرارة واليبوسة والرطوبة والبرودة. فيحدث خليط من هذه المركبات الستة حتى يصل إلى عالم المحسوسات. كلُّ ما يظهر هناك يكتسب صفاته الخاصة، حسب نسبة الطبائع وشدة النفس التى يمثِّلُها. إن نظام النَسبِ هذا هو ما يُشار إليه بعبارة (الموازين الطبيعية)".(ص١٣-١٤).

وفى الوقت الذى يوضح لورى أن الموازين تشمل ما هو محسوس وما هو غير محسوس، فإنه يشير إلى أن جابر لا يُلمِّح إلا بصورة عابرة لما هو غير محسوس(ص١٤).

وضمن بيانه لأهمية الموازين العليا يشير لورى إلى أنها تشكّلُ موضوع العلم الإلهى الذى هو الهدف النهائى للحكيم الخيميائى، وهذا ما لا يتحدث عنه جابر إلا باختصار، ذلك أنَّ معرفة الموازين تنتج عن تجربة روحية يعجز عنها الوصف، ولا تُـتْقَنُ علومُها إلا بعد تعلم الموازين السفلية(ص١٥).

ويوضح لورى أنَّ الموضوع المباشر لنظرية جابر الخيميائية، والذى خصص معظم مؤلفاته له، هو الموازين الطبيعية، التى تمثل علم الموازين بالمعنى الدقيق(ص١٥).

وينبه لورى إلى تأثر ما يسميه "النظرية العامة للخيمياء الجابرية" بـ"مفاهيم الفيزياء المعتمدة عند علماء اليونان"(ص١٦)، ويشير إلى استخدام الأطباء العرب لتصنيف جالينوس (Galenus) لشدة الطبائع الأربع فى المواد المعدنية والنباتية والحيوانية، وذكر جابر لهذا التصنيف، واستعماله عند اللزوم، وتطويره، باعتماد منهج دقيقٍ ومضمون، وهو ميزان الحروف، الذى صرح جابر أنه أخذه عن تراث القدماء، وزعم أنه خَبِرَ صحته وفعاليته عملياً(ص١٦-١٨).

وعن هذا الميزان يقول لورى: "إنه ينطلق من مبدأ أن الاسم الذى يشير إلى مادة ما يعبِّرُ تماماً عن طبيعة الجوهرية، بموجب المماثلات العامة فى الخلق بين الظاهر والباطن، وبين المعانى والحروف"(ص١٨-١٩). ويبيّن لورى أنَّ جابر يقسّم حروف الأبجدية الثمانية والعشرين على مجموعات أربع، تتشكل كل منها من سبعة حروف تقابل الطبائع الأربع ودرجات الشدة الثمانية والعشرين الممكنة(ص١٩).

وبعد أن يشرح لورى كيفية العمل فى (ميزان الحروف)، ويشير إلى المشكلات العويصة التى واجهت جابر فيه، يوضح أنَّ جابراً اعتبر (ميزان الحروف) حجر الزاوية للبحث العلمى، ارتكازاً على تصور عام للغة الإنسانية، ينظر إليها باعتبارها ليست نتيجة صدفة أو اتفاق قام بين أفراد المجموعات الاجتماعية، وإنما هى فى طبعها تتجانس مع كنه الأشياء التى تدل عليها(ص٢٢).

ويتحدث لورى عن نظرية لجابر عامة فى اللغة مفادها "إن اللغة بحدِّ ذاتها تماثل الخيمياء. وكما أنَّه لا بُدَّ من وجود عدة حروف لتحقيق لفظٍ ما، وكما أنَّ تكوين الكلام المتماسك المفيد يتطلَّب ترتيباً محدوداً لمفردات اللغة، كذلك يكوّن مزاج الطبائع المواد البسيطة، وتراكيب هذه المواد تولد الأكاسير"(ص٢٣-٢٤). ووفقاً للورى فإنَّ اللغة فى رأى جابر ترتبط بالبنية الأصلية للشىء، وتعبّر عن أهم ما فى كُنْهِهِ، واللغات ليست نتائج اتفاق إنسانى، بل هى جواهر قائمة

بذاتها(ص٢٤). ويشير لورى إلى أن كل اللغات الإنسانية بإمكانها أن تستعمل فى الخيمياء لميزان الحروف، وأنَّ جابر يعطى أمثلةً على ذلك انطلاقاً من الفارسية واليونانية والإسكندرانية والحميرية، وإن كان يعد اللغة العربية هى الأكثر توافقاً مع هذا الاستعمال(ص٢٥). ويتناول لورى موقف جابر من تصنيف النحويين الثلاثى للمفردات، وإفادته من علم العروض، مستشهداً برأى (باول كراوس) حول تطبيق جابر لعلم العروض اليونانى(ص٢٦).

إنَّ العديد من التلميحات والاستطرادات فى أهم نصوص جابر – كما يرى لورى – تكشف لنا كيفية إدخاله العلوم الأخرى، الدنيوية والباطنية الخفية، فى منهجه النظرى العام(ص٢٧).

ويرى جابر أنَّ الموازين تشرح أغلب العلوم التى تسمى بـ(العلوم الباطنية) أو (الخفية)، وتمكِّن من تطبيقها، ومنها: علم الخواص، والطلسمات، وعلم استخدام العلويات السماوية(ص٣٠). ويبين لورى أنَّ كل هذه العلوم، فى رأى جابر، تعود إلى ظواهر طبيعية، ويمكن أن تفسر بواسطة قوانين موازين الطبائع الأربع(ص٣٠-٣١). وكمثال على ذلك فالسحر، وما يشابهه حقائق واقعة، وهو ناتج عن تطورات طبيعية بسيطة، أسبابها مجهولة، لأنها غير مرئية ولا محسوسة، وإنَّ التوصل إلى معرفة الموازين التى تحكم ماهية الأشياء، ومطابقتها مع خواصها الخفية، يمكِّن من استخدام هذه العلاقات السحرية(ص٣١). ووفقاً لجابر فهذا كله غير ممكن دون استعداد فطرى وإرشاد معلم حقيقى(ص٣١).

هنا يصل لورى إلى بيان الفكرة الأكثر خطورة عند جابر، وهى كيف أن التحكم بالقوى الخفية للجواهر الأرضية يمكن ليس فقط من صناعة الجواهر المعدنية - وهذه هى الخيمياء بحد ذاتها - وإنما أيضاً الحيوانات والبشر(ص٣١). ويرى لورى أن جابر تأثر فى مبادئ علم التكوين ببعض النظريات الوثنية القديمة، كما يوضح أنه استلهم فى نظريته الموازينية من العلوم الخفية القديمة، التى سرعان ما طبعت بالطابع العربى الإسلامى، خصوصاً فى الأوساط الشيعية الهامشية(ص٣٢).

ويقرر لورى أنَّ ما يسميه بـ(علم الكونيات) عند جابر، وتقسيم العلوم، يجمع بين مبادئ أفلاطونية مُحْدَثَة وهِرْمِسية وغَنُّوصِيّة، على اعتبار أنها كانت القاعدة الفكرية المشتركة لعدد كبير من المناهج الفلسفية فى ذلك العصر(ص٣٤)، وإن كان لورى يرى أن ما يُلاحظ عند جابر هو الخطوة الأولى العملية، والربط بين الخيمياء واللغة(ص٣٤). يقول لورى: "إن الاتفاق المتميز بين دلالات اللغة الإنسانية ودلالات المظاهر الطبيعية فى فكر جابر هو، بصورة ما، نوع من الحرص على إيجاد فعالية عملية"(ص٣٤).

ويخلص لورى إلى القول: "ولنلاحظ مِنْ ثَمَّ أنَّ المنهج الجابرى للموازين يدلُّ على ثقةٍ عميقة بقدرة العقل الإنسانى على فَهْم الواقع وتحويله، فالطبيعة ليست بالنسبة له دَفْقاً هيرقليطياً لا يُدرك، والأفلاطونية المتضمِّنَة فى تفكيره تجعله يؤمن بدقة القوانين الكلية وصرامتها، دون أنْ تكبح جماحَ اشتغاله بالمحسوس والخاص. فى هذا المستوى الأوَّلى لا يحتوى الفكر الجابرى على عناصر مشبوهة فى نظر المذهب الرسمى للموحِّدين، إسلاميين كانوا أم مسيحيين. إنَّ علم الكلام سيؤكِّد بالطبع قدرةَ الإله المباشرة على المخلوقات، وسيدحض الاعتقاد الدَهْرِىّ فى نظام آلى للكون، أطلقه خالقٌ بعيدٌ لا مبالٍ. ولكن جابر لا يُدْلى مُطْلَقاً بآراء ذات طابع مذهبى فى هذا الموضوع. غير أنَّ جرأتَهُ واضحةٌ فى نظرية علم التكوين. فإنَّ فكرةَ توصُّل المرء إلى تكوين كائن

حى هى فكرةٌ غريبةٌ مُفْزِعَة بالنسبة للمبادئ القرآنية فى مفهومها الشائعة. ولكن أن يجعل من هذا الكائن كائناً عاقلاً. فذلك يُعَبِّرُ عن أنتروبولوجيا مرفوضةٍ، سواء من قبل الفلاسفة أو المتكلمين"(ص٣٤-٣٦)❐

# تأملات في آية الاصطفاء

**إعداد: صالح شيخو الهسنيانى**

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١-٣٢]

فالفريق الأول- ولعله ذكر أولاً لأنه الأكثر عددا - (ظالِمٌ لِنَفْسِهِ)، تربو سيئاته فى العمل على حسناته.

والفريق الثانى وسط (مُقْتَصِدٌ)، تتعادل سيئاته وحسناته.

والفريق الثالث (سابِقٌ بِالْخَيْراتِ، بِإِذْنِ اللَّهِ)، تربو حسناته على سيئاته..

ولكن فضل الله شمل الثلاثة جميعاً، فكلهم انتهى إلى الجنة، وإلى النعيم الموصوف فى الآيات التالية، على تفاوت فى الدرجات.

وقال بعض العلماء: قدّم الظالم، لأنه لا يتكل إلا على رحمة الله، والمقتصد هو المعتدل فى أموره، لا يسرف فى جهة من الجهات، بل يلزم الوسط.

**تعميم البشارة:**

ولما أريد تعميم البشارة، مع بيان أنهم مراتب فيما بشروا به، جىء بالتفريع، فى قوله:

فمنهم ظالم لنفسه... إلى آخره. فهو تفصيل لمراتب المصطفين، لتشمل البشارة جميع أصنافهم، ولا يظن أن الظالم لنفسه محروم منها، فمناط الاصطفاء هو الإيمان والإسلام، وهو الانقياد بالقول والاستسلام.

وقدّم - فى التفصيل - ذكر الظالم لنفسه، لدفع توهّم حرمانه من الجنة، وتعجيلاً لمسرّته.

وفى المراتب الثلاث أقوال كثيرة:

(1 الظالم هو الراجح السيئات، والمقتصد هو الذى تساوت سيئاته وحسناته، والسابق هو الذى ترجّحت حسناته.

(2 الظالم هو الذى ظاهره خير من باطنه، والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه، والسابق من باطنه خير.

(3 الظالم هو الموحّد بلسانه، الذى تخالفه جوارحه. والمقتصد هو الموحّد الذى يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف. والسابق هو الموحّد الذى ينسيه التوحيد عن التوحيد.

(4 الظالم: صاحب الكبيرة. والمقتصد: صاحب الصغيرة. والسابق: المعصوم.

(5 الظالم: التالى للقرآن غير العالم به، والعامل بموجبه. والمقتصد: التالى، العالم. والسابق: التالى، العالم، العامل.

(6 الظالم: الجاهل. والمقتصد: المتعلم. والسابق: العالم.

(7 الظالم: أصحاب المشأمة. والمقتصد: أصحاب الميمنة. والسابق: السابقون، المقربون.

(8 الظالم: الذى يحاسب، فيدخل النار. والمقتصد: الذى يحاسب، فيدخل الجنة. والسابق: الذى يدخل الجنة من غير حساب.

(9 الظالم: المصر على المعصية. والمقتصد: هو النادم والتائب. والسابق: هو المقبول التوبة.

(10 الظالم: الذى أخذ القرآن ولم يعمل به. والمقتصد: الذى عمل به. والسابق: الذى أخذه، وعمل به، وبيّن للناس العمل به، فعملوا به.

(11 وقال الحسن: (السابق): من رجحت حسناته. و(المقتصد): من استوت سيئاته. و(الظالم): من خفّت موازينه.

(12وقال سهل بن عبد الله: (السابق): العالم. و(المقتصد): المتعلم. و(الظالم): الجاهل.

(13وقال ذو النون المصرى: (الظالم): الذاكر لله بلسانه فقط. و(المقتصد): الذاكر بقلبه. و(السابق): الذى لا ينساه.

(14 وأن المراد بالظالم لنفسه: من زادت سيئاته على حسناته. وأن المراد بالمقتصد: من تساوت حسناته مع سيئاته. وأن المراد بالسابقين بالخيرات: من زادت حسناتهم على سيئاتهم.

(15 الظالم لنفسه: العاصى. والسابق: التقى. والمقتصد: بينهما .

(16 الظالم لنفسه: هو الذى يموت على كبيرة لم يتب منها. والمقتصد: هو الذى مات على

صغائر، ولم يصب كبيرة لم يتب منها. والسابق: هو الذى مات تائباً من كبيرته وصغيرته، أو لم يصب ذلك، فيحتاج إلى توبة.

الأقسام الثلاثة، والحمد لله، تعود إلى الأمة الإسلامية:

قال عمر وابن مسعود وابن عباس وكعب وعائشة، وأكثر المفسرين: هذه الأصناف الثلاثة فى أمة محمد(صلى الله عليه وسلم). وجمهور العلماء على أن هذه الأقسام الثلاثة تعود إلى أفراد هذه الأمة الإسلامية، وجميعهم يدخلون الجنة.

فالظالم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

وقال أبو سعيد الخدرى، والضمير فى يَدْخُلُونَها عائد على الأصناف الثلاثة، قالت عائشة: دخلوا الجنة كلهم. وقال كعب الأحبار: استوت مناكبهم وربّ الكعبة وتفاضلوا بأعمالهم، وفى رواية: تحاكت مناكبهم.

لا يشمل الاصطفاء الكافر والمشرك:

قال (ابن القيم): "ومحال أَن يكون الكافر والمشرك من المصطفين، لأن الاصطفاء هو الاختيار، وهو الافتعال من صفوة الشيء، وهو خياره. فعلم أَن هؤلاء الأصناف الثلاثة صفوة الخلق، وبعضهم خير من بعض: فسابقهم مصطفى عليهم، ثم مقتصدهم مصطفى على ظالمهم، ثم ظالمهم مصطفى على الكافر والمشرك". (طريق الهجرتين).

وروى أبو الدرداء: أنّ النبى (صلى الله عليه وسلم) قال: (يَجِيءُ هَذَا السَّابِقُ بِالخَيْرَاتِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ بِلاَ حِسَابٍ، وَيَجِيءُ هَذَا الْمُقْتَصِدُ فَيُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً، ثُمَّ يَتَجَاوَزُ اللهُ عَنْهُ، وَيَجِيءُ هَذَا الظَّالِمُ فَيُوقَفُ وَيُعَيَّرُ وَيُجْزَى وَيُغَرَّف ذُنُوبَهُ يُدْخِلُهُ اللهُ الجَنَّةِ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، فَهُمْ الّذِينَ قَالُوا ﴿الحَمْدُ لله الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أىْ: غفر الذنب الكبير، وشكر العمل القليل ). (الطبرانى).

وروى أيضاً أبو الدرداء: أنّ النبى (صلى الله عليه وسلم) قال: " أَمَّا السَّابِقُ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالْمُقْتَصِدُ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً، وَأَمَّا الظَّالِمُ فَيُحْبَسُ فِى طُولِ المَحْبَسِ، ثُمَّ يَتَجَاوَزُ اللهُ عَنْهُ ". (الطبرانى)، (يراجع: طريق الهجرتين).

وروى أسامة بن زيد أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قرأ هذه الآية، وقال: كلّهم فى الجنّة، وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية، ثم قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (سَابِقُنَا سَابِقٌ، وَمُقْتَصِدُنَا نَاجٍ، وَظَالِمُنَا مَغْفُورٌ لَهُ). (قال الألبانى: ضعيف)❐

# حمير تقدمّوا .. عقلاء تأخرّوا!

**د.عبد الحكيم مختار**

✍ حدثنى صديق عراقى، يعمل منذ سنوات عدّة طبيباً استشارياً فى إنكلترا، قال:

كطبيب استشارى أشرف على مستشفى تخصصى فى إنكلترا ، كل سنة يلتحق بمستشفانا عدد من الإنكليز من خريجى كليات الطب، ليتمرّسوا، ويُصبحوا بعد ستة أشهر يقضوها فى مستشفانا فى التدريب، ليتخرّجوا بعدها أطباء متمرسين.

فى السنة المنصرمة، التحق بمستشفانا ستة من هؤلاء الطلبة الإنكليز. وبعد إكمالهم ستة أشهر فى التدريب المتواصل، ومشاركتهم لى فى إجراء عشـرات العمليات الجراحية، أقمنا حفلة تخرّج لهم فى نادى المستشفى، ومنحتهم شهادة دبلوم الممارسة.

فى اليوم التالى نصحتهم أن يجروا عمليات جراحية للمرضى القادمين الجدد، لكن – ولعدد من الحالات فقط – أن يشترك ستتهم فى إجراء العملية، ثم ثلاثة ثلاثة، ثم كل جرّاح منهم يجرى عملية جراحية بمفرده. واعتقدت أن فترة تدريبهم، وكثرة حالات العمليات الجراحية التى شاركونى فيها، جعلتهم فعلاً أطباء متمرسين، قادرين على الاعتماد كلّ على نفسه لأىّ حالة قادمة.

فعلاً قدم إلى المستشفى مريض مُسن بحاجة إلى عملية جراحية فى صدره، وأوصيتهم – الستة – بالذهاب معاً إلى صالة العمليات، ليبدأوا عملهم كفريق عمل واحد، وإذا حصل أمر طارىء أن يتصلوا بى من خلال جهاز الإنذار المعلّق فى خاصرتى.

لم تمض نصف ساعة حتى دّق جرس الإنذار عندى، فركضت مسرعاً إلى صالة العمليات، لأرى عجباً.. رأيت الأطباء الستة متخبطين لا يدرون كيف يسيطرون على وضع المريض.

أسرعت فى المعالجة، وسيطرت على وضع المريض، وأرسلته إلى العناية المرّكزة، وكتب الله للمريض بهذا السبب عمراً جديداً.

أثناء قيامى بالسيطرة على وضع المريض – وأنا فى أشد الانفعال والذهول – كنت أنطق بكلمات لم أنتبه لها إلا بعد أن أنهيت عملى، وذهبنا أنا والأطباء الإنكليز الستة إلى نادى المستشفى.. فى النادى خاطبنى أحدهم - وكان يبدو أنه أعقلهم، قائلاً: يا دكتور بعد أن اتصلنا بكم، وقدمتم إلى صالة العمليات، وأثناء انهماككم فى السيطرة على وضع المريض، كنت تتفوّه بكلمات غريبة.. قلت: مثل ماذا؟ قال: قلت لنا، وأنت منفعل:

Really, you all are donkeys. I don't know how you. Britain become the Empire which never sunsets down.

بمعنى: حقاً، كلكم كالحمير، ولا أعرف كيف أصبحت بريطانيا بكم إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس.

فقلت له: حقاً، فإننى جداً مستغرب من عقولكم، وكيف بعد أن أمضيتم معى ستة أشهر، وشاركتمونى فى إجراء عشـرات العمليات الجراحية، وما إنْ تركتكم لتعتمدوا على أنفسكم، أنتم الأطباء الستة، حتى أثبتم عكس ما كان متوقعاً منكم.. وعذراً، إذا كنت نعتتكم بالحمير.. ومع ذلك امتدت امبراطوريتكم يوماً إلى أن غدت لا تغيب عنها الشمس لسعتها.. حقاً لا أعلم سّر هذا التناقض!!

قال الذى هو الأعقل بينهم: وماذا عن الحمار، إنه حيوان أليف مسكين ومطيع، فماذا كنت تقصد من وراء ذلك؟!. قلت: كل ذلك صحيح، ولكننا نحن الشـرقيين نقصد بالحمار أنه حيوان غبى، لا عقل له ولا ذكاء.. أنا آسف حقاً، ولكن هذا ما تبّين لى من عملكم معى، وتوضّح لكم ذلك مؤخراً فشلكم - أنتم الستة - فى إجراء العملية الجراحية الأخيرة..

بعد برهة من صمت وتفكير، أردف هذا الأعقل بينهم قائلاً:

حقاً كما تقول، فإننى أيضاً أفكر فيكم أنتم الشرقيين عموماً، حيث لا يمضـى على قدومكم إلى بريطانيا إلا سنوات قليلة حتى تصبحوا أعلاماً بارزين فى مجالات الطب والهندسة والقانون... إلخ. وأضاف: وتبيّن لى أننا نحن الإنكليز ٩٠% منا فعلاً كالحمير تابعون، لكن الـ١٠% الآخرون العقلاء هم الذين يحكموننا.. فالنتيجة أننا بهم تقدّمنا.. بينما أنتم ٩٠% منكم عقلاء أذكياء، لكنكم تابعون ساكتون، والآخرون الحمير الـ١٠% هم الذين يحكمونكم، فأصبحتم بهم هكذا متأخرين. وأضاف:

ألا ترى أن قطيعاً كبيراً من الخرفان، أو الحمير، المساكين، هل يستطيعون قيادة عاقل واحد؟ كلا.. ولكن هذا العاقل الواحد باستطاعته قيادة المئات لوحده. فلا أدرى لمن يكون المستقبل عندكم، لأولاء أو لهؤلاء؟.

لم أتحمل قوة تحليله، وجميل استنتاجه، فنهضت أقبّله من جبينه مراراً.

وحقاً تمّ التوصل إلى نظرية جديدة فى علم الاجتماع السياسى، مفادها:

هنالك: العقلاء القلّة يحكمون، والآخرون – الأغبياء المحترمون الساكتون – يتبعون.. فيتقدّمون.

هنا: الأغبياء القلّة المحترمون يحكمون، والآخرون – العقلاء الساكتون – يتبعون .. فيتأخرون.

فى عالمنا الثالث: فرض علينا أن نقدّم الشكر وعظيم التقدير والولاء للأغبياء المحترمين!

ولا حول ولا قوة إلا بالله❐

# بين وهم الفشل وقوة الإرادة..

**زهراء مؤيد رمضان/ الموصل**

✍ بين وهم الفشل وقوة الإرادة تموت أمم وتنهض أخرى..

يفشل في دروسه ليوبّخه والده، فيترك المدرسة رغماً عنه ليعمل مع والده، قد يفلح أو لا يفلح في عمله!

ويبقى محروماً من الدراسة من عثرة واحدة..

وآخرٌ، عمله متعب، وتنهال عليه المشاكل، فيستسلم، ويتكأ على قارعة الحرمان يندب حظه المشؤم..

ونسى أن عقارب الساعة لن تتوقف عليه..

وفي مكان ما، هناك من فشل في اختياراته، فترك عقله ليأخذ برأى الآخر يُسيّر حياته.. جعل من ذاته آلة بلا تفكير..

من الأفضل لو غيّر تفكيره، لا مبادئه..

وهكذا، يتدّرج وهم الفشل ليتغلغل كالسرطان المميت، فيميت كل نجاح ببطء قاتل .. يقتل كل أمل..

في الضفة الأخرى من نفس العالم..

هناك من يصنع من أوجاعه صحة..

ومن آلامه فرحة.. ومن قلبه حباً.. ومن طموحه أملاً.. ومن ضعفه قوة..

شخص قالوا له أنت فاشل، فابتسم، وقال في نفسه: ربما يقصدون أنه أول درب النجاح..

وآخر قاموا بإخباره أن حياته صعبة، ولن يحقق شيئاً، فقال: أحب المغامرات..

وهناك من دمرّ طموحه، فنهض وبدأ بناءه، لأنه يؤمن أن العظماء صنعوا من فشلهم مجداً..

بدأوها بعثرات.. زلّة قدم.. دمعة.. تفكير.. قلق.. حزن.. ثم عزّ ورفعة.. وقمم..

حياتنا، نحن ندوّنها؛ إما خيراً أو شراً.. إما نجاحاً أو فشلاً.. إيجاباً أو سلباً.. كرهاً أو حبّاً.. لتكون حياة، أو موت الحياة..

وتستمر الحكايات بعدّة صيغ، ولسنا إلا شخصيات تتأرجح بين وهم الفشل وقوة الإرادة.. ويبقى الصراع..❐

مرافئ

# الإعلام والسياسة، أيهما يصنع الثاني ؟!

**د.يحيى عمر ريشاوى**

احتل الارتباط الوثيق بين بيئتى الإعلام والسياسة مساحات واسعة من الكتابات الإعلامية والسياسية، وشجّع الباحثين على تحليل هذه العلاقة الارتباطية، وفكّ طلاسمها، وذلك من خلال البحوث والدراسات الأكاديمية، والكتابات التشخيصية، والرؤى والتصورات الاستبصارية.

حين تراقب البيئة السياسية تلاحظ التأثيرات القوية للإعلام، ومؤسساته، فى تحريك البيئة السياسية، وتغيير مسار العملية السياسية، أينما وكيفما أراد.. والملاحظ لتاريخ وسائل الإعلام يلمس هذه التأثيرات، منذ عصر الطباعة إلى عصر الفضائيات والإعلام الجديد (البديل)؛ وكما أحدثت المطبعة ثورة كبرى فى شيوع الكلمة والمعرفة، وخلقت صراعاً بين السلطة الدينية والسياسية وبين الطبقة المتنورة، فإن الإعلام الجديد - والمتمثّل بمواقع التواصل الاجتماعى، وغيرها- خلق أيضاً بيئة سياسية افتراضية، ومجالاً للتعبير، والنقد، ومراقبة السلطة السياسية، لم يسبق لها مثيل.

وحين تنتقل إلى الجهة الأخرى، وتحاول أن تدرس تأثير البيئة السياسية على البيئة الإعلامية، فإنك ستحصل على عشرات الأمثلة الواقعية، والدالة على هذه الحقيقة؛ منذ عصر صناعة الراديو، الذى ظهر إلى الوجود بفعل أحداث الحرب العالمية الأولى، ومحاولة الجيوش المتحاربة تسهيل اتصالاتها على السفن الحربية، إلى إطلاق أول قمر اصطناعى، نتيجة للصراع السياسى الحاد بين الاتحاد السوفيتى (السابق) والولايات المتحدة الأمريكية، أثناء الحرب الباردة، إلى أن نصل إلى عصر الانترنت، وكيف أن وزارة الدفاع الأمريكية شجعت الباحثين لربط مجموعة من أجهزة الحاسوب بعضها مع بعض، وذلك للحفاظ على وثائقها السرية والعسكرية.

ومن الناحية الأكاديمية والتحليلية، فإن الدراسات تؤكد على أن وراء الطرح الإعلامى للدول والحكومات فلسفات ورؤى سياسية مختلفة تحرّك الماكنة الإعلامية، وتحدّد مسارها. وكانت نتيجة هذه الدراسات العديد من النظريات الإعلامية، على سبيل المثال لا الحصر: النظريات (السلطوية- الحرية - المسؤولية الاجتماعية، وغيرها).

من خلال كل ذلك نستنتج أن طبيعة العلاقة بين كل من السياسة والإعلام هى علاقة ارتباطية وثيقة، ولا يمكن تصوّر حركة سياسية، أو مجالاً للعمل السياسى (وخاصة فى عصرنا الحاضر)، بدون محرّك ومروّج إعلامى يقوم بوظيفة الدعاية لها، ولا يمكن تصوّر مؤسسات إعلامية خالية من تناول الشأن السياسى.

وأخيراً، وكما يقول أحد السياسيين، كاشفاً للعلاقة القوية بين السياسيين والإعلاميين: كاد الإعلاميون أن يكونوا سياسيين، وكاد السياسيون أن يكونوا إعلاميين!❐

# شؤون سياسية

| | |
|---|---|
| -حـوار الوفاق العراقى بين المهام والمستحقات | على رسول الربيعى |
| - مقاربات المسألة الكوردية.. | خليل إبراهيم |
| - أحداث السادس عشر من أكتوبر | سرهد أحمد |
| -الإرهاب البوذى | د.سعد الديوجى |

# حـوار الوفاق العراقي
# بين المهام والمستحقات

**علي رسول حسن الربيعى**

**جامعة ابيردين/ بريطانيا**

✍ يعانى العراق اليوم من انقسـام طـوائفى عـلى صـعيد الاجـتماع السـياسى، أدى إلى انتهـاك التقاليد التاريخية لقيم العـيش الجماعـى المشـترك، والمقـاييس السياسـية للدولـة الموحـدة. لـذا يتطلب الحال هذا حواراً تجتمع حوله مكونات المجتمـع العراقـى، جـوهره العمـل عـلى تجـاوز تلك الإنقسامات.

ولكي يتمتع الحوار بالفاعلية والإنجاز، يتطلب تهيئة شروطـه الماديـة، والفكريـة، ابتـداءاً مـن وسائله وإجراءاته، إلى تحديـد مضـمونه وقضـاياه. وأن يـأتى هـذا مـن موقـع تشـخيص الأسـباب الحقيقية للصراع، والنقاط الجوهرية للاختلاف.

إن من متطلبات هذا الحوار أن يأتى فى سياق مشروع وطنى شامل، يسوّغ السلم الأهلى وفـق صيغ وقواعد سياسية متواضع عليها، وخاضعة لضوابط قانونيـة يعـترف بهـا الجميـع، وأن يكـون هناك اعتراف متبادل بين القوى التى يتألف منها الوجود الاجتماعى.

فالمطلوب إدارة الحوار وفق مشـروع مسـتقبلى لدولـة ذات معطـى، يحـدّده منطقهـا الـذى يطمح إلى فضاء وطنى إيجابى جديد، وإلى (توافق أساس) بين القناعات المتعددة.. توافق لا يمكن

للمجتمع أن يتجاهله، إنْ أراد أن يستمر موحداً. ودولة لا تحاول أن تفـرض هـذا المعنـى، أو ذك النمط، من الحياة.

**حوار التوافق الأساس:**

تقـع عـلى الدولـة المتعـددة المكوّنـات، حيـث تجتمـع تحـت سـقفها مفـاهيم مختلفـة، وإرادات متنافسـة، مهمـة تجنّـب انفجـار الهويّـات، وتـوفير شروط مؤسسـية، لتعزيـز الـروابط الاجتماعية والثقافية. وكل ذلك يحتاج ابتداءً إلى (توافق أساسى)، تسهم فى بنائه مفاهيم جديدة، لا من خلال توافقات متصلبة أو كليَّة، بل طبقاً لتفاهمات متماسكة.

ولكـن إلى أىّ حـدّ سـيتحقق هـذا التفـاهم ويستمـر؟ إنّـه يتوقـف عـلى الوضـع التـاريخى، والعوامـل الفاعلـة، والمتغـيرات، التـى يحـدّدها الحـوار التـوافقى الـوطنى، ومنطـق المشـاركة السياسية. فالمشاركة تعنى ضرورة النظر بعين الاعتبار إلى مواقف ومصالح المكوّنـات الاجتماعيـة كافة من القضايا الأساسية، والعمل على التوفيق بينها، وقيـام دور للقـوى المعتدلـة داخـل هـذه المكوّنات، فذلك مما ييسّـر من عملية التوافق.

إن مشاركة المكوّنات الاجتماعية كافـة فى السـلطة الفعليـة، تفـترض تعيّنهـا بشخصـيات ذات صفة تمثيلية فى أوساطها، وتحظى بتأييد الطوائف الأخـرى، وتتميـز بالاعتـدال والـوعى السـياسى القائم على رؤية سياسية.

فتحقيق التعايش السلمى فى المجتمعات المتعددة، يتوقف - إلى حد كبـير - عـلى الأشـخاص الذين يتولون إدارة شـؤونه. كـما يفـترض منطـق المشـاركة تعـاون المكـوّن الاجتماعـى، ووقوفـه بجانب القرارات التى تأتى كثمرة لهذا التعاون. إذن لا بد من هذه الشـراكة، مـن أجـل الحفـاظ على مقومات التوازن الاجتماعى.

إن (التوافـق الأسـاس) هـو الأسـلوب الـذى يقـود إلى إقامـة السـلم الأهـلى والاسـتقرار فى المجتمعات المتعـددة. إنـه يتعلـق بـالعيش المشـترك، والإرادة المشـتركة لحـل الصـراعات بطـرق سلمية، والقبول بالمؤسسات التى تضمنها .

إن ممثلى المكوّنـات الاجتماعيـة والآيـديولوجيات المختلفـة، مـدعوون للتـدرب عـلى التفكـير والعمل ضمن روابط شاملة، وإنفاذ مشروع للعدالة، وتحقيقها، بصفتها الشكلية والإجرائيـة، وأن يتمّ التوّصل إلى أحكـام لا تقـوم عـلى دوافـع ذاتيـة، أو فئويـة، كالطائفـة، أو العـرق، أو العلاقـة الشخصية، أو المصلحة المادية، أو المزاج الشخصى، بوصف ذلـك مـن أسـباب التحيّـز فى الأحكـام، وعوائق تحول دون تحقيـق العدالـة المجـردة. وكـذلك النهـوض بحـوار يبحـث فى سـبل الاتفـاق الوطنى الشامل، ابتداءً من تقديم الضمانات من قبل كل طرف، للمساعدة فى بناء الثقة المتبادلة

بين كل الأطراف، وتهيئة الجو النفسى للوفاق الوطنى، ومواجهة الصعوبات بشكل عقلانى وشفاف، والعمل على كل ما يشعر المواطنين بما هو مشترك فى تقاليدهم .

**استراتيجية الحوار:**

إن من مقومات الحوار الناجح، هو التفكير فى الأهداف التى تحمل معنى فى سياق الوفاق، طبقاً للوضع الراهن؛ وفى القيم التى تضمن الوفاق، والقناعات التى يمكن الإقرار بها. وبناءً عليه، تقع على الحوار الوطنى مهام يستدعى إنجازها، ومستحقات سياسية قائمة، مطلوب النهوض بها، منها: تقديم حلول عملية مستندة إلى رؤية سياسية متماسكة.

فإذا كانت السياسة، فى أحد أوجهها، ابتكار الصيغ والأفكار، وإجرائها بالفعل، لإدارة الشأن العام، فإن على أطراف الحوار مهمة صياغة استراتيجية متكاملة، تحل عقدة المشاركة، من خلال رؤى متضمنة لمجمل مواقف مكونات المجتمع، المتمثلة فى أطرها السياسية، وقياداتها الدينية والاجتماعية، وكذلك اقتراح وسائل فض النزاع، وإدارة الاختلاف، وصولاً إلى تحقيق الإجماع العام حول القضايا الخلافية المطروحة، فى أولوياتها، وفق منطق وبنية الدولة المنشودة. إذ من الأسس الموجّهة للحوار، أن يدور الاهتمام بشكل الحكم، بصرف النظر عمن يحكم. وأن يرافق هذا استعداد نفسى وفعلى، ومن موقع المسؤولية التاريخية، لإنجاح الحوار ابتداءً، بتهيئة شروط الحوار، والقبول بحلول وسطى، بعيداً عن حسابات الربح والخسارة القصيرة المدى، والجمع بين النزعات المتباينة. فعندما يطغى التصلب والتعصب، فإنه لا يؤدى إلا إلى التنافس والتصادم. فى حين من الضرورى، فى أجواء الحوار، أن يكون التبارى فى القيام بممارسات أخلاقية ــ سياسية وإنجاز التسويات، كي يتسنى لكل ممثلى المكوّن الاجتماعى، تبنّى قيم على مستوى البلاد، تتعلق بالسعى الحثيث لإحلال السلم الاجتماعى والسياسى، أىْ السعى لإحلال مشروع العدالة بين المواطنين، واحترام الانتماء الذاتى، مذهبياً كان أم اجتماعياً أم سياسياً، والاعتراف بالتعددية المذهبية والفكرية والثقافية فى المجتمع.

فعلى الرغم من كل التوترات والانقسامات الطائفية، ورغم عدم الاستقرار الأمنى، والانتكاسات الحاصلة، فإن احتمالات التعاون الشاملة من أجل مصلحة الجميع، لا تزال قائمة، ولها مسوغاتها. ومن هنا تأتى أهمية الحوار الوطنى فى هذه اللحظة.

إن من مهام القوى المشاركة فى الحوار إنجاز مشروع وطنى يشخّص مجمل العوامل المسببة للمشكلات الحادة القائمة، واقتراح الخيارات، والبدائل، وإجراءات الحل، بدءاً من عملية نقد شاملة للأوضاع القائمة، وتجاوز العوائق التى تواجه تحقيق وحدة النسيج الاجتماعى، وبناء الدولة. مشروعٌ يطرح السؤال الأكثر إلحاحاً: ما هى الشروط الجوهرية التى تمكّن العراقيين من الاستمرار كشعب واحد، ويعطوا مظهراً وحدوياً لحياتهم الاجتماعية؟ وما هى الشروط اللازمة التى يمكنها أن تنقذ البلاد، حتى تدخل تاريخاً آخر، ومختلفاً؟ ما هى المبادىء الأساسية التى ينبغى أن تسير بموجبها القوى السياسية والدينية والثقافية الفاعلة؟

المطلوب مشروع وطنى يتجـاوز (الاتفاقـات) الحاصـلة، التـى توحّـد الاتجاهـات المسـبّبة للمحاصصة، وتحصرها بين طالبى النفوذ والسلطة فقط، من أجل قيام (توافق أساسى) عـلى حـدّ أدنى من القيم والقواعد والمواقف الجماعيـة، والاعـتراف المتبـادل بـين القـوى التـى يتـألف منهـا الوجود الاجتماعى، المعزّز بالإرادة السياسية الشــرعية، والخاضـع لضـوابط قانونيـة يعـترف بهـا الجميع. فلا مجال لحياة سياسية سلمية، من دون هذا الحد الأدنى الذى ينبغى أن نكشفه دومـاً من خلال الحوار التواصلى الفعّال، ومن دون توافق أخلاقى ـ سياسى مسبق.

صحيح على الدولة أن تلتزم الحياد، إلا أنه لا يمكنها أن تتخلى عن القيام بتحقيق حدّ أدنى من (التوافق الأساسى)، خصوصاً فيما يتعلق فى بعض القيم الأخلاقية، والقواعد السياسـية، والمواقـف الجوهرية، التى تأتى من خلال إصلاح مؤسسـاتها، ودمقرطـة حياتهـا السياسـية، وتنميـة مجتمـع مدنى مستقل، والاعتراف بحقوق المساواة والعدالة، والتوزيع العادل للثروة الوطنية.

إن (التوافق الأساسى) لا يعنى قطعـاً توزيـع سـلطة الدولـة عـلى الطوائـف مـن أجـل تـدعيم كياناتها على حساب كيان الدولة، بل هو مشاركة اختلاف المكوّن الاجتماعـى فى السـلطة، بقصـد إنشاء دولة لها القدرة والإجـراء عـلى اسـتيعاب المكونـات كافـة، بحيـث تـتلاشى قـوى الطوائـف السياسية، وتبقى مؤسساتها الدينية والاجتماعية.

إن هذا من مقدمات إيجاد طريقة للعمل السياسى تتجاوز ظاهرة ممارسـة السياسـة بغـير أدواتها ووسائلها المعروفة؛ فمثل هذه الظاهرة هو ما يديم العنـف واسـتمرار الصــراع، ولا يـدع للتنافس السياسى السلمى أى مكان. فلا بد من الإقلاع النهائى عن سياسة الإستئصال، بوصفها حلاً أسوء من المشكلة ذاتها، إذ إنها تفرز استبداداً سياسياً، مـما يـؤدى إلى دفـع ثمـن إنسـانى بـاهض. فالمطلوب من الحوار التفكير فى كيفية إحلال قاعدة المساواة المعيارية الطابع، مكان العلاقة غـير المتوازية فى ناموس القوة.

إن الحكم نظام وليس بعقد سياسى. فالعقد إذا تمّ بمعزل عن المجتمع، أىْ بين مجموعـات المحاصصة توافقياً، لا يكون ملزماً إلا بما يتواطىء عليه فرقاءه، الذين قد يغيّرون الشــروط التـى أجمعوا عليها، أو يلغوا الاتفاق الذى عقدوه متى شاؤوا. لذا لا يكون العقد ملزماً بالتنفيذ، مـا لم تقم الدولة بضمان تلك الاتفاقات الشخصية بموجب قانون صريـح، حيـث تصـبح العلاقـة عامـة آنذاك، أىْ بعيداً عن وضع المحاصصة، وخاضعة لقاعدة سابقة على عملية التعاقد .

الحاجة إلى مشروع وطنى يحدد الأهداف التى تحمل معنى، والقيم التـى تضـمن الوفـاق، ويحقق القناعات التى يمكن الإقرار بها.. مشروع يحمله كل ممـثلى المكـوّن المجتمعـى، ويحمـل بدوره استراتيجية واضحة وشاملة، تنطلق من مسبّبات النزاع القائم، نحو تحقيق السلم الـدائم. فلا سلام إن لم يتفق على وجود حل للصراعات السياسية ـ الاجتماعيـة، دون اللجـوء إلى العنـف. كذلك لا نظام تشريعى من دون إرادة مشتركة تحترم الأنظمة والقـوانين. ولا وجـود للمؤسسـات

من دون عقد اجتماعى حقيقى. ومن الأهمية الالتفات إلى مسألة تهيئة الوسائل الفعالة لإشاعة ثقافة سياسية جديدة ومعاصرة، تحمل قيم التعددية والتسامح فى تهيئة شروطها، على مستوى الإرادة والثقافة الجمعية، والأنظمة القانونية للدولة .

إن الحاجة ملحة لحوار وفاق وطنى، معزّز بالشرعية الناتجة عن الإجماع العام، بوصفها أحد أهم عوامل الاستقرار. وتثبت الماجريات الفعلية للمشاركة السياسية المفتوحة، بعيداً عن استغلال المشاعر القبلية والعرقية من قبل مجموعة معينة، أو المشاعر الطائفية من قبل مجموعة أخرى، وتكون المشاركة مفتوحة للجميع من خلال حقّ الحصول على الفرص المتكافئة للمساهمة فى إدارة الشأن العام.

إن أحد أهم المشاكل التى تقف عائقاً أمام تحقيق التوافق الوطنى، هو اعتبار الطائفة فى العراق جماعة موحدة ذات مصالح واحدة، من قبل السياسيين الذين يجهدون فى ترسيخ ذلك بين أفراد الطائفة، باستخدام مختلف وسائل التعبئة الطائفية، وأشكال الممارسات (السياسية) الطائفية، بالإضافة إلى تقاسم مواقع السلطة فى الدولة وفقاً لمحاصصات طائفية. والنتيجة انصراف ولاء المواطن بالدرجة الأولى إلى طائفته لا إلى الوطن، فيحصل الصراع الطائفى. ثم إن أىّ تدخل من قبل الهيئات الدينية فى الشأن السياسى، معناه تأجيج مواقف الأطراف الأخرى.

وكذلك ما يؤجج العنف الطائفى هو المشاريع السياسية الطائفية، وعمل النخب السياسية على تطييف السياسة، وعلى نقل تاريخ الاختلاف المذهبى الدينى إلى مجريات اجتماعية وسياسية حاضرة، مما يأزم الاجتماعى والسياسى.

**مهمة الحوار الناجز :**

تقع على الأطراف المشاركة فى الحوار مهام عديدة، ابتداءً من تحديد المواقف، وما يترتب عليها من تعيين مصالح كل طرف، وتحديد الخيارات المطروحة بالفعل، وضمن أية معايير مطروحة سلفاً، كأساس للتوصل إلى اتفاق دائم. إن أحد أهم مهام الحوار المطروحة هو أن يكون هدفه الوصول إلى تعزيز الهوية الوطنية، من خلال بناء مجتمع يتقدم فيه الولاء للوطن على الولاء للجماعة، والانتماء الوطنى على الانتماء الطائفى والعشائرى.

إن أحد أسباب فشل قيام دولة المواطنة، وفشل الانتقال من الفرد الطائفى إلى الفرد المواطن، هو تغليب المحاصصة الطائفية على منطق الدولة. لذا من المستحقات المطروحة اعتماد سلسلة من الخطوات، تتمثل فى تحرير الدولة من هيمنة المحاصصة الطائفية، التى يتقاسم ممثلوها السلطة والمغانم، إلى دولة مؤسسات. وكذلك الانتقال من الصراع الطائفى إلى توازن سياسى يتخطى الطوائف. وأن تقترن الممارسة السياسية بذهنية جديدة، تضع المؤسسات فوق الأشخاص الذين يمارسون السلطة.

وكذلك تقع على أطراف الحوار مهمة تشخيص المشكلات والعوائق التـى تحـول دون التحـول الديمقراطى السلمى، أو ما يصطلح عليه فى الفكر السياسى المعاصر Problems of Democratic Transition and Consolidation، بوصف البلاد تمر الآن بمرحلة يمكن تصنيفها بنظام مـا بعـد الحكم التسلطى، حيث يمكن أن تعزز إجراءات الديمقراطية، أو قد يحصل كسر للعملية برمتها.

إن وجود أهداف متناقضـة ومتصـارعة، لا يلغـى إمكانيـات التعامـل مـع المشـاكل الأساسـية والحارقـة، إذا كانـت الأطـراف ملتزمـة ومهيئـة نفسـياً للـدخول فى حـوار، اعـتماداً عـلى صـفات سياسية، ومواقع اجتماعية. إن هذا الحوار يستدعى تجاوز ما هو قـائم، والتعامـل مـع المشـكلة مباشرةً، بدون محاولة حلها بامتيازات جوهرية. كذلك ضرورة توفر القابلية عند كل طرف، عـلى رؤية الوضع كما يراه الطرف الآخر. وأن يكون المتحـاورون مسـتعدين ليحتفظـوا بـالحكم، بيـنما يختبر كل طرف آراء الطرف الآخر ،حيث قد يعتقد كل طـرف أن آراءه صـحيحة، بـالقوة نفسـها التى يمتلكها الطرف الآخر. لذلك المطلوب من المحاور تفهّم وجهة نظر الآخرين، مـما قـد يـؤدى إلى تعديل بعض آرائه، وهذا ما قد يسمح بتقليص مساحة الصراع، ويساعد - فى الوقت نفسـه - على تطوير تسويات وبلورة المصالح، بشكل أفضل. فمن فضائل الحوار فسح المجال ليناقش كـل طرف مدركات الطرف الآخر .

إن أحد الطـرق الناجحـة للتعامـل مـع المـدركات الاختلافيـة، هـى فى توضـيحها وتـداولها مـع الأطراف الأخرى بالتفصيل، فتوصيل قضـايا يرغـب المحـاور فى قولهـا، وترغـب الأطـراف الأخـرى سماعها، بشكل علنى ومقنع، قد يكون أفضل الاستثمارات التى يستطيع أن يقدمها المحاور.

**منطق إدارة الحوار الفعال:**

ليس الحوار جدلاً، أو سجالاً، ولا هو محاكمة، بقدر ما هو اعتراف، من قبـل المتحـاورين، بأنهم يرون الموقف بشكل مختلف، وعليهم الاستمرار فى الحوار، بوصفهم أمام مشكلة مشـتركة. فعلى المتحاورين تجاوز مسألة شرح واستنكار محفزات ونوايا الطرف الآخر، والتركيز على وصـف المشكلة، وتأثيرها على الطرف المتحدث، لا على ما فعله الآخر، ولماذا.. فـالمهم بالنسـبة للمحـاور الوصول إلى غرض معين وواضح.

إن الطرق الفعالة لإدارة الحوار تأتى من خلال إنجاز مستحقاته، التى تتمثـل فى: أولاً: أن يركز المتحاورون على البحث عن المصالح، لا عن المواقف. وثانياً: أن ينظر المتحاورين إلى أنفسهم كشركاء فى بحث واقعى، من أجل التوصل إلى اتفاق عادل ومفيد لكل الأطراف. وثالثاً: مـن المهـم نقل طريقة الحوار من المواجهات المباشرة إلى التعاون، جنباً إلى جنـب، وطـرح المشـاكل بشـكل واضح. بمعنى أن يكـون حـاضراً عنـد الأطـراف، أن عـدم التوصـل إلى تحقيـق المصـالح المشـتركة، سيكون من الصعب على أى طرف تحقيق مصالحه الخاصة. فلا بد من النظر إلى الحوار كعمليـة

مشتركة بين الأطراف كافة. فكلما تمكنت الأطراف من وضع أساس للثقة المتبادلة، كان ذلك أولى خطوات الحوار الناجح. إنّ بناء عملية الحوار بشكل يمثّل فعالية مشتركة، ضرورةٌ، تتلاقى فيها الأطراف على اختلاف مفاهيمهم ومصالحهم.

إن محل النزاع من الثغرات الخطيرة فى الحوار، وهو يجعل العلاقة المتوترة تتفاقم، إلى أن تبلغ درجة الحقد والكراهية للطرف الآخر، بحيث يعتقد كل طرف أن الخلاف بينه وبين الطرف الآخر خلاف وجودى، لا يمكن حسمه إلا بالإفناء والإلغاء .

وتأسيساً على هذا، تكون الخطوة الأولى التى يتعيّن الإقدام عليها، فى أىّ حوار فعلى، أو مفترض، هى تحرير محل النزاع، وتعيين وجه الخلاف بين الطرفين (أو الأطراف) المعنيين، وذلك حتى تسدّ الطريق أمام كل من يريد تحريف النقاش عن مساره. وذلك حتى تنكبّ المناقشات والمحاورات على قضايا حيوية، تهمّ حاضر الناس، وتمسّ همومهم الفعلية.

إن المهام الأساسية للحوار، هى الكشف عن المصالح والمتطلبات الأساسية التى تكمن خلف المواقف المعلنة من قبل أطراف الحوار، والنظر فى إمكانية تلبيتها، لأن ذلك يضاعف من فرصة التوصل إلى اتفاق تلتزم به الأطراف كافة. فالغرض من الحوار هو لتحقيق المصالح، وأن الفرصة لحدوث ذلك سوف تزداد عند الكشف والإعلان عنها، فلربما لا يعرف أحد الأطراف بماهيّة مصالح الأطراف الأخرى على وجه التحديد. وبدلاً من العودة إلى تظلمات قديمة، لا بد من التركيز على اهتمامات مستقبلية، ومناقشة المصالح بطريقة بناءة، وبدون التشبث بمواقف متصلبة. وتقع على كل طرف مهمة أن يجعل الطرف الآخر مدركاً لأهمية وشرعية مصالحه عند الأطراف الأخرى. فجزء من التأثير على الجانب الآخر، هو أن يؤسس كل طرف شرعية لمصالحه. ثم تقع على المتحاورين مهمة البحث فى كيفية الانتقال من تحديد المصالح إلى تطوير خيارات للتوافق، مع المحافظة على مرونة هذه الخيارات.

إن الحلول الأكثر حكمة هى الحلول التى تحقّق الوفاق، وتعود على أطراف الحوار بفائدة كبيرة، مع أقلّ كلفة. يأتى ذلك بدفع المصالح إلى السطح بشكل واضح، مما يحفّز على التفكير فى ابتكار حلول ذات فائدة متبادلة. ثم إن المهارة فى ابتكار خيارات متعددة، هى واحدة من أكثر الأمور المفيدة التى على المحاور امتلاكها بكفاءة. كذلك من الأهمية تشخيص الحاجة الحقيقية لمجموعة الخيارات المطروحة. إذ قد تعتقد بعض أطراف الحوار بحوزتها الحل المناسب للنزاع، وإن وجهة نظرهم هى التى يجب أن تسود، ولكن عند الدخول فى مجريات عملية الحوار ستعرف أن عروض الآخرين تمتلك المعقولية، والمشروعية أيضاً. والتفكير المبدع هو الذى يجترح الاقتراحات، ويتجاوز الخلافات. إذ فى أكثر الحوارات هناك عقبات رئيسية قد تقف عائقاً أمام ابتكار خيارات متعددة، ومعظمها يتعلق بالأحكام المسبقة، والانغلاق المسبق. إنها عوائق لأنها توجه الحوار، ومنذ البداية، للبحث عن حل مثالى واحد، مما سيضيع فرصة إيجاد الحل الأكثر واقعية ومقبولية. لذا على أطراف الحوار أن تجعل عملية التحاور والتفاوض وكأنها اختيار بين

مجموعة كبيرة من الحلول الممكنة. فقلّة وجود الخيارات المطروحة، تدلّ على أن كل طرف يـرى الموقف بشكل جوهرى واحد وثابت، أىْ على أنه موضـوع: إمـا .. أو؛ فإمـا أحصـل عـلى كـل مـا أتنازع من أجله، أو تحصل عليه أنت .

من الطبيعى أن يوجّه كل طرف اهتمامه للوصول إلى اتفاق يحفظ مصالحه، لكن هذا الوضـع يتطلب تطويراً لحلول لا تأتى بدورها إلا من خلال حوار يحفظ مصالح الأطراف الأخرى أيضاً. قـد تكون المصالح المشتركة فى كل حوار تفاوضى مستترة بداية، لذا تقع على كل طرف مهمـة التفكـير بها، والكشف عنها. فتشخيص هذه المصالح يساعد على إيجاد حلول تحظـى بـالقبول والاتفـاق، وما يمكن أن تنتهى إليه.

تتعلـق بعـض مجريـات الحـوار بـين الأطـراف المتخالفـة عمومـاً، بمـا يطلـق عليـه علـماء (التمثلات). فالتمثلات تلعب دوراً كبيراً فى إنجـاح أو إفشـال الحـوار.. والمقصـود بـالتمثلات ــ فى سياق الحوار ـ تلك الصور الذهنية التى يحملها كل طرف عن الطرف الآخـر، وعـن الأفكـار التـى يؤمن بها، والمبادئ التى يعتنقها. وتبلغ هذه التمثلات درجـة مـن التعقيـد والحساسـية، بحيـث يتعذر - فى كثير من الأحيان - الإمساك بخيوطها، وفهم خلفياتها، وتحديد منطقها.. فهى عادة ما تكون مغرقة فى طابعها الذاتى الشخصـى، إذ تتحكم فيها التجارب الخاصـة للفـرد، أو المجموعـة، والمـؤثرات التربويـة والتوجيهيـة المتنوعـة. فتكـون الحصـيلة - فى آخـر المطـاف - أن الفـرد (أو المجموعة) يعيش فى عوالم رمزية، تؤطّر وعيه، وتوجّه سلوكه. وفى كثير من الأحيـان تكـون هـذه التمثلات مجرد استيهامات لا أساس لها من الصحة، تجعـل الفـرد (أو الجماعـة) فى حالـة تفاعـل غير سوى مع محيطه.

إن الحوار هو السبيل الأفضل لصياغة حلـول مبتكـرة، تلبّـى مصـالح الأطـراف كافـة. وإنـه يمَكِّن من إدارة سلمية للاختلاف، وتطوير علاقات مثمرة. إنه الوسيلة الأنجع للوصول إلى تحقيـق المصالح المشـتركة، وتطويرهـا مسـتقبلاً، وتأكيـد المبـادىء الأساسـية فى الحريـة والعدالـة، وعـدم المساس بالشخص المواطن. إنه يكشف عن ضرورة التضامن تجاه التحديات التى تواجه المجتمع، بكافة مكوناته، ووضع حد للأوضاع التى تحتقر حقوق الإنسان والتعددية. وكذلك إيجـاد طريـق للمستقبل، يقود إلى المصالحة بين المذهبية والثقافيـة والتقاليـد، ووضـع حـد للانقسـامات التـى يغذيها التمييز الطائفى، والدعوات المعادية للآخر، فى المجتمع العراقى.

إن الأطراف كافة مدعوة للتعاون فى تحقيق السلم الأهلى، وإقامة دولة جديدة، ومحايـدة، فى مفهومها العام. دولة تتقبل الطوائف، والأعراق، والآيديولوجيات، المختلفة❐

# مقاربات المسألة الكوردية..
# المراوحة بين الحل السلمي والأمني

**خليل إبراهيم**

✍يتوّخى هذا المقال بيان الجوانب السلبية والإيجابية الناتجة عن المقاربات الأمنية والسياسية في التعامل مع المسألة الكوردية، في كل من العراق وإيران وتركيا وسوريا، مع التركيز على الآفاق المستقبلية لهذه المسألة الحيوية في المنطقة.

فالكورد شعب عريق وأصيل في هذه المنطقة من العالم، حيث يعيش على أرضه، ويمتلك خصوصيته اللغوية والثقافية، ويشكل جزءاً من النسيج الاجتماعي لشعوب المنطقة، عاش قضايا الأمة الإسلامية، ودافع عنها، وساهم في العطاء والبناء الحضاري في مختلف المجالات، وسجّل حضوراً متميزاً في ميادين التضحية والفداء.. ولكن العقلية العنصرية، والسياسات الشوفينية التي مارست الظلم والقهر والإقصاء والتهميش والصهر القومي، أفرزت جملة من الأزمات، أشعرت الكورد بالغربة، وهاجس ضياع الهوية، وتهديد الوجود.

فالمسألة هي قومية، إثنية، قائمة على أساس اللغة والدم والعرق والانتماء والتاريخ والمصير المشترك والإرادة الجمعية، وهي - في الحقيقة - جزء من أزمة الدولة القومية التي ظهرت في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى، وكإحدى إفرازات اتفاقية (سايكس – بيكو)، وإثر ذلك

سمّيت المسألة بـ(المشكلة الكوردية)، بما تلقى وتحمل من معان سلبية، وكأن وجود هذا الشعب على أرضه في حد ذاته مشكلة.. فبدلاً من أن يقال: المشكلة التركية، أو الإيرانية، أو العراقية، أو السورية، يقال: المشكلة الكوردية!، لذلك كانت هناك منهجية خاطئة في التعامل معها، على اعتبارها (مشكلة)، فكانت هنالك مقاربات في التعامل معها للقضاء عليها، وليس لحلّها سلمياً، ومعالجتها سياسياً.

- **تقارب خيارات الأنظمة في التعامل مع المسألة الكوردية:**

في النصف الأول من القرن الماضي سلكت الأنظمة السياسية في كل من إيران الشاهنشاهية، وتركيا الطورانية، والعراق الملكي، نهجاً متقارباً في التعامل مع الكورد، واختارت التعامل الأمني مع قضيّته، حيث كانت حصيلته إهدار الطاقات البشرية، والثروات الوطنية، واتّساع هوّة الانقسام المجتمعي، إضافة إلى ردّات أفعال موازية في اللجوء إلى القوة المسلحة، فاندلعت ثورات وانتفاضات كوردية، وكانت المطالب الكوردية تنحصر ما بين الاعتراف بالهوية والحقوق الثقافية والحكم اللامركزي، وبين دعوات ومطالب تطمح إلى الحكم الذاتي والفدرالية ونوع من الاستقلال، مثل مطالبات (الشيخ محمود الحفيد) في كوردستان - العراق، وإعلان جمهورية كوردستان في مهاباد – إيران، من قبل (قاضي محمد) ورفاقه، وحركة الشيخ (سعيد بيران) في تركيا. وكان معظم قادة هذه الحركات من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية، وكانت تحمل طابع الجمع بين رفع المظلومية عن الكورد، والدفاع عن الإسلام، والوقوف ضد أعدائه.

وأما في النصف الثاني من القرن العشرين، فقد استمر الحلّ الأمني كسمة رسمية ورئيسية تجاه المسألة الكوردية في كل من تركيا وإيران، بينما تراوحت المقاربات للمسألة الكوردية في العراق بين الحلّ السلمي والحلّ الأمني - العسكري، فكانت الحكومات العراقية المتعاقبة، بدءاً من (عبد الكريم قاسم)، ومروراً بـ(عبد السلام عارف)، وأخيه (عبد الرحمن عارف)، وانتهاءاً بحزب البعث، حين تتعرّض إلى إخفاقات ونوبات من الضعف، نتيجة عوامل داخلية وخارجية، تلجأ - إضطراراً - إلى المقاربة السلمية للتعامل مع المسألة الكوردية.

فمثلاً، أقرّ (عبد الرحمن البزاز)، رئيس الوزراء العراقي عام ١٩٦٦، نظاماً لا مركزياً، كطريقة لحل المسألة الكوردية، والاعتراف بالحقوق الثقافية، لكن النخبة العسكرية أجبرته على الاستقالة، وشكّلت حكومة انتهجت الحل الأمني مرة أخرى.

وفي سنة ١٩٧٠، أعطى نظام (البكر – صدّام) الحكم الذاتي كصيغة للحل، ولكن تبيّن من خلال الممارسات، فيما بعد، بأن ذلك كان سياسة تكتيكية، وكسباً للوقت، لتقوية النظام البعثي، وترسيخ أركانه، من خلال وقف إطلاق النار في كوردستان بشكل مؤقت.

وبسبب انعدام الثقة بين الطرفين، وشكوك الكورد بنوايا الحكومة العراقية، استغلت القوى الإقليمية الوضع، ولعبت دوراً في إذكاء نار الصراع، دافعة الطرفين نحو التصعيد والمواجهة العسكرية.

لذلك لجأ النظام في العراق إلى المقاربة الأمنية مرة أخرى، فكلّف ذلك الشعب العراقي، والكوردي، الآلاف من الضحايا، وتدمير ما يقارب الـ٩٠%من الريف والبلدات الكوردية، ظنّاً منه أنه سيتمكن من فرض الحلّ الأمني، وإنهاء المسألة الكوردية إلى الأبد.

وخلال حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩٠، أثناء غزو الكويت، وضرب التحالف الدولي لآلة نظام صدام العسكرية، استثمر الشعب الكوردي، الذي كان يواجه حرب إبادة شاملة بالسلاح الكيمياوي، وتدمير المدن والقرى، استثمر تلك الفرصة فقام بانتفاضة شعبية في آذار ١٩٩١، وسيطر على جميع المحافظات والأراضي الكوردستانية، وبعد سحب الحكومة العراقية لإداراتها من المنطقة الكوردية، تمّ تشكيل حكومة إقليم كوردستان إثر انتخابات ١٩٩٢.

وفي هذه الفترة استمرت الحكومة التركية – كما سبق الإشارة إلى ذلك- باتّباع النهج الأمني، وواصلت سياسة إنكار المسألة الكوردية، ما نتج عنها ظهور (حزب العمال الكوردستاني)، والدخول في حرب مدّمرة أدّت إلى مقتل ما لا يقلّ عن خمسين ألفاً من مواطني تركيا، بين كوردي وتركي، وتدمير ثلاثة آلاف قرية، وتسبّبت المقاربة الأمنية أيضاً في اتّساع الهوّة بين الترك والكورد؛ ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً، وأضحت المسألة الكوردية – دوماً- إحدى الأسباب الكامنة وراء الانقلابات العسكرية، وتضييق الحريات، وعرقلة العملية الديمقراطية، حيث شهدت المناطق الكوردية أطول فترات الأحكام العرفية.

أما في إيران، فكانت المقاربة الأمنية السمة الرئيسية لسياسة نظام (محمد رضا شاه بهلوى)، أسفرت عن ردّات فعل عنيفة، تمثّلت في ظهور حركة مسلحة يقودها (الحزب الديمقراطي الكوردستاني).

وفي نهاية السبعينيات، أي قبل ثورة الخميني، ظن نظام بهلوى بأنه تمّت تصفية المسألة الكوردية من خلال الحلّ الأمني، ومع اندلاع الثورة سنة ١٩٧٩، واضطراب الأوضاع في إيران، تمكّنت الحركة الكوردية المسلحة من فرض سلطتها على كامل كوردستان، ولكن النظام في الجمهورية الإسلامية، وبعد مفاوضات قصيرة، لجأ هو الآخر إلى الحلّ الأمني، ومواصلة نفس سياسة الشاه في إنكار حقوق الشعب الكوردي في إيران، ونشب قتال عنيف استنزف طاقات الطرفين، دون حسم المسألة الكوردية إلى يومنا هذا.. ولا زالت المسألة الكوردية تعدّ قنبلة موقوتة، قابلة للانفجار حين تكون هناك فرصة داخلية أو خارجية، فلا مناص من التعاطي معها بسياسة سلمية جادة.

وأما في تركيا، بعد مجيء حزب العدالة والتنمية، فقد تمّ تبنّي المقاربة السلمية في التعاطي مع المسألة الكوردية، وخطت خطوات جيدة في البداية، وكان مهندس تلك السياسة هو الدكتور

(أحمد داود اوغلو)، حيث كانت سياسته مبنيّة على ترسيخ أسس السلام والاستقرار فى الداخل، وتصفير المشكلات مع دول الجوار، بشكل نتج عنها سياسة عرفت بالانفتاح على الكورد من خلال وقف إطلاق النار، وبدأت المفاوضات لحلّ المسألة الكوردية فى إطار الإصلاحات الديمقراطية فى تركيا.

وخلال عقد من الزمن، توجهت طاقات الحكومة التركية نحو المصالحة الوطنية والقبول بالواقع الكوردى، ونبذ العقلية الكمالية التى كانت تنكر الوجود الكوردى، واستطاعت تركيا أن تحقّق الكثير من المنجزات الاقتصادية، حيث شهدت خطط التنمية الوطنية فى البلد أرقاماً قياسية، بشكل تمكنت من توظيف الاستقرار النسبى، وقوتها السياسية الناعمة، فى تقوية مكانتها كقوة إقليمية، واستفاد الكورد – أيضاً - من هذه السياسة، من النواحى الثقافية والعمرانية، وأن يكون لهم حضور سياسى فاعل؛ فمثلاً تمكّن (حزب الشعوب الديمقراطى) من الحصول على ٨٠ مقعداً، فى الانتخابات التشريعية التى جرت فى حزيران ٢٠١٥، والحصول على معظم مجالس البلديات، فى المناطق ذات الأغلبية الكوردية فى تركيا .

**إخفاق الحل السلمى فى تركيا:**

نتيجة لأسباب داخلية وخارجية، وصلت المقاربة السلمية إلى طريق مسدود، وهناك عدّة عوامل ساهمت فى ذلك، منها :

1- تدّخل (حزب العمال الكوردستانى)، ومحاولة الهيمنة على الإرادة والقرار السياسى لـ(حزب الشعوب الديمقراطى).

2- عدم قناعة بعض المتنفذين فى الدولة العميقة بالحلّ السلمى.

3- وجود أياد خارجية عابثة، لا تريد السلام والاستقرار فى تركيا.

- **الآفاق المستقبلية للمسألة الكوردية:**

- نبدأها من العراق...

شهدت الأسابيع الماضية عمليات عسكرية، عرفت باسم فرض القانون أو عمليات كركوك، حيث قامت قوات الجيش، وميليشيات الحشد الشعبى، بدعم وتوجيه من الجارة إيران، بالهجوم على (المناطق المتنازع عليها)، بحجة بسط الأمن، وفرض القانون، وهيبة الدولة، فى تلك المناطق، بينما كانت فى الأساس رداً على استفتاء استقلال كوردستان.

وفى تصورنا، لم تكن الحكومة العراقية جادة أصلاً بالقبول بإقليم كوردستان، رغم إقرار الدستور بذلك فى مواد صريحة، وكانت سياسة فرض سلطة الدولة (بمعنى التنكّر لأىّ نظام فدرالى، أو ما شابه)، جزءاً من سياسة الدولة المركزية، والتى لا زالت تسيطر على عقول النخب الحاكمة فى العراق. وما يعزّز ذلك هو صدور تصريحات قبل الاستفتاء، من بعض قادة الحشد،

وقيادات أحزاب شيعية، بأنهم بعد الانتهاء من عمليات تحرير الموصل سيتوجهون إلى الشمال لفرض السلطة المركزية. علماً بأنه يتبيّن من سلوكيات وتصرفات الحكومة المركزية، عدم إيمانها بالفدرالية، ولا بالدستور، حيث خرقت مواد كثيرة في الدستور، وهذه المواد تعدّ ركيزة النظام الفدرالي: فلم تطبق (الفدرالية)، كما وردت في الدستور، وانهارت أسس العملية السياسية، وغابت روح الدستور في الفكر والممارسة، والذي هو التعايش والتوافق الوطني، والتوازن في المؤسسات، والشراكة الحقيقية، وجرى النزوع نحو اعتماد الأكثرية الطائفية، والاستيلاء على مفاصل القوة والتأثير في كافة مؤسسات الدولة.

ونعتقد بأن التأييد الذي حظي به رئيس الوزراء (حيدر العبادي)، من قبل أمريكا والدول الإقليمية، سيعزز النزعة المركزية، وسيقوّض كل الاتفاقات السابقة بين الإقليم والحكومة الاتحادية.

وقد بدأت ملامح هذه السياسة بالظهور من خلال تصريحات المسؤولين في بغداد، التي ترفض حتى ذكر إقليم كوردستان، وتستخدم مصطلح (شمال العراق)، رغم إقرار الدستور بذلك، في محاولة لإعادة السياسات السابقة، والعودة إلى المقاربة الأمنية والعسكرية في التعامل مع شعب كوردستان.

ولن يقف إقليم كوردستان مكتوف الأيدي، فهو يتحيّن الفرص الداخلية والخارجية لإعادة سلطته في المناطق المتنازع عليها، سواء بالطرق السلمية أو العسكرية، في حال تهيّأت الظروف المناسبة، كأن يكون هناك صراع شيعي – شيعي، أو اصطدام أمريكي إيراني.

ونتيجة لهذا السلوك المتكرر من الحكومة الاتحادية، والعقلية المركزية للنخب الحاكمة في بغداد، فإنّ حلم الاستقلال والدولة يصبح مطلباً ملحاً، وهدفاً منشوداً، خاصة بعد أن تحوّل من فكر نخبة سياسية، إلى مطلب عمومي لشعب كوردستان.

أما في تركيا، فإننا نأمل أن تسعى الحكومة إلى تغليب منطق العقل، واللجوء إلى المقاربة السلمية مع المسألة الكوردية، وفتح باب الحوار والتفاوض، تجنيباً لها من المشاكل وضغوط الورقة الكوردية.

أما مستقبل المسألة الكوردية في سوريا، فيعتمد على التوافقات الأمريكية الروسية، ولكن على ما يبدو لنا سيبقى كيان (غرب كوردستان)، يتمتع بنوع من الإدارة الذاتية، رغم مواقف حكومة دمشق.

ولا شك أن المسألة الكوردية ستشكل عامل استقرار وتنمية ونهوض، إذا كانت هنالك بوادر جادة لحلّها بالمقاربة السلمية، وفق مبدأ حق تقرير المصير، وستبقى عامل توترات وصراعات مكلفة لدول المنطقة، إذا استمر التعاطي معها بالمقاربة الأمنية.

لقد أثبت التاريخ القريب والبعيد بأن المقاربة الأمنية لم تفض، ولن تفضى، إلى تصفية المسألة الكوردية، بل ستعقّدها أكثر، وتفتح المجال للمتربصين باستخدامها كأداة للتدخلات، وبالتالى تجلب الويلات والكوارث والمآسى على شعوب المنطقة.

وكلّ الاتفاقات والأحلاف والمعاهدات بين الدول الإقليمية لن تجدى نفعاً فى حلّ هذه المسألة، ولن تقضى عليها إطلاقاً، مهما رأت تلك الدول أن من صالحها التعاون فيما بينها على حساب المسألة الكوردية.. وتاريخ هذا التعاون الدولى، والإقليمى، ضد تطلعات الشعب الكوردى، يؤكد لنا - بما لايدع مجالاً للشك - فشل هذه السياسة، وعدم تحقيقها لأهدافها❐

• **المقال فى الأصل كلمة تضمنتها ورقة قدمت فى ندوة نظمها مركز الجزيرة للدراسات فى قطر بعنوان (المسألة الكوردية – دينامياتها الجديدة وآفاقها المستقبلية) يومى ٢٥-٢٠١٧/١١/٢٦.**

# أحداث السادس عشر من أكتوبر والتصوّر السياسي الكوردي

**سرهد أحمد**

✍ تضاف أحداث السادس عشر من أكتوبر ٢٠١٧ عملية استعادة حكومة بغداد سيطرتها على المناطق المتنازع عليها مع إقليم كوردستان إلى مخزون التاريخ السياسى العراقى الحديث، المتخم بحوادث الصدام الدموى المسلح، والمترع بالمواجهات العسكرية المدمرة. ولا جرم أن حكام العراق الغابرين أجادوا أساليب استخدام القوة فى جزّ رؤوس خصومهم السياسيين، وتركوا جانباً فن إدارة الصراع السياسى ذاته، وها هم أصحاب السلطة الحاليين يجتهدون فى السير على المناويل نفسها.

وتمثّل تلك الأحداث فى التصوّر المجتمعى الكوردى وبمعايير الممارسة السياسية نكسة تضاف إلى سلسلة النكسات التى صاحبت الحركة التحررية الكوردية.

لكن مفاعيل الأحداث تشكل إعادةً لتركيب التصور السياسى الكوردى من جديد، بحيث أضحى معه السلوك السياسى لـ(السلطة والأحزاب) أكثر تناغماً مع الواقع، لجهة إدراكها أن ما يشاع عن عراق جديد، محض خزعبلات، وأن السلطة القائمة ليست سوى نسخة معدلة للنظام القديم.

سلطة ناكرة لجميل الكورد، ومعروفهم، تناسى متنفذوها سنوات لواذهم بكوردستان، حين كانوا طرائد مستهدفة.. اليوم، وقد اشتدت سواعدهم، ومالت مواقف الدول إلى جانبهم، انقلبوا على وجوههم، غير مكترثين لتحالف، ولا آبهين لشراكة.

وأيضاً، نشأ من إعادة تركيب التصوّر السياسى الكوردى نتيجة لمفاعيل أحداث السادس عشر من أكتوبر، ضبط لإيقاع الشعور القومى، وحركة المطالبة بالاستحقاقات القومية، لجهة التقليل من الزهو المفرط بالبطولات، والتراجع عن التشدّق الزائد بالتضحيات، وأن الدخول فى التحالف الدولى ضد (داعش) لم يكن ضوءاً أخضر لإعلان حق تقرير المصير، بل أقل من ذلك: لم يعن منح الكورد حصانة حتى فى الاحتفاظ بالمناطق المستقطعة، والتى حموها بما جادت بها أموالهم وأنفسهم.

ولجهة معرفة خارطة توزيع القوة على الأرض، ومحاور توازناتها فى البيئة الداخلية، إذ ثبت أن ميزان القوة السياسية والعسكرية مختل، فلا غلبة للكورد فى أى نزاع سياسى أو عسكرى مع سلطة بغداد، فى ظل نسق إقليمى داعم لها على ذينيك الصعيدين.

وأحسب أن القيادات العسكرية الكوردية لأحد طرفى السلطة الفعليين، والمتهمة بالتخاذل، التقطت مؤشرات الخارطة مسبقاً، لذا آثرت الانسحاب على المقاومة فى (خرماتو) و(كركوك) وبقية مناطق النزاع.

ولأحداث السادس عشر من أكتوبر مفاعيل أخرى، وسّعت مدارك العقل الكوردى، وتصوّره السياسى، لناحية اللاعودة إلى فكرة اتخاذ الجبال أصدقاءً تارة أخرى. ففى النسق الدولى الواسع لا ينعدم الأصدقاء، لأن القضية الكوردية ذاتها بلغت شأواً فى اهتمامات السياسة الدولية، وما جرى لا يعدو تحريكاً جديداً لأهمّ وأكبر القضايا التفاعلية فى منطقة الشرق الأوسط والعالم، وإعادة تموضع هذه المسألة القومية فى أجندات الدول الكبرى. وتعدّ دعوة الوفد الحكومى الكوردستانى من قبل حكومات فرنسا وألمانيا وبريطانيا، تجسيداً لتوجّهات ثلاثة من أهم الفواعل الدولية فى هذا المنحى.

وللحقيقة؛ فإن تلك الأحداث تركت جروحاً معنوية غائرة فى وجدان الشعب الكوردى، وآثاراً سيئة على واقعه السياسى، لا قدرة للنظام الكوردستانى الحالى على معالجتها، فالمرحلة حرجة للغاية، تحتم إعادة هيكلة هذا النظام وفق قواعد حديثة، وإلا فإن انفجاراً شعبياً وشيكاً سيفعل أبعد من ذلك، ألا وهو تغيير النظام برمّته❐

# الإرهاب البوذى ....!

**د. سعد سعيد الديوجى**

تتردد فى وسائل الإعلام كافة صيحات مبطنة عن ظاهرة (الإرهاب الإسلامى)، خصوصاً بعد ظهور (مؤسسة داعش) الغامضة، تحت غطاء إسلام مزور، والذى لم يستفد منه إلا أعداء المسلمين، فى واحدة من أعقد الظواهر التاريخية، وأشدها غموضاً، لتتحول هذه الظاهرة إلى حرب عالمية ضروس، تشارك بها الفرقاطات البحرية، والصواريخ الموجهة، ثم تتحول المنطقة إلى كانتونات نفوذ للدول الكبرى، هنا وهناك!.

فالرئيس الأمريكي (ترامب) كان قد كتب فى تغريدة له على موقع (تويتر): "الأمر يتعلق بـ(حرب دينية محضة)، تحمل قدراً كبيراً من الكراهية"، وتساءل (ترامب) فى تغريدته: "متى سترّد الولايات المتحدة، والدول الأخرى؟"، والذى سبق تغريدته بتصريحه لإحدى الصحف عن كراهيته للمسلمين، لأنهم صلبوا المسيح، علماً أن الأناجيل تتكلم بصراحة عن محاولة صلب المسيح من قبل اليهود فى أورشليم.

وتحدث كذلك الرئيس الفرنسى الشاب (ماكرون)، والذى كان يعمل مستشاراً فى بنك (روتشيلد)، قبل تسلمه مهام الرئاسة، عن ضرورة محاربة (الإرهاب الإسلامى).

لقد اختلف مفهوم الإرهاب بشكل مذهل، فمع إيماننا بأن الإرهاب هو محاربة وقتل وتعذيب المدنيين العزل، ونهب ممتلكاتهم، وإحراقها، وطردهم من أماكن سكناهم (تطهير عرقى)، سواء من قبل أفراد أو مؤسسات أو حكومات، لأسباب دينية أو قومية أو اقتصادية، وهو عمل ممقوت ومدان على كافة المستويات، بالنسبة لنا كمسلمين، عملاً بالآية الكريمة، قال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِى الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}(٣٢) المائدة.

إن مسألة كـون (داعـش) مؤسسـة إرهابيـة بامتيـاز، مسـألة لا نقـاش حولهـا.. ولكـن أن تجتمع الدول الكبرى والصغرى لحرب هـذا الـوحش الخـرافى، والـذى ظهـر علينـا بمنـاظر القتـل والذبح على الطريقة الهوليودية، وانخدع بها السذج والبلهاء، بعد اقتناعهم بـأن الأمـر يصـبّ فى خانة الدين، ثم صبّ الأمر فى حقل (الإرهاب الإسلامى)، من دهاقنة الساسة العـالميين، لهـو أمـر له دوافع مشبوهة.

وضمن هذا الإطار، تحوّل الأمـر مـن محاربـة وإدانـة مؤسسـة غامضـة ومشـبوهة، ذات ارتباطات دولية مريبة، إلى محاربة الإسلام كمبدأ، وتشويه مفاهيمـه، وتاريخـه الطويـل، بـبرامج وكتب معدة سلفاً، وباشتراك المغفلين والسطحيين والنفعيين، ممن يدّعون الثقافـة والعلـم، ومـن المحسوبين علينا.

لقد أردنا التنويه للأمر، بعد أن امـتلأت مواقـع الانترنـت والصـحف بالمشـاهد الإرهابيـة البشعة، التى يتعرض لها مسلمو (الروهينجا)، فى إقليم (أراكان)، فى دولة (ميانمار) (بورما سابقاً)، ذات الأغلبية البوذية.

والغريب فى الأمر أن هذه الحرب الإرهابية البشعة تتم برعايـة (الرهبـان)، ذوى الأرديـة البرتقالية، وفى دولة تحظى رئيسة بلادها (سوتشى) بمجد جائزة نوبل للسـلام، والتـى حملهـا مـن قبل (تشرشل)، و(مناحيم بيجن). وعندما نطقت بوحى من الجائزة التى تحملها، قالـت بـأن مـا يشاع عن هذه المجازر مجرد أخبار مضللة.!!

ورغم أن كل الأفعال تصب فى دائرة الإرهاب الدموى، إرهاب (داعش)، بمراتـب عليـا، ألا إننا لم نسمع لا من السيد (ترامب)، ولا من السيد (ماكرون)، الذى تتمتع دولته بتـاريخ إرهـابى-استعمارى متميّز فى قتل الناس، خصوصاً فى أفريقيا والجزائر، كلمة واحدة تصـف هـذه الأعـمال بالإرهاب، ولا من الحبر الأعظم، الذى بارك الرئيسة بعد حصولها على (نوبـل)، ومـن كـل الـدول التى تتغنى بالديمقراطية.

أما أخوة الدين، من العرب والمسلمين، فقد اكتفـوا بالإدانـة خـارج مفهـوم الإرهـاب، ولم يجرؤا على التفوه بكلمة (إرهاب)، ولو لمرة واحـدة!، وعنـدما اسـتجمعوا شـجاعتهم قـالوا بأنهـا حرب طائفية.!

لقد توزّع إرهاب داعش السينمائى على المسلمين وغير المسلمين، ومع ذلك وصفها السـيد (ترامب) بأنها حرب دينية ضد المسيحيين، وهو لا يعرف من صلب المسيح.

ولكن ما هى الطبيعة الإرهابية لما يحدث فى (ميانمار)؟ وإن الحملة الجارية ضد مسلمى (الروهينجا) تقودها جماعة من الرهبان البوذيين الأنقيـاء تسـمى (٩٦٩)، بقيـادة راهـب اسـمه (أشين ويراثو)، يأتمر بأمره قادة من الجيش والشـرطة وميليشـيات مدنيـة، رغـم مـا يشـاع عـن البوذية بأنها دين سلام ومحبة، وأنها لا تلجأ إلى العنف، وهو ما يميّزها عن دين آخر.!!

والحقيقة إن هذه مجرد أوهام وأكاذيب نشرتها الدعاية البوذية، كما أكد ذلك المختص بالدراسات البوذية (مايكل جيرسون)، والذى نشرت مجلة (البيان)، العدد ٣٢٦ ، فى آب من عام ٢٠١٤م، خلاصة دراساته بعنوان (رهبان يحملون السلاح).. يقول (جيرسون): إن البعد الإرهابى فى هذه الديانة موجود فى كتبهم، حتى إن أحد كتبهم المقدسة يتكلم عن قتل بوذا نفسه لأحد كهنة الديانة البراهمية، لما نال من أحد أسفارهم المقدسة أثناء الصراع بين ديانتين.

وفلسفة القتل فى الديانة البوذية تصب فى باب الرحمة للأعداء!، كي يتطهروا من ذنوبهم فى الجحيم، فتنتقل أرواحهم إلى عالم الحقيقة البوذية.. ويشبهون القتل بالإجهاز على بهيمة تعانى داءاً عضالاً.

والأسس الدينية للإرهاب البوذى، بقيادة الرهبان، والذين تبلغ أعدادهم، فى (ميانمار) وحدها، حوالى نصف مليون، يأتى من إيمانهم بأن الوجود مجرد وهم، وأن الحقيقة لا تدرك إلا بتحصيل (النيرڤانا)، أى: (الفناء فى الإله)، أو ما يسمى بوحدة الوجود فى الديانات الأخرى، خصوصاً فى الطرق الصوفية.

وعليه، فقتل الخصوم مجرد حادث فى عالم الوهم، والذين يقتلهم الرهبان يسمّون فى اللاهوت البوذى باسم (أتشانتيكا)، وتعنى: المحجوبون عن النور، والضحايا إنما ينالون الرحمة بقتلهم وتعذيبهم.

هذه بعض جوانب دوافع القتل فى البوذية، التى لا يقتل أتباعها نملة، حسبما يدعون، وينحنى أتباعها بأدب بالغ أمام الناس، وفى نفس الوقت يمارس رهبانهم حرق المسلمين، وقتلهم، ليطهروهم من آثامهم، قبل إرسالهم إلى جهنم، ثم يتّحدوا مع أصنام بوذا الصامتة المنتشرة فى كل مكان.

لقد آن الأوان لوصف ما يحدث فى ميانمار بـ(الإرهاب القذر)❐

رؤية

# الكورد والقدس
# فى ضوء قرار ترمب وأحداث ١٦ أكتوبر

شيروان الشميرانى

✍لا أحاول العودة إلى التاريخ للحديث عن الارتباط بين الشعب الكوردى والقدس الشريف، بل حديثى يكون فى ضوء الأحداث الأخيرة التى شهدها العالم الإسلامى بعد قرار الرئيس الامريكي دونالد ترمب بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس الغربية.. ورد الفعل فى كوردستان...

١. لا شك بأن المعاناة التى ضربت الشعب الكوردى فى عمومه جاءت من إخوان لهم فى الدين خلال المئة سنة الماضية، بمعنى أنهم كانوا مسلمين ولم يكونوا من حملة دين آخر.. هذا الحال ترك أثراً سيئاً على شعور الكورد تجاه كل ما ينظر إليه على أنه عربى، وأثّر حتى على الاهتمام بالمقدّسات، لأن هؤلاء هم أنفسهم الذين يظلمون الكورد دون هوادة منذ مائة سنة كاملة.. وردّ فعل الدول العربية والمجاورة تجاه الاستفتاء فى كوردستان خلق شعوراً باللامبالاة تجاه قرار ترمب حول القدس..

٢. ولهذا جاء رد الفعل فى الشارع الكوردى - فى إقليم كوردستان تحديداً - ضعيفاً، بل غير موجود بالأساس، على خلاف جميع الشعوب الإسلامية، العربية وغير العربية.. فالكورد - فى غالبيتهم - تعامل مع هذا الأمر من منطلق رد الفعل السلبى لما حدث لهم منذ ٢٥ أيلول الماضى، على يد هؤلاء أنفسهم، خاصة بعد الهجمات الشديدة، والمهينة إلى حدّ كبير للشعب الكوردى كله، واتهامهم بأنهم إسرائيل ثانية، ولسان حالهم يقول: إذا كنّا إسرائيل ثانية - كما تقولون - فلم إذاً التعاطف مع قضاياكم، ولم نقف معكم ضد إسرائيل الأولى؟ هذا لسان الحال..

٣. لكن الكورد شعب مسلم، وعبر التاريخ تمكّن شخصان فقط من تحرير القدس من الصليبيين: واحد منهم عربى مسلم اسمه (عمر بن الخطاب)، والثانى كوردى مسلم اسمه (صلاح الدين الأيوبى).. فسوء الآخرين، وابتعادهم عن القيم الدينية فى التعامل مع إخوانهم الكورد، لا يعنى ابتعاد الكورد عن القيم الدينية، والتخلّى عن ما يوحى بحب دينهم

ونبيهم.. فالمسجد الاقصى مبارك بنص القرآن.. والقرآن الكريم فى أول آية من (سورة الإسراء) يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وهى آية نتعبّد بها لله تعالى، فليس المسجد فحسب، بل الأرض التى حولها أيضاً، هى مباركة بنصّ الوحى الإلهى.. إذاً فـ(القدس) ليست كغيرها من الأراضى، فهى ليست القاهرة حتى لا نبالى بما يحدث لها، ولا بغداد، ولا أنقرة، ولا طهران، هى المسجد الأقصى، هى مسرى الرسول الكريم، هى القبلة الأولى لنا، كان أجدادنا من المسلمين يصلّون إليها، وبالتالى لا يجوز الزجّ بها فى أتون صراع قومى خالٍ من القيم الإنسانية والدينية..

٤. سياسياً، إن الانسجام مع سياسات دول الجوار أولى من الركض بعيداً.. لا شىء فى السياسة يكون بديلاً عن الآخر، الكلّ مهم.. لكن الأحداث أثبتت بأن دول الجوار، بما أنهم جميعاً يحملون روح العداء للشعب الكوردى، ليس كأنظمة حاكمة فقط، بل كأقوام وشعوب أيضاً، فهذا يستوجب الانسجام والتوافق معها، حقناً للدماء.. أحداث ١٦ أكتوبر فى (كركوك) أثبتت بأن الغرب ترك الكورد فى أحلك ظروف يمر بها منذ عقود، تركهم للعدو الجار، وللخذلان الداخلى، لأن مصلحة الغرب مع هذه الدول أكبر وأكثر من مصلحتهم مع شعب لا يملك غير أرض وثروات وقوة مسلحة ضاربة، لكنها خارج الأطر الدولية المنظمة.. خاصة أن هناك شبهة تصرّح بها هذه الدول الجارة: بأن الكورد إنْ أصبحت لهم دولة، فستكون مثل إسرائيل. وذكر إسرائيل يرمز إلى البعد الدينى، وليس إلى البعد القومى، علماً أنهم - فى قرارة نفوسهم - يعلمون أنهم كاذبون، لكنهم يقصدون معنى سياسياً قومياً.. فإذا كانت إسرائيل هى كيان دينى، فإن الكورد يشكّلون كياناً قومياً وسط جزيرة من الأعداء، فهم لن يسمحوا لهذه الدول أن تستقر.. لكنهم فى هذا أيضاً كاذبون، إلا أن الذى جعل كذبهم يلقى صدى وتعاطفاً، هو أنهم يلتقطون أخطاء، مثل عدم نزول الشارع الكوردى، أو التعاطف الباهت الجماهيرى فى الشارع الكوردى تجاه القدس، ويلقون الضوء عليها، ويأخذونها سبباً فى تبرير تعدّيهم على هذا الشعب..

ومن هنا، فإن الإدانات – على الجانب الكوردى – يجب أن لا تقتصر على (الاتحاد الإسلامى الكوردستانى)، بل ينبغى أن تأخذ بعداً جماهيرياً، سواء على مستويات الدين أم السياسة..❐

# تراجم عراقية

| | |
|---|---|
| -عالم فقدناه وداعية ودعناه | خليل محمّد |

# عالِمٌ فقدناه وداعية ودّعناه..

**خليل محمّد**

قال تعالى: [كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ](سورة الرحمن، الآية: ٢٦- ٢٧).

ودّعنا الأستاذ (صابر محمّد الزيبارى) إلى مثواهُ الأخير فى الـدّنيا، غـير مأسـوفٍ عليهـا، وتـرك وراءَهُ علْماً نافعاً وأولاداً صالحين إن شاء الله. قال الرسُول (عليه الصّلاةُ والسّـلام): (إذا مَـاتَ ابـنُ آدم انقَطَعَ عملُه إلاّ مِنْ ثلاث: صدقة جارية، أو عِلْمٌ يُنْتَفَـع بـه، أو ولـدٌ صـالح يَـدْعُو لـه) (رواه البخارى ومسلم). ولكنّهُ بفراقِه تركَ فى قلوبنا جميعاً حُزناً عميقـاً، وجُرْحـاً غـائراً، وعيُونـاً باكيـة، ذكّرتنا بالدّمُوع الغالية الّتى ذرفها رَسُولنا المصطفى (عليه الصّـلاة والسّـلام) عـلى ابنـه إبـراهيم، وقال: (إنّ العينَ تَـدْمَعُ، والقلْـبَ يَحْـزَنُ، ولا نقـولُ إلاّ مـا يُـرْضِى رَبَّنَـا، وإنّـا بفِرَاقِـكَ يـا إبـراهيمُ لَمَحْزُونون) (رواه البخارى ومسلم)، ولا عيبَ علينا أنْ نقـول: إنّـا عـلى فِراقِـكَ لمحزُونـون يـا أبـا مسعُود.

لا جرمَ أنّ الأستاذ صابر كان من رجالاتِ العلْم والمعرفة الّذينَ انكبّوا على العِلْـم منـذ نعومـة أظفارِهم، وأنّه حينَ أنهى دراستَهُ فى المدارِس الأهليّة، على عادة الكُورْدِ سابقاً، اختارَ الانخـراطَ فى مدارِس التربية ظنّاً منه أنّها أكثرُ نفعاً، وكـان اجتهـادُه صـحيحاً، فعُـيِّنَ مُدرِّسـاً للتربيـة الإسـلاميّة واللّغة العربيّة فى سنة ١٩٥٩/ ١٩٦٠م، وبقى مـا يُقـارب الـ(٣٣) عامـاً، مُخلِصـاً فى مهنتـه نافعـاً لمحيطِ عمله. وقد أثنى عليه الكثير من رجالِ العلم، وشهدوا له بالذّكر الحسن.. وأذكرُ من هـذه الشهاداتِ الّتى عاصرتُها بنفسـى، حينَ كنـتُ عائـداً إلى (الموصـل)، وفى إحـدى ضـواحيها وقفـتْ بجانبـى سيارةٌ، جلستُ عند سائقها، وبعد هُنَيهة سألنى: أتعرِفُ الأستاذ صـابر الزيبـارى؟ قلـت: إنّهُ شقيقى، فَرِحَ الرّجلُ كثيراً لـذلك، وقـال: أبلِغْـهُ منِّـى السّـلام، فأنـا تلميـذُه وقـاضٍ فى إحـدى المحاكِم الشرعيّة، لقد تعلّمْتُ منه أعواماً كثيرة، وله علىّ بعد الله جـلّ وعـلا الفضـلُ الكثـير، وأنـا أذكرُه فى كُلِّ مجلِس، ثمّ قـال: والله مـا رأيـتُ أخلـصَ منـه فى مهنتِـه عنـد التّـدريس، وأتقـى فى أعماله. وقد أثنى عليه أحدُ طُلاّبه، مِمّن اختصّ بدراسةِ علمِ الفرائض، وكـان يأتيـه فى كُـلِّ مسـاء يتلقّى منه العلْم، وحينما حضر معه المناقشة فى جامعة الموصل، قال الطالِب للأسـتاذ صـابر: أنـا ثمرةُ يدِك، وأنتَ المتفضّل علىّ.

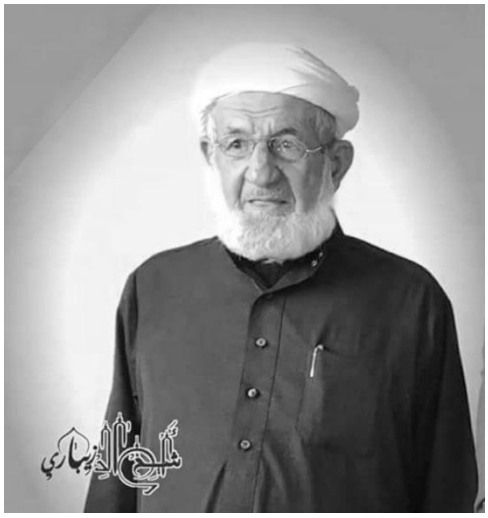

فالأستاذ صابر كان نِعْم الأستاذ، ونِعْم المربّي، قال أحمد شوقي: فارفَعْ لنفسِكَ بعدَ موتِكَ ذِكْرَها... فالذِّكْرُ للإنسانِ عُمْرٌ ثانٍ، أي: اجعلْ لنفسِكَ بعدَ موتِكَ ذِكْرى حسَنة، فالذِّكْرى الحسنةُ للإنسانِ عمرٌ ثانٍ.

أمّا الأستاذ الشيخ (سعُود الجبُورى)، عالِم منطقة (القيارة) - أحدُ تلاميذِه -، فكان لا يشبعُ من ذِكْرِ محاسنِه، وكان يصِفُه بأنّهُ أستاذ الأخلاقِ والعِلْم، وكانَ صدمةً على قلبه حينَ سَمِعَ نعيَهُ، فبكى عليه طُول ليلِه.. قلتُ للأستاذِ صابر مرّةً: لماذا اختارَ الشيخ سعُود كتاب (مُغْنِى اللّبيب)، وهو صعبٌ للغاية؟ فقال: هذا الكتابُ يصنعُ العُلماء. وكان الشّبابُ يتوافَدُون عليه فى جامع (المُلاّ سعيد) ساعاتِ النّهار، ويدخلُون دارَهُ ليلاً.. ولو ذكرتُ أسماءَ المنتفعينَ مِنْ عِلْمِه لطالَ بنا المقام.. سألتُه مرّةً: مَن الّذى أثَّرَ فيكَ أكثر؟ قالَ: عالِمُ دهُوك الشيخ (محمّد عبدالخالِق). كان يُعلّم النّاسَ الأخلاقَ والتّقوى، كما يُعلِّمهم الفقه والنحو، وقد أخبرنا أنّ العِلْمَ النّافِع هو ما يتعلّقُ بالقُرآنِ والسُنّة. وقد نال الأستاذ صابر على يديهِ الإجازة العِلْميّة.

لَمْ يتكلّمُ فقيدُنا الأستاذ صابر على عالِمٍ بشيءٍ قطّ، وكان يقول: "إنّ لحُومَ العُلماءِ مسمُومة، وعادةُ الله فى هتكِ أستارِ مُنتقصيهم معلُومَة". وقد قيلَ: "مَنْ أطالَ لسانُه فى العُلماءِ بالثّلبِ، ابتلاهُ الله قبلَ موتِه بموتِ القَلْبِ". قلتُ لهُ مرّةً: أنا أتردّدُ على مجلسِ عالِمَيْنِ، هُما: الشّيخ عُثمان الجبورىّ، والشّيخ ذنون البدرانى، فقال: هُما رِجالُ الخيرِ والدّعوة، وأنا لا أستطيعُ ذِكْرَ فضلِهما، فهُما بحقّ ورثةُ الأنبياء.

دخلَ الأستاذ صابر يوماً على الشّيخ ذنون البدرانى، وكان عندَهُ عددٌ مِنْ أهلِ العلم والثقافة، وأشكلَ على أحدِهِمْ تفسيرُ آيةٍ فى تفسيرِ البيضاوى - وهو مشهُورٌ بصعوبةِ عباراتِه وكَثْرةِ ما فيه مِنَ النحو والبلاغة - فأجابَهُ فقيدُنا بجوابٍ شافٍ كافٍ، فنال جوابه رِضا الحاضرين. ولَمّا خرجَ الأستاذ صابر، قال البدرانى: إذا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا... فَإِنَّ القَوْلَ ما قالَتْ حَذَام. وقال: إنّهُ حَذَامِ واللهِ فى كُلِّ شىء.. ترى أىّ شهادةٍ هذه أدلى بها الشّيخ البدرانى؟ وحَذَامِ اسمُ امرأةٍ يُضْرَب بها المَثَلُ فى صِدْقِ القولِ، وصِحّة النّقْل. فكانَ الأستاذ صابر حقّاً أصدقَ فى أقوالِه مِنْ حَذَامِ.

تعرّفَ الفقيدُ على (جعفر)، و(إبراهيم)، و(أيّوب)، أبناء (سُليمان الدوسكي)، وهم جميعاً أشقاء، وقد وُلِدُوا مكفوفين، ولَمّا عرفوا بمكانة الأستاذ صابر فى العلمِ والمعرفةِ طلبُوا منه التّدريس فى دهوك، أمّا هو فكان يقطنُ فى الموصل، فكان الأمرُ فى غايةِ الصّعُوبة. ولكن هَلْ يترُكُ أبو مسعُود طَلَبَ طالبِ عِلْم؟ لا، ما هذا شأنُه، وليسَ هذا ديدنُه. فاقترَحَ عليهم التّدريس عن طريقِ الأشرطة المسجّلة، فكانوا يُرْسِلون له الأشرطة، فكان يبدأُ فى تسجيلِ العِلْمِ على هذهِ الأشرطة، وكُلّما سجّل الأستاذ صابر ما يُقارب الخمسين شريطاً، أرسلَها إليهم، فكانوا بدورِهم

يُرْسِلون إليه مجموعة أخرى مِنَ الأشرطة، وهكذا استمرّ الأستاذ على هـذهِ الحالـة أعواماً كثـيرة. فسجّل - على سبيل المثال - تفسير ابن كثير، وتفسير في ظِـلال القُـرآن بكاملِـه، وكتـاب موسُـوعة الأخلاق في (١٤) مجلد ضخم، وكُتباً أُخرى في الفِقْه والنحو والبلاغة، وكُلّ ما لذّ وطاب بين مجلـدٍ واحد ورسالة، ودائماً حسب طلبهم، ولم يشعرُ يوماً بكَلَـلٍ أو مَلَـل، مـا دامَ الأمـرُ يتعلّـقُ بـالعِلْم والأجر.

لا غَرْوَ أنّ عادةَ بعضِ النّاسِ هى الخلُود إلى الرّاحةِ في شهرِ رمضان الفضيل، أمّا فقيدُنا فكـان على العكسِ مِـنْ ذلـك، فكـان لا ينـى وهـو يسـتغلّ الشـهر المبـارك لقـراءةِ الكُتُـب عـلى طُلاّبـهِ المكفوفين، وتلاوةِ القُرآن، ورُبّما لا ينامُ ليله ولا نهاره في سبيلِ العِلْـم ونيـلِ مرضـاةِ الله. لم يـتركْهم الأستاذ حتّى أصبحُوا عُلماء (يُسْتفْتُون ويفْتُون)، ولا يخلو مجلسهم من التّدريس يوماً.

إنْ كنتُ أنسى فلا أنسى حادثةً وقعت مع المرحوم قبلَ موتـه بليلتَـيْن.. قلـتُ لـه: لـو أكرْمتنـا بتناولِ شيء؟ وكنتُ أعلمُ أنّ طعاماً لم يدخل معدته منذ أشهر، إلاّ السّـوائل، عـن طريـقِ الحُقَـن مِنْ إحدى جنبيه. فقال: آه، أشتهى كُلّ شيء. ولكن مصيبتَه كانت أشبه بمـا أصـابَ النبـيّ أيّـوب (عليه السّلام) فصبر، وصبرَ الأستاذ صابر أيضاً.. اللهمّ اعْطِه مِـنَ الأجـرِ مـا يُعْطـى لأيّـوب (عليـه السّلام).

كان ديدنُه في المرضِ، حمدٌ وشُكْر، ودُعاءٌ وقِراءة. ولم يترُكْ صـلاةَ اللّيـلِ إلاّ بعـدَ أنْ أخـذ منـهُ المرضُ كُلّ طاقتِه. وكان يقول: أسهلُ عبادةٍ عليّ الآن القُرآن. إنّهُ كـان حافِظـاً لـه، اللهـمّ فشـفِّعْهُ فيه. قال النبـى (عليه الصّـلاةُ والسّـلام): (إذا أحـبَّ الله العبـدَ نـادَى جِبْرِيـلَ إنّ الله يُحِـبُّ فُلانـاً فأحْبِبْهُ فيُحِبُّه جِبْرِيلُ، فيُنادِى جِبْرِيـلُ في أهـلِ السّـماء إنّ الله يُحِـبُّ فُلانـاً فـأحِبُّوه فيُحِبُّـه أهـلُ السّماء، ثمَّ يُوضَعُ لهُ القَبُولُ في الأرض) رواه البخارى. لـذا، فـما وجـدْنا مُعزّيـاً دخـلَ في مجلـسِ العزاءِ إلاّ والدّمُوع تتقاطُرُ من عينَيْه، ويستغرِقُ في البُكاء.

كم كان الأستاذ صابر يسألُ: هَلْ طلعَ الفجر؟ هل حان وقتُ الصّـلاة؟ وقـد بـكى في أوّل ليلـة من رمضان المبارك، فقلتُ له: ما يُبكيكَ؟ فقال: أوّلاً: لا أستطيعُ على الصّيام، وثانياً: مـا اسـتطعتُ أنْ أُكَمِّلَ لولديّ الباقيين ما أعددتُ لهم في نفسى من منهجٍ دراسيّ. تـرى مـا هـذا الحِـرْص وهـذا الشّوق والشّغف للعِلْم والعِبادة؟

هذا، وقد ذكرَ ابنُ حبّان (ت٣٥٤هـ) (٢٠) تعريفاً للمروءة، منها: تقوى الله، وصِـدْق اللّسـان، وبذلِ المعرُوف، وكفّ الأذى، وحُسن الخُلُق، والعِفّة، والإدمان إلى المساجِد، وكَثْرة الإخـوان في الله، وقِراءة القُرآن، واجتنابِ ما يكره الله مِنَ الفِعَال، واكتسابِ مـا يحـبّ اللهُ مِـنَ الخِصـال. وقيـلَ إنّ المروءةَ هِيَ "اسمٌ جامِع للمحاسنِ كُلِّها"، وقد أسنَدَ ابنُ حِبّان عن بعضهم، فقال: "مجالسـةُ أهـلِ الدّيانة تجلُـو عـنِ القلـبِ صـدأ الـذنُوب، ومُجالسـة ذوى المـروءات تـدلُّ عـلى مكـارِمِ الأخـلاق، ومُجالسة العُلماء تُذكي القُلُوب"، وهذهِ الأوصافُ الّتى ذكرناهـا عـنِ المـروءة كانـتْ مُتجسِّـدة في شخصِ الفقيد على أحسنِ ما يكون.

وكأنّ عُمَرَ بنَ الخطّابَ (رضى الله عنه) كان يعنيه، حـينَ قـال: "إنَّ الرّجُـلَ إذا تَوَاضـعَ لله رَفَـعَ الله حِكْمتَهُ، فهو في نفسه صغيرٌ، وفي أعينِ النّاسِ كبير". بهذهِ النّفسِ الكبيرة عندَ النّاس وفّقكَ الله للصُّلحِ بينَ الأقاربِ والأبَاعِـد، وكـم فتنـةٍ لم يُـؤَمّن وقُوعُهـا لـولا مكانتـه عنـدَ النّـاس، واحـترامُهم لقَدْرِهِ، ووفورِ عِلْمه. و"العالِمُ يُكْرَمُ على غيرِ مال، كالأسدِ يُهابُ وإنْ كان رابِضـاً". وكـأنّ مُعاويـة كان يعنيكَ حينَ قال: "أحسنُ شيءٍ رأيتُه: عَقْلٌ طُلِبَ به مروءة، مـع تقـوى الله، وطلـبِ الآخِـرة".

وكُنتَ تعلمُ أنّ مِنَ العبادةِ الصّلحُ بينَ النّاس، وإشاعةِ القيم الفاضلة بينَهم، وأفنيتَ عمركَ في سبيلِ ذلكَ، علّكَ تفوزُ في إقامةِ صُلْح، أو توفيرِ عملٍ لمعدُوم، أو حصُولِ نفقةٍ من غنيّ لمحتاج.

ولا أنسى أنّي حَفِظْتُ مِنْ لسانه حكمة الإمام الشّافعي (رضى الله عنه)، حينما سألَهُ المزنيّ: يا أبا عبدالله كيفَ أصبحتَ؟ فقال: "أصبحتُ مِنَ الدُّنيا راحِلاً، وللإخوانِ مُفارقاً، ولكأسِ المنيّةِ شارباً، ولسُوءِ عملي مُلاقياً، وعلى الله وارداً، فلا أدري: أرُوحي تصيرُ إلى الجنّةِ فأُهنّيها، أمْ إلى النّارِ فأُعزّيها" ثمّ بكى. وكثيراً ما كان يُردِّدُها في مجالسِ العزاء، وقالَ لطُلّابه مرّةً: احفظُوها، فإنّها قَوْلُ عظيم، وحِكْمةٌ حكيم. ولا أبالغ إذا قُلْتُ: ما مرّ عليه يومٌ إلاّ وكان يأتيه سؤالٌ في الطّلاق، والرضاع، والميراث، وما قَبِل مِنْ أحدٍ ثمن فتواه، ولا صدقة لنفسِه، كبعضِ النّاسِ في هذا الزّمان.

ومن آثارِه العلميّة: (١) تحقيقُ كتاب: خُلاصة الفكر/ في مصطلح الحديث، (٢) تحقيق: رفع الخفا شرح ذات الشفا/ في السيرة النبويّة، (٣) تحقيق: زواهر الزواجر/ لَمْ يُطْبع، (٤) تحقيق: أحاديث تربية الأولاد في الإسلام، للدكتور عبدالله ناصح علوان، في جزئينِ/ لَمْ يُطْبَع.

لهُ مِنَ الأولادِ خمسة بينَ أستاذٍ في علوم القُرآن، والقراءات، وخُطباء مِنَ الدّرجةِ الأُولى، وأستاذ في الجامعة، وللصّغيرِ باعٌ طويلٌ في الأدبِ وحِفظ القرآن، والبناتُ السِت قانتاتٌ قارئاتٌ حافِظاتٌ للقُرآن، مُعظمه إنْ لم يكن كُلّه.

وأخيراً لا يسعني إلاّ أنْ أقول: بارَكَ الله في أولادٍ قُمْتَ بتربيتِهم وإرشادِهم، فهم طيلة (٨) أشهر، كانوا يتسابقون في خدمته، ويتشرّفون في السَّهر عليه كُلَّ ليلة، وكانوا يحيلُونه من طبيبٍ إلى آخر، ومِنْ مُحافظةٍ إلى أُخرى، ومن أربيلَ إلى أنقرة، وكُلّ محاولةٍ كانت عبارة عن مصاريفَ، وأتعاب، وهمُوم، وكثرةِ أوجاع. وكانت وفاته في يوم الجمعة المُوافق ٢٤/ ١١/ ٢٠١٧م، بعد العصر في ساعةِ استجابة إنْ شاء الله، وصلّى عليهِ المئاتُ مِنَ النّاس، ودُفِنَ في مقبرةِ شيخ أحمد بأربيل . رَحِمَ الله الفقيد بواسعِ رحمته، وأسكنه فسيح جنّاتِه، وألهمَ أهلَه وذويه الصّبرَ والسُلْوان. قال أبو العتاهية:

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصيبةٍ وتَجَلّدِ... واعْلَمْ بأنَّ المرءَ غيرُ مُخَلّدِ

فإذا ذكرتَ مُحمّداً ومُصَابه... فاذكُرْ مُصَابكَ بالنبيِّ مُحمّدِ

وفي الحديث: (إذا أصابَ أحدكم مُصيبةٌ، فليذكُرْ مُصيبتَهُ بي، فإنّها مِنْ أعظمِ المصائبِ)رواهُ ابن سعد وصحّحه الألباني، في صحيح الجامع (٣٤٧). وأخيراً: سلامٌ عليكَ يومَ وُلِدتَّ، ويومَ مِتّ، ويومَ تُبْعَث حيّاً. [إنّا لله وإنّا إليهِ رَاجِعُون](سورة البقرة، الآية: ١٥٦).❐

# قراءة في كتاب

| | |
|---|---|
| - كتاب: مدارس الموصل (دراسة تاريخية حضارية) | د.محمد نزار الدباغ |

# كتاب: مدارس الموصل (دراسة تاريخية حضارية)

**عرض : د. محمد نزار الدباغ**

صدر عن دار الكتب العلمية في بيروت كتاب (**مدارس الموصل - دراسة تاريخية حضارية**)، للأستاذ الدكتور على نجم عيسى، وهو كتاب صدرت طبعته الأولى في سنة ٢٠١٧، في حلّة مميزة، وغلاف فنى أنيق، وبلغ عدد صفحاته (٦٠٨) صفحة. ومما جاء في مقدمة المؤلف لهذا النتاج العلمى المميز، قوله: إن موضوع المؤسسات التعليمية من المواضيع التى تساهم في بناء فكر الأمة وثقافتها ونهضتها وحركتها، وقد تجسد ذلك في العراق، فكان اكتشاف الكتابة في بلاد وادى الرافدين، أعظم حدث في تاريخ البشرية، التى دفعت المجتمعات إلى الاهتمام بالمؤسسات التعليمية، وكانت مدينة الموصل من بين المدن التى ساهمت في بناء المؤسسات التعليمية وبناء المدارس، فقد أجمع المؤرخون على أن أقدم مكتبة في العالم هى مكتبة آشور بانيبال، التى ضمت (٣٠٠٠٠) لوح طينى، اكتشفت في قصره في نينوى، وكانت هذه من أروع الإنجازات الحضارية التى سبقت فيها الحضارات القديمة.

وقد اهتمت الموصل في بناء المدارس، فقد شيّدت فيها مدرسة في عصر واليها (الحر بن يوسف) الأموى، الذى حكم الموصل للفترة (١٠٦- ١١٣هـ/ ٧٢٤-٧٣١م). وتقع هذه المدرسة في محلة (حوش الخان)، في الجهة الشرقية من المدينة، قرب شارع نينوى، الشارع الرئيسى في المدينة، في المسجد الذى يسمى (مسجد الحر بن يوسف)، والذى أطلق عليه (جامع الرحمانى)، وكانت تدرس فيها العلوم الدينية وقراءة القرآن والحديث والشعر، وظلت اثار هذه المدرسة باقية إلى فترة زمنية قريبة.

وفى التاريخ الحديث سبقت الموصل المدن الأخرى فى تشييد المدارس، فقد شيّد الحاج (فهمى أفندى بن مصطفى العمرى) مدرسة فى (باب لكش) سنة ١٨٦١م، فى عهد والى الموصل (كنعان باشا). وأشارت كتب التراجم إلى أن هذه المدرسة كانت نواة لمئات من العلماء الذين حملوا مشاعل العلم والمعرفة على مر العصور، حتى قال السَّرى الرَّفَّاء فى الموصل ما يلى:

**سَقَى رُبى المَوْصِلَ الفَيحاءِ مِنْ بَلَدٍ *** جودٌ مِنَ المُزنِ يَحْكِى جُودَ أَهليها**
**أأندبُ العَيْشَ فيها أَمْ أَنوحُ علَى*** أيامها أَمْ أُعَزى فى لياليها**
**أرضٌ يَحنُّ إليها مَنْ يُفَارِقُها *** ويحمدُ العيشَ فيها مَنْ يُدانِيها**

لذا نجد أن من ينسب إليها من أهل العلم أكثر من أن يُحصوا، وأن هؤلاء العلماء اعتزوا بمدينتهم الموصل، فكانت ألقابهم (الموصلى)، وكان لهم دور فى نشر علوم المعرفة، وتقلّدوا المناصب العليا فى مدن العالم الإسلامى، فأحيطوا بمظاهر التقدير والتكريم فى الأماكن التى وطأت أقدامهم.

وهذا الكتاب يهدف إلى إظهار التجذّر التاريخى، والسبق فى بناء المدارس، فى مدينة الموصل، بوصفها محطة كبيرة لتنوير عقول طلبتها فى الإبداع والتفوق والنهوض فى مجالات الحياة المختلفة، فكان لزاماً علينا أن نوثّق تاريخ هذه المدارس. وهناك دراسات رائدة عن التعليم، قام بها باحثون وأساتذة مختصون، ولهم الفضل الكبير فى دراسة التعليم فى العراق، والموصل بصورة خاصة، منهم: ساطع الحصرى فى (مذكراته) عن الرزاق الهلالى فى كتابيه: العثمانى)، و(تاريخ التعليم فى العراق فى عهد الاحتلال البريطانى)، وإبراهيم خليل العلاف، فى دراساته الشاملة عن التعليم فى العراق، ومنها: (تطور التعليم الوطنى فى العراق)، وجمال أسد مزعل، فى كتابه: (نظام التعليم فى العراق)، وذنون يونس الطائى، الذى بذل جهوداً متميزة عن التعليم فى مدينة الموصل، منها: (ملفات مدارس الموصل الإبتدائية مصدر لدراسة التعليم). وتوجد دراسات كثيرة لطلبة الدراسات العليا فى جامعة الموصل، على شكل رسائل وأطاريح جامعية، وهى دراسات جيدة، وذات قيمة علمية، سنشير إليها فى متن الكتاب.

ولقد اعتمد المؤلف فى دراسته على العديد من الوثائق والملفات، ومنها السجلات الخاصة بقيود الطلبة والمعلمين، والبلاغات (الكتب الرسمية) الصادرة من وزارة المعارف العراقية، والسالنامات العثمانية، وخاصة سالنامات ولاية الموصل، كما اعتمد على الصحف المحلية، ومنها: جريدة الموصل، ونصير الحق، وغيرهما.

وشمل الكتاب الحديث عن مدارس الموصل فترة زمنية طويلة، بدأت منذ تأسيس أول مدرسة فيها فى العصر الأموى إلى سنة ١٩٥٨، ولم يشر إلى المدارس التى تأسست فيما بعد، وهى بحاجة إلى دراسة خاصة، لافتتاح مدارس كثيرة، وبداية مرحلة جديدة فى تاريخ العراق المعاصر، تمثّل بسقوط النظام الملكي (١٩٢١-١٩٥٨)، وقيام ثورة ١٤تموز ١٩٥٨.

وفى بعض المدارس تجاوز المؤلف هذه الفترة الزمنية لاستمرار المدرسة فى عطائها العلمى، وتحدّث عنها إلى وقتنا الحالى، وكان همّه أن يتابع تاريخ تأسيس المدرسة، ومكانها، ومدرائها، وملاكها التعليمى، ونماذج من طلبتها، سواء كانوا من عامة الطلبة، أم من الذين صار لهم شأن فى الوسط الثقافى والاجتماعى والسياسى. كما أشار المؤلف إلى تأسيس مديرية تربية نينوى، والمدارس المهنية، وبدايات تأسيس الكشافة، ومشاكل الطلبة، وغيرها.

وقُسِّمَ الكتاب إلى سبعة عشر فصلاً، جاء فيه ذكر المدارس حسب التسلسل التاريخى. فأشار المؤلف إلى مدارس العهدين الأتابكي والعثمانى، ومدارس الطوائف الدينية، والأقليات القومية (الأرمن)، والمدارس الحديثة، الواقعة داخل وخارج الموصل. وهناك مدارس أخر سيواصل دراستها، إن أتيحت الفرصة له. وتمنّى المؤلف أن تكون مساهمته هذه فيها إضافة جديدة إلى الصرح العلمى التربوى، وتمنى أن تستمر وتنمو من قبل الباحثين فى حقل التعليم، خدمة لمدينة الموصل العزيزة.

وقدّم المؤلف شكره وتقديره إلى قسم الإعلام فى مديرية تربية محافظة نينوى، ويأتى فى مقدمته مديره الدكتور بشار إبراهيم نايف النعيمى، الذى كان عوناً فى تشجيعه له فى مواصلة العمل وتذليل الصعوبات، ومتابعة البريد الخاص بالبحث والوارد من المدارس. كما لم ينس الذين اطلعوا على مسودات هذا الكتاب، وساهموا فى تقديم أى نص كان مفيداً للكتاب، ومنهم: الأستاذ الدكتور إبراهيم خليل العلاف، والدكتور عبد الفتاح على يحيى البوتانى، والدكتور يونس حمش خلف، والدكتور عبد الرافع جاسم، والدكتورة وفاء رفعت نور الدين، والأستاذ وائل سليمان داود، والست منى أحمد على البابلى.

وقد أمتاز المؤلف بتقيّده بالروح العلمية، فكان مستوفيا متن الكتاب تفصيلاً فى المادة، ومقارنة فى النصوص التاريخية، وتحليلاً وترجيحاً وبياناً للرأى، وناقداً وممحّصاً لنصوص الكتب، ومؤلفيها، موثّقاً لشواهدها العمرانية ووفيات أعلامها؛ من المؤرخين والعلماء والمدرسين والمعلمين، بالتاريخ الهجرى والميلادى. ولا تقلّ هوامش الكتاب عن متنه فى قوتها، ودقتها، وتفصيلاتها، ما بين توثيق لمصادر الكتاب، وتعريف لشخصية، أو ذكر لمؤلفات عالم معيّن، بمتوسط عدد هوامش يصل إلى خمسة هوامش للصفحة الواحدة.

وليست النصوص التاريخية هى ما استعان به فى تأليف كتابه فحسب، بل استشهد بالقصائد والقطع والأبيات الشعرية التى قيلت لأغراض مختلفة، وهناك ميزة مهمة فى هذا الكتاب، وهى إن مؤلفه وثّق كتابه بالصور التى التقطها بنفسه للمدارس، وبعض الشخصيات، من المدراء والمدرسين والمعلمين، فضلاً عن بعض صور المدارس، وبعضها الآخر كان للكادر التعليمى لبعض المدارس. واستعان بصور أخرى من بعض الكتب، فى بيان بعض الإصدرات من المجلات، التى صدرت فى الموصل عن طريق بعض المدارس، والتى يعود تاريخها إلى الربع الأول من القرن العشرين. كما استعان بالجداول فى بيان عدد الطلبة الخريجين، والأوائل، ومعدلاتهم، وفروعهم الدراسية، وأعدادهم، ونضرب مثلاً للسنوات من ١٩٢٢ إلى 1992 لثانوية الموصل (الإعدادية المركزية أنموذجاً)، أى إنّه أرّخ ووثّق لسبعة حقب، أىْ حوالى سبعين سنة.

وقد أفاض المؤلف فى عرضه لكل مدرسة من المدارس الموصلية، سواء فى داخل الموصل، أو فى أقضيتها ونواحيها وقراها، من حيث ذكر اسم المدرسة، والتغيّر الذى طرأ على الاسم، وبيان موقعها، وأسماء مدرائها، وكادرها التدريسى، وأهم طلبتها الخريجين، مع ذكر أعدادهم،

ومناهجها، وموادها الدراسية، والمجلات والنشـرات التـى كانـت تصـدرها، ونشـاطاتها الثقافيـة، وبيان وضعها الحالى.

وقد استعان المؤلف بجملة كبيرة مـن المصـادر المتنوعـة، منهـا (١٧) مصـدر أولى، وحـوالى (٦٥) مرجع حديث، و(١٢) رسالة جامعية، فضـلاً عـن سـالنامات الموصـل العثمانيـة، بواقـع (٤) سالنامات، مما ووثّقـه فى مصـادره، كـما نوّهنـا لـذلك مسـبقاً، زيـادة عـلى الدراسـات والبحـوث والمقالات، والتى بلغ عددها (٢١). أما الصحف فبلغت (٩٦) صحيفة، أبرزها وأعرقها مـن حيـث القدم جريدة (الموصل)، التى استعان بأعداد كثيرة منها، للفترة بين عشـرينيات وإلى أربعينيـات القرن العشرين، فضلاً عن جريدتى (نصير الحق)، و(الوقائع العراقية).

ومن بين المجلات التسعة التى جاءت فى قائمة مصادر الكتاب، تبرز لنـا مـن بينهـا مجـلات مهمة، كمجلة (لغة العرب)، ومجلة (الجزيـرة) الموصـلية، ومجلـة (سـومر)، وهـى مـن المجـلات القديمة الصدور، والتى تمتاز بندرة أعدادها، فضلاً عن الدوريات الأكاديمية الحديثـة، التـى تمتـاز برصانتها العلمية، مثل مجلة (دراسات موصلية)، التى يصدرها مركـز دراسـات الموصـل/ جامعـة الموصل.

ومن المصادر الأخرى للكتاب: التقارير، والبلاغـات، وسـجلات المـدارس، التـى بلـغ عـددها (٣٦)، فضلاً عن الوثائق الدراسية، وهى نـادرة جـداً، وبواقـع وثيقتـين (٢)، لا سـيما أنهـا صـادرة للفترة بين سنتى ١٩٣٦ و١٩٥٩. وكذلك جاءت تقارير المدارس بحـدود (٥٨) تقريـراً، زيـادة عـلى الاستبيانات، والمقابلات الشخصية، والتى بلغت (١٨) مقابلة، والأدلة السياحية للموصل والمملكة العراقية، والمقالات المنشورة على الانترنت، والتى بلغ عددها (٣٣) مقالة.

ومن الجدير بالذكر، أن المؤلف الدكتور (على نجم عيسى جاسـم الراشـدى) ولـد فى مدينـة الموصل/ العراق سنة ١٩٥٧، دخل قسم التاريخ فى كلية التربية /جامعة بغداد، ثم واصل دراسـته العليا فى كلية الآداب/ جامعة البصرة، وحصل عـلى الماجسـتير عـن رسـالته الموسـومة: (حـماة فى العهد الأيوبى)، والدكتوراه عن أطروحته: (حلب فى العهد الأيوبى)، وقد رُقى لمرتبة الأستاذية سنة ٢٠١٦، وله عدد من الكتب المنشورة، هى:

- رسائل القاضى الفاضل، دراسة وتحقيق، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥.
- رحلة الشيخ طه الكردى، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧.
- حماة فى ظل الأيوبيين، دراسة فى سياستها وعمرانهـا وحياتهـا الثقافيـة، بـيروت: دار الكتـب العلمية، ٢٠٠٩.
- مدارس الموصل، دراسة تاريخية حضارية، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٦.

فضلاً عن نشر العديد من البحوث والدراسات والمقالات، ومنها:

١ ـ جهود القاضى الفاضل السياسية والعسكرية والثقافية فى دولة صلاح الدين الأيوبى.
٢ـ أبو الفداء ملكاً ومؤرخاً؛ دراسة فى منهجه وموارده.
٣ـ التحصينات العمرانية فى قلعة حلب فى العصر الأيوبى.
٤ـ الفوائد العلمية بين حماة الأيوبية والأندلس وصقلية.
٥ـ التعليم فى اليابان. ❐

# إصدارات جديدة

✍ صدر حديثاً للكاتب والإعلامي (أحمد الزاويتي) رواية بعنوان (هروب نحو القمّة) في حوالي ٣٠٨ صفحة مِنَ القطع المتوسط في حُلّة قشيبة.

وتتناولُ الرواية مُعاناة الشعب الكورديّ إبّان حكم النظام العراقيّ السّابق أثناء الهجرة المليونيّة لشعب كوردستان العراق عام ١٩٩١م. والزاويتي في روايته هذه قد وثق مأساة الشعب الكوردي بأسلوبٍ درامي، وبنى جسراً واصلاً بين الحاضر المثقل بالمشكلاتِ والماضي الحافِل بالمآسي، وقد استخدم جماليّاتٍ مكانيّة جاعلاً (الجبل) الرمز الّذي ارتبط بالكوردِ قديماً وحديثاً، حيثُ كان وما زال المَلاذ والملجأ الّذي يحتمي به الكورد من الخصومِ والأعداء، وقد استخدم في روايته لغة إنسانيّة تصويريّة سلسلة مترعة بالمعاناة، وهي جديرة بأنْ تتحوّل إلى عملٍ سينمائي كبير.

والرواية بفصولها التراجيديّة تأخذُك إلى عالمٍ ملىء بالحزن ومفعمٍ بالأسى، وتشعرُ حين تقرأ الرواية وكأنّك واحِدٌ من أبطالِها، وكأنّ الأحداثَ الّتي مرّت مع تلك العائلة الكوردية الّتي وصفت الرواية رحلتها المأساوية أو هروبها التراجيدي، هي الأحداثُ نفسُها الّتي مرّت مع الكوردِ جميعاً على فتراتٍ زمنيّة مُتلاحقة ولحدٍّ هذهِ اللّحظة، ولكنّه أبقى في النهاية على البطلِ الّذي وقفَ صامِداً جَلِداً أمّام عاصفاتِ الأحداث المريرة. وتأتي هذه الصورةُ كرمز قومي مُعبّر، إذ إنّ الكورد وإنْ تعرّضوا لأقسى ضرُوب المعاناة والمأساة، فإنّهم سيخرجُون من بينَ الأنقاض أصلبُ عوداً وأقوى وجوداً، لأنّ لهم قضيّةً إنسانيّة عادِلة، فمن حقّهم كما من حقِّ غيرهم أنْ تكون لهم دولتهم المستقلّة، وأنْ لا يكونوا - إلى الأبد - تحتُ وصاية أعدائِهم الّذين تلاعبوا - وما زالوا - بقضيتهم❐

# كيف يمكن إصلاح حال الأمّة؟

صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

ولد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) فى بيئة متخلفة فى العقيدة والإدارة والسياسة والاقتصاد والدراسة والصحة والعسكر، وبعد أربعين سنة من ولادته أوحى الله إليه واصطفاه نبياً ورسولاً ليكون خاتم الأنبياء ورحمة للعالمين.

واللافت فى حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو التغيير الجذرى الشامل الذى صُنع على يديه فى مجتمع قبلى كمجتمع قريش آنذاك، كي يُكوِّن بعد ذلك - وفى سياق زمنى معيّن - إمبراطورية فى المنطقة والعالم.

وبعد إعلان انهيار الدولة العثمانية، التى كانت رمزاً للخلافة الإسلامية، على يد (كمال أتاتورك)، قبل مئة عام من الآن تقريباً، ظهرت تيارات إسلامية مختلفة النظر فى الفكر والواقع، بغية أن تستعيد مجد الأمة من جديد، وتنقذها من الوضع المأزوم الذى عاشت فيه زمناً طويلاً.

وها نحن نقترب من مرور مائة عام على ظهور تلك الحركات والتيارات فى العالم الإسلامى، دون أن نلمس أىّ تغيير يذكر، سواء فى الفكر أم الواقع، مقارنة بالتغيّرات الكبيرة الضخمة التى حدثت فى العهد النبوى والخلافة الراشدة،

صحيح أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) مات ولم يعد بيننا، لكنه خلّف بعده القرآن الكريم والسنة، وهما المصدران الرئيسان للفكر الإسلامى، ومصدرا النهوض بالواقع الذى نعيش فيه منذ زمن ليس بالقليل.

قبل كل شىء، على علماء الأمة ومفكريها، أن يوحّدوا كلمتهم، وأن يجمعوا على تشكيل مرجعية فكرية تغطى احتياجات الأمة، من أجل إنقاذ الأمة من التشتت الفكرى الذى هو مصدر كل أدوائها.

إن إنقاذ الأمة، وإصلاح حالها، يبدأ من فكرها، ويمرّ بفكرها، وينتهى بفكرها.. أىْ لا يمكن أبداً إصلاح حال الأمة دون إصلاح فكرها.. وهذا من مهمة العلماء والمفكرين دون غيرهم.. وبالتالى، على الحركات الإسلامية السياسية أن تطرح مشروعاً فكرياً واضحاً يرسم بصورة حاسمة رؤاهم للمستجدات الراهنة فى عصرنا الحاضر، ويعطيهم هويتهم الحقيقية، ويميّزهم عن باقى الآخرين الفاعلين فى الساحة السياسية المتاحة للجميع.

وفى النهاية لا بُدّ أن نذكّر بالقولِ المأثور: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها❐

# تقارير

| | |
|---|---|
| - الاتحاد الإسلامى يدين قرار الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل | تقرير: الحوار |
| - احتجاجات فى إقليم كوردستان | تقرير: سرهد أحمد |
| - مؤتمر دولى بالمغرب حول السنة النبوية | تقرير: الحوار |

# الاتحاد الإسلامي الكوردستاني يدين قرار الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل

**تقرير: الحوار**

✍ أدان الاتحاد الإسلامى الكوردستانى بشدة قرار الرئيس الأمريكي (دونالد ترمب) نقل سفارة بلاده من (تل أبيب) إلى (القدس)، والاعتراف بالمدينة عاصمة لإسرائيل .

جاء ذلك فى رسالة وجهها الأمين العام، وفى بيان صادر عن المجلس السياسى للحزب، يوم ٢٠١٧/١٢/٧ .

وورد فى رسالة الأمين العام الأستاذ (صلاح الدين محمد بهاء الدين)، والتى عنونها بـ(القدس هوية أمة): "القدس ملك جميع المسلمين، وليس لأحد التعامل بها. أمريكا كشفت عن يدها بسبب قرار رئيسها، لقد اقترف خطأ سياسياً كبيراً، وألحق ضرراً بسمعة بلاده، والقرار صدر فى وقت وظرف حساس، وفى زمن يكاد ينعدم فيه الأمل، وتغلب فيه روح الاستسلام."

وتابع: "لقد شكل هذا القرار زلزالاً ضرب الأوضاع فى مقتل، وحدثاً هز الأمة الإسلامية"، مضيفاً: "القدس مدينة المسلمين المقدسة، هى فقط على أرض فلسطين، لكنها ملك لجميع الأمة، ووقف لجميع المسلمين.. المقدسات تتجاوز نطاق الزمان والمكان.. ونتيجة تقاعس بعض العرب، أو استبداد البعض، لا يمكن أن نغض الطرف عن مقدسات المسلمين فى (القدس والأقصى) ."

وأردف: "إن السماح بتهويد القدس واحتلال المسجد الاقصى منذ سنة ١٩٦٧، علامة على ضعف النخوة والحماسة الدينية لدى المسلمين، ومن واجب المسلمين جميعاً، وواجب الإسلاميين فى كوردستان، التعامل مع قضية (القدس والمسجد الاقصى) بحيوية، وجعلها قضية مركزية، وعليهم أن يعبّروا مع جميع أبناء الأمة الإسلامية عن رفضهم للقرار الخاطىء الذى اتخذه

الرئيس الأمريكي."

واستشهد بالتاريخ، قائلاً: "حررها صلاح الدين الأيوبى من قبضة الصليبيين سنة ١٢٣٩م، لهذا نحن الكورد تربطنا بالقدس علاقة روحية ومعنوية لا يمكن تجاهلها. وقد ضرب صلاح الدين وجيشه مثالاً جميلاً للسلام أثناء تحرير القدس، أذهل العالم، وبات مدعاة فخر للكورد". وأكد: أن "القدس ليست قضية سياسية بسيطة، ويتوجب على المسلمين التمسك بها، ولا يمكن تركها للصهاينة يستحوذون عليها بدعوى العقيدة والقدسية، ولا يجوز لأى ملك ولا رئيس ولا صاحب سلطة أن يفرط بها ."

**الأمين العام: القرار أعوج، يتعارض مع الحقائق التاريخية، ويتنافى مع القيم الإنسانية، وهو استهانة بمشاعر ومقدسات مليار ونصف المليار مسلم**

وانتقد قرار الرئيس الأمريكي واصفاً إياه بأنه: "قرار أعوج يتعارض مع الحقائق التاريخية، ويتنافى مع القيم الإنسانية، وهو استهانة بمشاعر ومقدسات مليار ونصف المليار مسلم، ويقف ضد أحرار العالم قاطبة ."

من جهته شجب المجلس السياسى للاتحاد الإسلامى الكوردستانى فى بيان القرار، ووصفه بـ"الخاطىء"، وعبّر عن رفضه له: "لأنه يقف بالضد من جميع المسلمين، بالأخص ضد الشعب الفلسطينى"، وحذر من أن القرار: "سيؤدى إلى زيادة المشكلات ويعقد الأوضاع ويؤدى إلى عدم الاستقرار الذى تعانى منه منطقة الشرق الأوسط، ويتسبب فى مضاعفة الصدام، ويغذى نزعة العنف لدى الجماعات الإرهابية"، موجهاً مناشدته إلى كافة المنظمات الدولية والرأى العام العالمى بالعمل على إلغائه .

وفى ذات السياق عبّر المئات من الناشطين والمدونين الكورد عن غضبهم الشديد لقرار ترمب الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة الأمريكية إليها.

جاء ذلك خلال تعليقات وصور نشروها على صفحاتهم بمواقع التواصل الاجتماعى، ومنها (الفيسبوك).

ووصف معظمهم القرار بـ"اللامسؤول"، وصادر عن إدارة متغطرسة ورئيس لا يجيد سوى افتعال المشكلات وتعميق الأزمات .

وزيّن غالبية المدونين الكورد صورهم بخلفيات لمدينة القدس والأقصى المبارك، كتبت تحتها عبارات باللغة الكوردية والعربية، مثل: (القدس عاصمة الأنبياء)، و(القدس عاصمة المسلمين)، و(القدس خط أحمر)، و(أحفاد صلاح الدين أعينهم تترقب القدس ) .

وتعكس هذه البوستات والتعليقات دعم الكورد لقضايا الأمـة الإسـلامية، لا سـيما القضـية الفلسطينية❐

# تراكم الأخطاء السياسية تولّد موجة احتجاجات جماهيرية في إقليم كوردستان

**تقرير: سَرْهد أحمد**

✍ موجة الاحتجاجات الجماهيرية التى اجتاحت بعض مدن إقليم كوردستان، وصاحبتها أعمال عنف من قبيل مهاجمة مقرّات أحزاب سياسية ومبانٍ حكومية وإحراقها، وكذلك سقوط ضحايا بين قتيل وجريح، تأتى نتيجة تراكمات من الأخطاء ارتكبها القابضون الفعليّون على السلطة، بدءاً من مسألة رئاسة الإقليم وما رافقتها من إشكاليات، ومروراً بعجز الحكومة عن سداد رواتب التدريسيين، وموظفى القطاع العام، وتردّى الخدمات، وانتهاءً بتداعيات أحداث السادس عشر من أكتوبر.

وعلى الرّغم من مبررات الحكومة بشأن تأخّر صرف الرواتب، لكن احتجاجات التدريسيين تواصلت، وامتنع أغلبهم عن الالتحاق بمهنهم التدريسية، وتزامن ذلك مع خروج مظاهرات لشرائح مختلفة من موظفى القطاع العام يوم الاثنين ١٨-١٢-٢٠١٧.

بداية، الاحتجاجات تركّزت فى مدينة السليمانية، وسرعان ما انضمت إليها حواضر وبلدات عدة محيطة بالمدينة وتتبعها إدارياً. وشيئاً فشيئاً تطوّرت الأحداث إلى مواجهات وأعمال عنف طالت مقرّات الأحزاب الخمسة التى تشكّل الحكومة الائتلافية الحالية.

وفور تصاعد حدة الاحتجاجات بادرت تلك الأحزاب إلى إصدار بيانات تأييد لمطالب المتظاهرين، واعتبرتها مشروعة مع مناشدتها الالتزام بالنهج السلمى والمدنى، والابتعاد عن العنف فى التعبير عن المطالب.

الاتحاد الإسلامى الكوردستانى كان أول حزب أعلن دعمه الكامل لمطالب الجماهير، وناشد

الحكومة الإسراع بتبنّى سياسة عاجلة تحقّق تلكم المطالب، وذلك فى بيان أصدره مجلسه التنفيذى - فرع السليمانية، ولاحقاً عقد المجلس القيادى للحزب اجتماعاً فى الثالث والعشرين والرابع والعشرين من كانون الأول ٢٠١٧ اجتماعاً طارئاً بحث فيه الأوضاع السياسية فى كوردستان لا سيما حركة الاحتجاجات فى الشارع، وأعلن فى بلاغ ختامى أنه يمهل حكومة الإقليم

حتى منتصف كانون الثانى المقبل للشروع فى الإصلاحات وتحسين الظروف المعيشية للمواطنين ودفع رواتب الموظفين فى مواعيدها، وفى حال عدم الاستجابة للمطالب سيقرر بعدها - وبشكل حاسم – مسألة بقائه فى الحكومة من عدمه.

وتباعاً، بانت مواقف حركة التغيير، والجماعة الإسلامية المؤيدة لمطالب المحتجّين، وفى يوم الأربعاء ٢٠-١٢-٢٠١٧، أعلن الحزبان انسحابهما من الحكومة، وطالبتا بتشكيل حكومة انتقالية.

وتلا ذلك موقف رئاسة البرلمان ورئاسة وزراء الإقليم فى بيانين منفصلين، أكّدتا فيه تأييدهما لمطالب المتظاهرين، وفى الوقت ذاته حذّرتا من اللجوء إلى العنف، لأنّه لا يحقق المطالب، وإن كانت مشروعة.

وعلى الرغم من مناشدات التهدئة إلا أنها لم تقنع المحتجين، حيث واصلوا تظاهراتِهم، وتفادياً لأىّ تطوراتٍ لجأت السلطات الأمنية والعسكرية إلى نشر عناصرها فى البلدات التى شهدت أعمال عنفٍ، وتطاول على المنشآت العامّة والخاصّة.

من جانبها دخلت حكومة بغداد على خطِّ الأزمة، حيث قال رئيس الوزراء الاتحادى حيدر العبادى فى مؤتمره الصحفى الأسبوعى بعد ختام اجتماع حكومته، يوم الثلاثاء ١٩-١٢-٢٠١٧، إنه يتابع بقلق مجريات الأحداث، وطالب السلطات فى الإقليم بالاستجابة لمطالب المتظاهرين .

ويبقى الوضع الداخلى الكوردستانى مشوباً بالتوتر والاحتقان مع زيادة ضغوط الحكومة الاتحادية على الإقليم، وامتناع الأخيرة عن صرف مستحقات الإقليم المالية.

ويجرى رئيس حكومة الإقليم ونائبه جولة فى عدد من الدّول الأوروبية بناءً على دعوات رسمية لحشد مواقف داعمة لاستئناف الحوار بين أربيل وبغداد لإنهاء المشكلات العالقة بين الطرفين❐

# المغرب: مؤتمر دولي حول السنة النبوية

**تقرير: الحوار**

تحت شعار (السنة النبوية وتعزيز فكر الوسطية والاعتدال) عقد بالمملكة المغربية مؤتمر دولى حول السنة النبوية المطهرة، ومتعلقاتها، توثيقاً وضبطاً وفهماً، وترسيخاً للقيم النبوية فى تعزيز الفكر الإسلامى الوسطى والاعتدالى.

وقد عقد المؤتمر فى مدينة (الدار البيضاء)، يومى ٢٧-٢٠١٧/١١/٢٨، ونظمته جمعية المسار المغربية، بالتعاون مع المنتدى العالمى للوسطية فى الأردن، وجامعة الحسن الثانى بالدار البيضاء، وشارك فيه جمع من كبار العلماء والمفكرين من مختلف دول العالم الإسلامى، من بينهم الشخصية الكوردية السيد (شيروان شميرانى) سكرتير فرع كوردستان لـ(منتدى الوسطية العالمى).

واستهلت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر بإلقاء كلمات كل من السادة، رئيس المنتدى العالمى للوسطية (مروان الفاعورى)، والمفكر السودانى (الصادق المهدى) بالإضافة إلى كلمة رئيس جمعية المسار (مخلص السبتى).

وجاءت الدعوة لهذا المؤتمر بهدف التباحث فيما يمكن به خدمة السنة النبوية من مناهج وأدوات علمية يمكن من رفع مستوى الاستفادة منها فى الإجابة عن أحد أهم الأسئلة التى يطرحها الواقع، وهو سؤال الوسطية والاعتدال: كيف الوصول إليهما؟ والمحافظة عليهما؟ وتنمية المشترك من خلالهما؟ وهذا يفرض الوفاء لروح السنة ومتنها فى سياق الواقع الحالى، بالإضافة إلى ضبط مفهوم الاعتدال والتوسط، كي لا يوظفان لنقض ما جاءت السنة من أجل إقامته، أو ما جاءت لنقضه.

وشهد المؤتمر أربع جلسات علمية تمحورت حول مواضيع السنة النبوية بين الفهم السليم والفهم السقيم، والسنة النبوية بين المبادئ الثابتة والوسائل المتغيرة، والسنة النبوية بين الجزئيات والكليات، والتصرفات النبوية – إشكالات الفهم والتنزيل ❐

# المنطقة في ظل غياب القانون

محمد وانى

✍ أفرز التدخل الأمريكي المباشر فى العراق عام ٢٠٠٣، وإسقاط النظام السياسى فيه بالقوة الغاشمة، دون غطاء أممى، عن تداعيات استراتيجية خطيرة على المنطقة والعالم.. كان الهدف الظاهرى من الغزو، هو دعم الديمقراطية، وضرب الدكتاتورية، وباطنه نشر الفوضى (الخلاقة) فى المنطقة، واستهداف استقرارها وأمنها فى الصميم، وإدخالها فى أتون صراع دموى طويل، حيث تبدأ بثورات (الربيع العربى)، والإطاحة بالأنظمة التقليدية، وتنتهى بالفتن الطائفية، ودعم الميليشيات لضرب بعضها البعض.

ومن أجل الوصول إلى هدفها الاستراتيجى التدميرى للمنطقة، كان لا بد من تهميش دور (الأمم المتحدة)، كمرجعية قانونية وإنسانية دولية، وتعطيل نشاطها فى التدخل لفضّ النزاعات، والحدّ من التوترات، ومعالجة الأزمات فى المنطقة..

وبغياب المنظمة الدولية عن الساحة، استطاعت أمريكا أن تستفرد بدول المنطقة، وخاصة دول الخليج، وتهيمن على مقدراتها بشكل مباشر، ودون الحاجة إلى وكلاء تختفى وراءهم، وعندما وجدت أنها قد اجتازت المرحلة الأولى من خطتها الاستراتيجية فى نشر الفوضى الخلاقة فى المنطقة، فتحت الأبواب على مصراعيها للتدخلات الدولية والإقليمية، وأطلقت يد الميليشيات - بمختلف تنوعاتها الفكرية والمذهبية- حتى حولوا المنطقة إلى جحيم لا يطاق.. كل ذلك من أجل تنفيذ مشروعها الدموى فى المنطقة، وتحويل أصحابها إلى عبيد أذلاء..

ولكي تصل إلى المرحلة النهائية لمشروعها الاستراتيجى، كان لا بد أن تشهد المنطقة المزيد من الحروب الطاحنة، وأن لا تتوقف آلة القتل لحظة واحدة، لتشمل الكل بلا استثناء.. اليوم سوريا والعراق، وغداً تركيا و.. إيران.. الجميع يأخذ دوره فى دفع فاتورة التهور الأمريكي، واختياراتها الخاطئة.. ❐